عميرة علية الصغير

المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات

انتفاضة المدن - الفلاقة - اليوسفية



صفاقس 2004

إهـــــــداء ٢٠٠٧

رصيد عام

الكتاب : المقاومة الشعبيّة في تونس في الخمسينات

الكاتب : عميرة عليّة الصغيّر

السحب : 1000 نسخة

المطبعة : التسفير الفني صفاقس 030 439 74

الإيداع القانوني : الثلاثيّة الثانية 2004

ر.د.م.ك : 0- 427 51 9973 : ISBN

عميرة عليّة الصغيّر

المقاومة الشّعبيّة في تونس في الخمسينات

انتفاضة المدن - الفلاّقة - اليوسفيّة



صفاقس 2004

"ليس من يصنع التاريخ كمن يكتب فيه"

إلى كل من آمن بكرامة الإنسان

وناضل من أجلها

كشاف الموضوعات

المقاومة الشعبيّة في الخمسينات: الخطوط العامّة (1)

تمهيد:

في البدء نرى من الضروري الإجابة عن مجموعة من التساؤلات المشروعة من قبيل ما القصد بالمقاومة الشعبيّة ؟ ولِمَ الإقتصار عليها دون غيرها ؟ ولأيّ ضرورة منهجيّة نخضع عندما نفردها ببحث مخصوص ؟ وأين التّواصل بين سنوات الحسم في الخمسينات وما سبقها من نضالات؟

المقاومة الشّعبيّة أو التّحركات الجماهيريّة ضد الإستعمار تنخرط في حركة مقاومة عامّة كان هدفها تحرير الوطن شاركت فيها نخب تفكّر وترسم الخطط وتحدّد البرامج

---

(1)- هذا النّص أردناه مدخلا للبحوث التي يتضمّنها هذا الكتاب لإبراز الخيط الرّابط بينها ولتفادي نقاط كانت غفلت عنها وحتّمتها شروط إنتاجها. وبعد تمرّس بموضوع المقاومة في الخمسينات منذ الآن أكثر من عشر سنوات كتابة وتوثيقا ساهمنا في شأنها بعديد النّصوص وبعد أن قدّم باحثون آخرون أعمالا قيّمة في الموضوع نذكر خاصة: عروسية التركي، **المقاومة المسلّحة في جهة الأعراض من 1952 إلى 1954**، رسالة ش.ك.ب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، 1985. و**الحركة اليوسفية في الجنوب التونسي (1955-1956)**، أطروحة التعمّق في البحث، نفس الكلية، 1996. وسليم قضّومي، **المقاومة المسلّحة في الأرياف والبوادي التّونسيّة في الخمسينات، الخطوط العامّة**، (ش-ك-ب)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، 1990 ومحمد المختار ناصري، **الحركة الوطنية بين البورقيبية واليوسفية (1934-1961)**، ش.ك.ب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، 1991 و**المقاومة التونسيّة المسلّحة وإشكالياتها: 1952-1956**، أطروحة دكتوراه، نفس الكليّة، 2002، ورسالة والدي محمد حول اليوسفية:

OUALDI (M'Hamed), **L'orage des indépendances. Salah Ben Youssef et les Youssefistes en Tunisie en 1955-1956**, Mémoire d'Histoire sous la direction de Daniel Rivet, Univ. Paris I, 1998-1999.

يجوز لنا بعد هذا أن نجازف لتقديم الخطوط العامّة للمقاومة الشعبيّة في تونس في الخمسينات تاركين التّفاصيل الأخرى للفصول المنشورة ضمن هذا الكتاب.

وتؤطّر وتقود قواعد كوّنت جسم الحركة وروحها من حيث الفعل التاريخي الحاسم قوامها تلك الفئات الواسعة من الجماهير الشعبيّة الكادحة من الفلاّحين والمعدمين في الأرياف ومن العمّال والمهمّشين والشبّان وأصحاب الحرف والمتاجر الصغرى في المدن. فالمقاومة الشعبيّة إذا هي مقاومة هؤلاء العامّة من النّاس الذين أهملهم التاريخ الرّسمي أو التاريخ المتداول واعتبر فعلهم في خانة المقاومة من الدّرجة الثانية إذ ميّزت جل الكتابات في تاريخ الحركة الوطنيّة التونسيّة نشاط الأحزاب والحزب الدستوري الجديد بصورة خاصة واختزلت في الغالب فعل هذا الحزب في نشاط زعمائه لعدّة اعتبارات معروفة في ارتباط بفوز تلك القيادات بالحكم وتوظيف التاريخ لشرعنة موقعها كذلك لأنّ الذين كتبوا التاريخ كانوا من السّياسيّين خاصة وحتى الأكاديميّين لم يخرجوا في أغلبهم عن التّصوّر العام الذي رسمته السّلطة لتاريخ الحركة الوطنية وانخرطوا عن وعي أو دونه في منطق تهميش الفاعلين الحقيقيّين للتاريخ، هذا في غياب قدرة هؤلاء ذاتهم على إنتاج خطاب تاريخي مغاير وذي مصداقيّة لتدنّي المستوى الثقافي عندهم عامّة ولإقصائهم من مواقع القرار السّياسي والثقافي أيضا.

لذا فإنّ اهتمام الجيل المتأخّر خاصة من المؤرّخين الشبّان بالمقاومة الشعبيّة هو من باب إنصاف من ظلمهم التاريخ ورد الإعتبار لهم وهو خاصة التزام واع بواجب البحث عن الحقيقة التاريخيّة وتكريس الموضوعيّة في الاشتغال عن الماضي والتقيّد بمنهجيّة لا تقصي من إدراكها للفعل التاريخي كلّ المتدخلّين فيه مهما كانت أهميّة ودرجة ونوعية انخراطهم إن كانوا من صنف القادة أو من صفوف الجنود الصّامتين.

والمقاومة الشعبيّة بجميع أشكالها من رفع السّلاح في وجه المستعمر إلى التظاهر والإضراب والمقاطعة وبذل المال... والتي كان ميدانها خاصة الفضاء العام من الجبال في الأرياف إلى أنهج وساحات المدن والجوامع والأسواق والفضاءات الخاصة من ضيعات المعمّرين والمناجم والمؤسّسات الرأسماليّة ومنشآت التعليم من الجامع الأكبر إلى مدارس البلاد العميقة وحتى السجون كانت حاضرة طيلة الفترة الإستعماريّة لكن ما ميّز الخمسينات هو ارتقاؤها إلى درجة أعلى من حيث الشّمول الفضائي لكامل أنحاء البلاد وتزامن تحركاتها وخاصة سموّ وعيها السّياسي بضرورة الحسم النّهائي مع المستعمر. وفي الواقع هذا النّضج هو نتيجة سيرورة في ديناميّة المقاومة منذ 1881 عندما ثارت قبائل تونس وبعض مدنها لتصدّ الغـــزاة مرورا بانتفاضتي الفراشيش (1906) والودارنة

(1915-1917) ([2]) وتمرّد الأبطال الفرادى في العشرينات (أمثال محمّد الدّغباجي والبشير بن سديرة وبلقاسم بن ساسي) ([3]) وثورة المرازيق (1943-1944) أثناء الحرب العالمية الثانية وفلاّقة زرمدين (محمد يونب وصالح الوحيشي وفرج الوحيشي وحسن بن علي شهر بوصويفة) (1943-1948) وصولا إلى الخمسينات. كما أنّ انخراط الفئات الشعـبيّة في المدن في المقاومة المباشـرة للإستعمار بدأ مبكّرا مع "النـازلة التونسـيّة" (1885) وتطوّر مع الزّمن بتهيئ الظروف الموضوعيّة لذلك (وطأة الهيمنة والعنصريّة والإستغلال الإستعماري، تنامي عدد سكان المدن وتغير تركيبتهم وبروز أكثر لفئات الشّغالين والمهمّشين...) وعوامل ذاتية (تزايد عدد النّخب المتعلّمة والمسيّسة والتي بلورت الوعي الوطني وبثّته في احتكاك مع تجارب النّضال السّياسي العصري القادمة من الشرق أو الغرب...) حيث أصبحت المدن فضاءات للتّمرّدات (شأن معركة الجلاّز 1911 وأحداث الترامواي 1912 و9 أفريل 38...) والإضرابات العمّاليّة والحرفيّة ([4]) والطلاّبيّة ([5]) وغلق المتاجر والمقاهي ... هذا التحوّل توافق مع القدرات التّنظيميّة

([2]) حول أحداث المقاومة المسلّحة قبل 1939 يمكن العودة إلى كتاب: "**المقاومة المسلّحة في تونس، الجزء الأوّل، 1881-1939**" من تأليف عدنان المنصر وعميرة عليّة الصغيّر، نشر معهد الحركة الوطنية الوطنية، تونس،1997.

([3]) راجع مثلا: - محمد المرزوقي، **دماء على الحدود**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975 ولنفس المؤلّف: - **صراع مع الحماية** ، دار الكتب الشرقية، تونس 1973. كذلك فتحي ليسير، من **الصعلكة الشريفة إلى البطولة الوطنيّة**، صفاقس، ميدياكوم، 1999.

([4]) لقراءة سريعة لهذه التحركات العمّاليّة والحرفيّة يمكن العودة إلى فصلنا: "كرونولوجيا أهم أحداث النضال العمّالي في تونس وواقعهم بين 1881 و1956" ب **فرحات حشاد. الحركة العمّاليّة والنّضال الوطني**، نشر مؤسّسة التميمي، زغوان، 2002، ص 93 -107.

([5]) حول التّحركات التلمذيّة والطلاّبيّة منذ بداياتها يمكن العودة إلى:

- محمد ضيف الله: **الحركة الطلابيّة التونسيّة (1927-1939)**، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان 1999، ولنفس المؤلّف - **المدرج والكرسي بحوث حول الطلبة التّونسيّين بين الخمسينات والسبعينات**، صفاقس، مكتبة علاء الدّين، 2003.

- المختار العياشي، **البيئة الزيتونيّة (1881-1956)**، تعريب حمادي الساحلي، دار تركي للنشر، تونس، 1990 كذلك لنفس المؤلّف:

- **L'Union Générale des Étudiants de Tunisie, au cours des années 50/60**, Pub. de l'ISHMN, Tunis, 2003.

والتعبويّة للقوى الوطنيّة إن كانت ضمن المنظّمات القوميّة المهنيّة كالإتحاد التونسي للصناعة والتجارة (50 ألف منخرط في بداية الخمسينات) والإتحاد العام للفلاحة التّونسيّة (عشرات الآلاف من المنخرطين كذلك) وخاصة الإتحاد العام التونسي للشغل (75 ألف منضوي في 1950) والمنظّمات الشبابيّة وخاصة حركة الكشافة ("الإتحاد الكشفي الإسلامي" وكشّاف تونس" و"الأمل" و"الكشّاف المسلم التونسي") التي كانت مدارس للوطنيّة والتّضحية وضمّت في صفوفها في الخمسينات أكثر من عشرة آلاف كشاف و 450 فرعا منتشرة في كامل البلاد ([6]). وكان الفعل السّياسي الوطني الحاسم منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية خاصة ورأس الحربة في مقارعة الإستعمار من نصيب الحزب الحر الدستوري الجديد الذي تمكن في بداية الخمسينات أن يضمّ لصفوفه حوالي 200 ألف منخرط وأن ينغرس في كامل البلاد ويضمن هيمنته على جل الجمعيات والمنظّمات ويوجّهها، هذا إلى جانب نشاط الحزب الدستوري القديم ومجهودات الحزب الشيوعي التونسي ومن خارجهما من القوى الوطنيّة غير المنتظمة في الصّحافة والإعلام والمحاماة وأهل القلم وغيرهم.

وقد اجتمعت في بداية الخمسينات كل الشّروط لاندلاع "الثّورة" إذ تميّزت الفترة بتدهور عام للحالة الإجتماعية للناس في المدن والأرياف لتتالي السنوات العجاف نتيجة الجفاف والآفات الأخرى (الجراد، رياح السّموم) وغلاء الأسعار وتفاقم البطالة والنزوح وازدياد مشطّ في الضّرائب والغرامات والخطايا. وقد لقيت الدّعاية الحزبية من قبل المناضلين الدستوريين الجدد خاصة وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة في جولاته التّعبويّة لخوض "المعركة الحاسمة" الوقع اللاّزم. وكانت مذكرة الحكومة الفرنسية الواردة في 15 ديسمبر 1951 والرّافضة للمطالب الوطنيّة والمؤكّدة على ارتباط تونس الدّائم بفرنسا إيذانا بالقطيعة وأقنعت الكثيرين بأنّ فرنسا "لا تفهم إلاّ منطق القوّة" خاصّة وأنّ دروس شعوب الهند الصينيّة الثائرة آنذاك ضد فرنسا المستعمرة كانت حاضرة في الذّهن وكانت نبراسا يحتذى لدى الكثيرين.

([6]) حول النشاط الكشفي في تونس في الخمسينات يمكن الرّجوع إلى:

Habib BELAÏD, *« Les associations tunisiennes et françaises au cours des années 1950 à l'heure de la décolonisation »*, in **Processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, Pub. De l'ISHMN, Tunis, 1999, pp. 355-372.

– حامد الزّغل، **جيل الثورة**، تونس، سراس للنشر، 2001، ص: 371–386 و 426–441.

وقد بدأ التمرّد العام ضدّ الإستعمار الفرنسي من جهة بنزرت أيّام 16 و17 و18 جانفي إذ عمّت مدن وقرى الجهة (ماطر، بنزرت، فريفيل، جرزونة...) مظاهرات ومشادّات عنيفة نادى بها قياديو الحزب الحر الدستوري الجديد والإتحاد العام التونسي للشغل لإطلاق سراح معتقلي مظاهرة ماطر يوم 15 جانفي ([7]) وكان مسلسل الإعتقالات الذي استهدف في اليوم الموالي (18 جانفي) الحبيب بورقيبة وعديد القياديين الدستوريين والشيوعيّين وإبعادهم وتواصله في الأيّام اللاّحقة ليشمل عشرات الآلاف من المقاومين، أشعل أكثر فتيل المقاومة لتشمل كامل البلاد.

1) المقاومة في المدن: من المنشور إلى المسدّس ([8]):

كان إيقاف الزّعماء إشارة الإنطلاق إلى تمرّد عام عرفته كل المدن التونسيّة تقريبا من شمالها إلى جنوبها وخاصة الكبرى منها أي تونس وسوسة وصفاقس وبنزرت حيث عمّت المظاهرات الإحتجاجيّة كامل البلاد تنشّطها العناصر الدستوريّة وأحيانا عفويّة مدفوعة بنشيطي الجمعيات الكشفيّة والتلمذيّة متحديّة قرارات منع الجولان والحصار الذي كانت تضربه قوات الأمن على كامل البلاد تقريبا وكثيرا ما تتحول هذه التحرّكات إلى مشادات عنيفة تسقط فيها ضحايا من الجانبين وخاصة في صفوف المتظاهرين وكان المتظاهرون من كلّ الفئات الإجتماعيّة وخاصة أبناء الأحياء الشعبيّة مع مشاركة ملحوظة للنّساء كمشاركات وقائدات أمثال بشيرة بن مراد وأسماء بلخوجة وفاطمة بن علي ووسيلة بن عمّار وخديجة بن إبراهيم ومجيدة بوليلة وآسيا غلاّب وفاطمة قرط وفاطمة باشالي ([9]).

([7]) حول هذه الأحداث وطبيعة التحدّي الذي أبداه المتظاهرون للسّلط الإستعمارية انظر في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية تقرير المراقب المدني في بنزرت بتاريخ 29 جانفي 1952 (QO. 658, Série Tunisie 1944-1955, V.342, ff. 89-100). .

([8]) كانت أحداث هذه المقاومة طيلة الشهرين الأوّلين من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952 موضوع المقال المنشور هنا لذا لن نعود إلى تفاصيلها.

([9]) حول مساهمة المرأة في المقاومة في الخمسينات يمكن الرّجوع إلى:

- جماعي، **نساء وذاكرة**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1993.

- يحي الغول، "*أحداث جانفي 1952 بنابل*"، **المجلّة التاريخيّة المغاربيّة**، عدد 109، جانفي 2003، ص 159-169.

وكان شباب تلامذة وطلبة المعاهد الثانويّة والجامع الأعظم الذين يربو عددهم سنة 1952 على 23 ألف في مقدّمة حركة العصيان في وجه الإستعمار تؤطّرهم منظّمات وطنيّة مثل الشبيبة الدّستوريّة و"لجنة صوت الطالب الزيتوني" (تأسّست سنة 1950) و"الإتحاد العام لطلبة تونس" الذي تطوّر تنظيميًا من "لجنة تنسيق" تكوّنت في خضم الصّراع في فيفري –مارس 1952 إلى اتحاد طلابي في جويلية 1953 حيث كان التلامذة والطلبة طيلة أشهر جانفي وفيفري ومارس 1952 إمّا مضربين عن الدروس أو في إضراب جوع أو يتظاهرون في الشوارع أو متجمهرين في ساحات معاهدهم ([10]) حيث فصل الكثير منهم عن التعليم(3200) ([11]) (حتى وإن عاد أغلبهم فيما بعد) وتعرّضوا للإيقافات والسّجن (126 تلميذا عوقبوا بالسّجن سنة 1952) واستشهد العديد منهم (أربعة في بداية 1952) ([12]). وشملت حركة العصيان هذه جلّ معاهد البلاد من قابس إلى بنزرت وخاصة في مدن تونس (الزيتونة، الصّادقية، العلويّة، خزندار...) وسوسة وصفاقس. وكان مطلب شباب العلم إطلاق سراح المعتقلين وتلبية مطالب الحركة الوطنية.

وقد شملت حركة الإحتجاج كذلك التّجار الصّغار والمهنيّين وتعدّدت أيام غلق الدكاكين والمقاهي والورش خاصة في الثلاثة أشهر الأولى من سنة 1952 في كامل أنحاء البلاد وبالخصوص في المدينة العربيّة في قلب العاصمة بتحريك من الإتحادات المهنية والأحزاب الوطنية وحركتي الطلبة والكشّافة. كذلك استجاب التونسيون عديد المرّات إلى نداء الأحزاب الوطنية في مقاطعة السّلع المستوردة وخصوصا التّبغ. وإن

([10]) حول التحركات التّلمذيّة انظر:

– العيّاشي مختار، **الإتحاد العام لطلبة تونس**، م.م. ص، 34-37.

– حامد الزغل، *"مساهمة اتحاد الطلبة في المعركة الحاسمة"*، روافد، عدد. 7، 2002، ص 101-111.

– عادل بن يوسف، *"مساهمة الوسط المدرسي في المعركة التحريريّة"*، 1952-1954، **روافد** عدد 9، 2003 ص 7-38.

([11]) العياشي، م.م. ص. 39.

([12]) عادل بن يوسف، م.م.

كانت جلّ هذه التعابير النّضالية جتت عن طواعيّة فإن الكثير من المعنيّين كانوا مغصوبين على ذلك تحت التّهديد أو التّعزير.

وكان انخراط الطبقة الشغيلة بصورة جليّة في النّضال الوطني وتسييس تحرّكاتها من مميّزات الخمسينات، وإن كان قد دعّمته النقابات الأخرى وخاصة الإتحاد النّقابي لعملة القطر التّونسي (الإتحاد الإقليمي لنقابة س.ج.ت أصبح منذ 27 أكتوبر 1946 يحمل هذا الإسم USTT) فإن محرّكها الأساسي كان الإتّحاد العام التونسي للشّغل وزعيمه فرحات حشّاد الذي اضطلع فعلا بقيادة المعركة الوطنيّة خاصة منذ إيقاف زعماء الحزب الحر الدستوري الجديد في 18 جانفي 1952 ([13]) حيث أحصينا لسنوات 1950–1954 ستّة إضرابات عامّة شلّت فعلا الحياة الإقتصاديّة للبلاد وأزعجت في العمق السّلط الإستعمارية كان نادى بها الإتحاد العام التونسي للشغل معيّة المنظمات الوطنية الأخرى والحزب الحر الدّستوري الجديد، إمّا للضّغط على فرنسا لاستئناف الحوار مع الوطنيّين وتلبية الرّغائب الوطنية، أو للتّنديد بعمليات القمع الإستعماري في تونس والمغرب ([14]). وغنيّ عن

([13]) كتابات عدّة تناولت هذا الوجه من المقاومة نذكر هنا خاصّة:

-BEN HAMIDA (A), *"Le rôle du syndicalisme tunisien dans le mouvement de libération nationale 1946-1956)"*, in ***Cahiers de Tunisie***, numéros 117-118, 1981, pp. 237-250.

- KRAIEM (M), "1952, *L'année ultime dans la vie de Hached : son action de résistance et son assassinat"* in **Processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, Pub. de l'ISHMN, Tunis 1999, pp. 149-186.

كذلك: عليّة الصغيّر، *كرونولوجيا أهم أحداث النضال العمّالي...*، م.م.

([14]) إضراب عام في 10 مارس 1951 تضامنا مع الوطنيّين في المغرب الأقصى وضد القمع المسلّط عليهم.

– إضراب عام في 29 نوفمبر 1951 مساندة للمفاوضين التّونسيّين في باريس وضد معارضة الإستعماريّين في تونس.

– إضراب عام لمدة ثلاثة أيام: 21–23 ديسمبر 1951 ضدّ منكّرة 15 ديسمبر الفرنسية.

– إضراب عام في 1 فيفري 1952: احتجاجا ضدّ عمليات التّمشيط والقمع التي استهدفت الوطن القبلي.

– إضراب عام في 1 أفريل 1952: ضد إجراءات القمع والحدّ من الحرّيات وتنديدا بإيقاف أعضاء حكومة شنيق.

التذكير هنا أن هذه التحركات تبعتها مئات الإعتقالات وحتى سقوط قتلى في صفوف النّقابيّين والعمّال شأن إضراب 1 فيفري 1952 الذي سقط فيه 5 عمّال برصاص القوات الإستعماريّة.

وقد شملت عمليّات القمع ومنع الحريّات وفرض حالة الطّوارئ ومحاصرة كامل البلاد بفرق عسكرية وقوات البوليس والجندرمة المدن والأرياف تحت خاصة الثّنائي الطّاغية المقيم العام دوهوتكلوك (Jean de Hautecloque) والقائد العام للقوات العسكريّة الفرنسيّة بالبلاد الجنرال قرباي (Garbay). وكانت حصيلة القمع الإستعماري الزّج بعشرات الآلاف من التّونسيّين في السّجون والمحتشدات مثل محتشد رمادة وجلال (بنقردان) وزعرور (قرب منزل جميل) والمحمديّة وسرفيار وتبرسق، وصدرت بين جانفي 1952 وماي 1953 أحكام على 2600 تونسي تراوحت من السّجن إلى الأشغال الشاقة والحكم بالإعدام على العشرات حتى وإن نفّذ في 12 فحسب ([15]).

وأمام تضييق الخناق على النّشاط الوطني العلني انكفأ المناضلون الذين لم يشملهم الإيقاف على العمل السّري والتنسيق لاستمرار جذوة المقاومة وطبع مناشير ممضاة عادة من الحزب الحر الدّستوري الجديد تدعو للصّمود ورفع الهمم والثقة في النصر القريب أو ممهورة بأسماء تنظيمات قتاليّة كـ"لجنة المقاومة" أو "اليد السّوداء" أو "اليد السوداء الجديدة" (صفاقس) التي تتوعّد الفرنسيّين بالقتل في حالة الإعتداء على الوطنيّين وتحضّهم على القبول باستقلال تونس والخضوع للإرادة الوطنيّة ([16]).

– إضراب عام في المناجم في جوان 1953: احتجاجا على عمليات القمع (وتدهور الأوضاع الإجتماعية).

([15]) حول حصيلة القمع الإستعماري لهذه الفترة يمكن العودة إلى:

- **Livre blanc sur la détention politique en Tunisie**, fait par la Commission internationale contre le régime concentrationnaire, Paris, Editions le Pavois, 1953.

([16]) انظر نموذجا من هذه المنشورات السّريّة بأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية:

Q.O. 658, Série Tunisie 1944-1955, V.342, f.114 et f. 116.

وتكوّنت في المدن الهامة مجموعات "إرهابيّة" ([17]) من مناضلين وطنيّين من الدّستوريّين والنّقابيّين والكشّافين جمعت بعض الأسلحة وصنعت قنابل حرقيّة واستعملت المفرقعات ضدّ رموز الإستعمار وعملائه ([18]). وكان من أبرز نشيطي هذه المقاومة السّريّة العنيفة بالعاصمة الطّاهر عميرة والمختار عطيّة والهادي السعيدي والبشير زرق العيون ورضا بن عمّار وصالح بودريالة والهادي الورتاني ([19])، وفي بنزرت أحمد بن حميدة ومحمد صالح البراطلي وعلي كشك ومحمد كبيّر ومختار بن سعيد ([20])، وفي صفاقس محسن القلاّل ومحمد الزواري وحامد الزّغل والقائد محمد بكور والطاهر كمون ([21])، وفي الحامة وقابس تكوّنت أواخر 1951 جمعيّة أطلقت على نفسها "الحديد والنّار" عناصرها أغلبهم من الشبيبة الدّستوريّة فيها الطّيب بن بلقاسم والبشير بن محمود وصالح جابر ومفتاح بن راشد وبلقاسم حمدي وأحمد بالعابد... ([22]) وفي السّاحل بلقاسم قرف ومحمد الشتوي وخليفة قعلول وعلي إسماعيل... ([23]).

وتفيد المصادر المختلفة وخاصة شهادات المقاومين أنّ هذه المجموعات المقاومة كانت تجتهد في استقلالية لتفعل ما تستطيع لمناوشة "العدو" وإحداث عمليات تستقطب الإعلام وسماع الناس لتقنعهم بأن المقاومة جارية وأن القمع لم ينجح في شلّها. ومن مصادر مختلفة ([24]) وخاصة شهادات المناضلين تأكّد الدّور الهام الذي قام به الإتّحاد العام

([17]) نستعمل عبارة "إرهابيّة" رغم ما لصق حديثا هذه الكلمة من سلبيّة والحال إنّ هناك عبر التاريخ دائما إرهاب ثوري وإرهاب رجعي والعمل المقاوم من غاياته ترهيب العدوّ أو القضاء عليه لذا العبارة في مكانها.

([18]) انظر مقال: "**ضحايا الجانب الفرنسي...**" المنشور هنا.

([19]) حول نشاط هؤلاء انظر: الحبيب قرار، **لتحيى تونس**، تونس، مطبعة بوسلامة، 1996، ص 54-61.

([20]) انظر شهادتي أحمد بن حميدة ومحمد صالح البراطلي بوحدة التاريخ الشفوي بمعهد الحركة الوطنية.

([21]) حامد الزغل، **جيل الثورة**، م.م. وعبد المجيد شاكر، **الهادي شاكر**، صفاقس، التعاضديّة العمّالية للطباعة والنشر 2003، ص 251-252.

([22]) شهادة الطيّب بن بلقاسم بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

([23]) انظر أطروحة محمد المختار ناصري، **المقاومة التّونسيّة...**، م.م. ص 83-86.

([24]) راجع مثلا:

التونسي للشّغل في دعم المقاومة وحتى الإسهام في العمليّات المسلّحة ولعلّ أبرز الوجوه النّقابيّة التي شاركت فيها الطّاهر عميرة (المهندس الذي علّم المقاومين صنع القنابل) وأحمد التليلي ([25]) وأحمد بن حميدة ([26]) وحبيب عاشور (شبكة المقاومة بزغوان) والناصر الشريف من الإتحاد الجهوي بتونس وبوراوي بن عبد العزيز من صفاقس وغيرهم. وكان فرحات حشّاد العنصر الأهم والأساسي في قيادة المقاومة في غياب جلّ الزّعماء السّياسيّين، بل يبدو أنه كان المحرك السّرّي لها طيلة سنة 1952 بتمويلها والتنسيق بين عناصرها في تونس والسّاحل ([27]) وحتى في قابس. وكانت السّلط الإستعماريّة على دراية بهذا النشاط السّري للنقابيّين ([28]) وتورّط زعيمهم حشّاد فيه مما أقنع السّلط الإستعماريّة والمغالين من الفرنسيّين باغتياله في 5 ديسمبر 1952 ([29]).

- BEN HAMIDA (A), **Le syndicalisme tunisien de la deuxième guerre mondiale à l'autonomie interne**, Pub. De l'Univ. de Tunis 1, 1989, p. 241.
- BOUDALI (N), **Etre et durer**, Tunis, Imp. Al Asria, 1995, pp. 150-154.

([25]) انظر كذلك في شأن أحمد التليلي ضمن كتاب: أحمد التليلي، **في سبيل الدّيمقراطيّة**، مداخلة الباهي الأدغم: "كان الرّأس المدبّر للمقاومة"، مطبعة تونس قرطاج، 1991، ص 86-95.

([26]) راجع شهادته بكتاب: **فرحات حشّاد**... م.م. ص 137-141.

([27]) حسب شهادة النقابي منصور جراد كان عنصر الرّبط بين حشاد وحسن الورداني بالساحل النقابي محمد أيّوب في **فرحات حشّاد** م.م. ص 168.

([28]) نقرأ مثلا في "سيرة ذاتية" لفرحات حشاد من إعداد وزارة الخارجية الفرنسية:

"أنّه ثبت بالبرهان أنّ أبرز القياديّين النّقابيّين للإتحاد العام التونسي للشّغل يعطون الأوامر وينتدبون المقاومين ويوفرون الوسائل للقيام بعمليات التخريب ويشاركون هم ذاتهم فيها".

(QO. 655, Série corresp.politiques et commerciales. Tunisie 1944-1955, V. 335. f.93.)

([29]) يذكر نور الدّين حشّاد أنّه اطلع على وثيقة بأرشيف الجيش الفرنسي تفيد أنّ حشاد موّل المجموعة الفدائيّة التي قامت بعملية ضدّ طابور شاحنات عسكرية بقابس في 15 نوفمبر 1952 وقتل فيها 5 عساكر فرنسيّين وباعتراف أحد المشاركين في العمليّة أنّ حشّاد زوّدهم بـ 300 ألف فرنك لاشتراء العدّة والقيام بالكمين. انظر: **فرحات حشّاد**... م.م. ص 158-159 ، وحول تورّط السلط الإستعماريّة الرّسميّة وأداتها "اليد الحمراء" في اغتيال حشاد فإن الأمر أصبح تقريبا من المسلّم به. انظر في هذا اعتراف أحد نشيطي هذه المنظمة بهذه الجريمة في كتابه: "اليد الحمراء":
Antoine MÉLÉRO, **La Main rouge, L'Armée secrète de la République**, Paris, Editions du Rocher, 1997, pp. 50-52.

وأمام اشتداد المحاصرة على المدن وتتبع العناصر الحركيّة فيها بالإيقاف أو المحاكمات لجأ العديد منهم ([30]) لطرابلس أو التحقوا بالمقاومة بالأرياف والجبال حيث تزامن نشاط عصابات "الفلاّقة" فيها مع تمرّد المدن في جانفي 1952.

2) المقاومة في الأرياف: الفصل الأوّل:

قبل التفصيل في خصوصيات هذه المقاومة نحاول أن نجيب عن سؤال أساسي: ما هي علاقة الأحزاب الوطنيّة وخاصة الحزب الدستوري الجديد بالمقاومة المسلّحة؟ ([31]).

لم يكن خيار المقاومة المسلّحة لدى الأحزاب الوطنيّة (للدستورين القديم والجديد والحزب الشيوعي منذ الخمسينات) موضوعا في استراتيجيتها لدحر المستعمر، فهي أحزاب قانونيّة تعمل في إطار الشرعيّة وتصارع المستعمر بسلاح الحجة والضّغوط السّياسيّة، وذلك لخلفيتها الإيديولوجية (ليبرالية على مضامين إسلاميّة لدى البعض) وتقديرها الواقعي لميزان القوى في تونس: قوّة استعمارية تمتلك كل وسائل الإنتصار و"شعب أعزل" ليس له سوى إيمانه بحقه في الإستقلال وإصراره على انتزاعه.

لكن هذا التوجّه العام لهذه الهياكل الوطنيّة في اعتماد الطّرق السلميّة لتحقيق الأهداف في التحرّر لا يلغي وجود قناعة عند بعض القياديّين بضرورة اعتماد المقاومة المسلّحة. لكن هنا أيضا يختلفون في مضمون وأبعاد هذه المقاومة. ففي منظور بورقيبة –السياسي قبل كلّ شيء– يجب اعتماد العنف المسلّح المؤقّت والمحدود زمنا لتوظيفه فحسب لتحريك

([30]) من الذين لجؤوا لطرابلس بعد حكم غيابي أو فروا من السّجن ونشّطوا خلية المقاومة الوطنيّة التونسية هناك نذكر: علي الزليطني والطاهر عميرة ومراد بوخريص ورضا بن عمّار وعبد العزيز شوشان ومحمود زهيرة ونور الدين بن جميع وحمّادي غرس والهادي الورتاني وصالح بودريالة وعبد الرّحمان بن خليفة وغيرهم. انظر: *"المنظّمة الدّستوريّة الجديدة بليبيا"* منشور بمجلّة روافد عدد 2001/6 وهو تقرير مخابراتي عسكري فرنسي:

SHAT, Série 2H, C.273 : Rapport de synthèse sur l'organisation Néo-Déstourienne en Libye.

كذلك: قرار، لتحيي تونس، م.م. 167–177. ومقالنا ضمن هذا الكتاب: *"كمندوس فرحات حشّاد"*.

([31]) كنّا أجبنا جزئيا على هذا التساؤل في مقالنا "جيش التحرير الوطني التونسي".

القضيّة الوطنيّة لأنّه يعتقد "أنّه يستحيل إثارة هذه القضيّة على أرضيّة باردة" ([32]) ذاك فحسب فلا حرب عصابات ولا حرب شعبيّة ولا مقاومة مسلّحة مغاربيّة مشتركة. ولا شكّ أنّ هذه الرّؤية كانت أيضا رؤية جلّ قيادات الحزب الدستوري الجديد بمن فيهم صالح بن يوسف على الأقل حتى سنة 1954 ([33]) وبناء على هذه الرّؤية في التّحرير تمّ تجنيد الشعب في الحملات التعبويّة خاصة منذ أواخر 1950 وتمّ بعث مجموعة من المناضلين الدّستوريّين تنشط خارج إطار الحزب لكن بتعليماته أطلق عليها اسم "السّود الأحد عشر" "Les Onze Noirs" ([34]) عهد لها بتنظيم العمل المسلّح. وإن برز العديد من أفرادها فعلا كمقاومين أو يقودون عصابات مقاومة طيلة سنوات 1952-1954 فإنّ تنظيم "السّود" هذا لم يكن له وجود فعلي كتنظيم ولم يسجّل له نشاط مقاوم متميّز. أمّا الدستوريون القدماء أو الشيوعيون وإن ساهم بعض الشباب المنتسبين لهم في أعمال المقاومة في المدن فإنّهم هم كذلك لم يكن في خلدهم مجابهة المستعمر بالسّلاح ولم يشاركوا في عصابات الفلاّقة ([35]).

([32]) انظر رسالة الحبيب بورقيبة للعابد بوحافة بتاريخ 5 جويلية 1950 منشورة بـــ : **تاريخ الحركة الوطنيّة، الجزء XIII**ص 394 386-.

H.M.N : Documents XIII – **L'échec de la répression** ,Tunis, DAR El AMAL, 1979, p.p. 386-394.

([33]) هذا إذا استثنينا مجموعة القاهرة حول الحبيب ثامر حتى وفاته سنة 1949 والتي كانت تنشط حول محمد بن عبد الكريم الخطّابي ضمن "لجنة تحرير المغرب العربي" والتي كانت لا ترى حلاّ للقضيّة الوطنيّة في المغرب العربي غير الكفاح المسلّح أوّلا وأخيرا وعلى ذلك الأساس تم تكوين بعض الضبّاط بداية من 1948 منهم الهادي بن عمر ويوسف العبيدي وعزّ الدّين عزّوز. حول هذا الموضوع انظر: - أبو القاسم محمد كرّو، **الشهيد الحبيب ثامر في ذكراه**، تونس. سوسة، دار المعارف، 1999، ص 42-46.

-زكي مبارك، **محمد الخامس وإبن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب**، الرّباط، فيديرانت، 2003، ص 90-96 (شهادة الهاشمي الطّود أحد الضباط الفاعلين في تلك التجربة).

[34]- حسب محمد الصيّاح هذه المجموعة كونّها بورقيبة في حدّ ذاته في سنة 1950 وفيها: أحمد التليلي، علالة لعويتي، بلحسين جراد، الشاذلي قلالة، حسن بن عبد العزيز، محمود زهيوة، العجيمي بن المبروك، محمد الكوّاش، بوبكر باكير والتّومي بن أحمد **بتاريخ الحركة الوطنية الجزء XIII** ، م.م. ص 522-524.

([35]) حول الحزب الشيوعي انظر ما قاله أمينه العام آنذاك محمد النافع في ندوة "أيام الذاكرة الوطنية" بمؤسّسة التميمي **بالمجلّة التاريخية المغاربيّة** عدد 110 جوان 2003، ص 584 و590.

حصيلة القول هنا أنّ المقاومة المسلّحة في الخمسينات لم تكن قضيّة الأطر القياديّة في الأحزاب السيّاسيّة وأنّ ما جدّ لاحقا من تطوّر الكفاح الوطني إلى حركة مسلّحة فعليّة كان من باب الهبّة التلّقائية من أبناء وطن عزّ عليهم أن تهان كرامته وأن تتجبّر فرنسا في وجوه زعمائهم. لكن هذا لا ينفي مشاركة الأطر السّفلى للحزب الدستوري الجديد وخاصة من مناضليه في نشاط الفلاّقة وحتى أحيانا بدفع منه ([36]). لكن ما جدّ لاحقا في ديناميّة هذه المقاومة كان خارج هذا الحزب بل على العكس من ذلك كان زعماؤه يتنصّلون رسميّا من كلّ مسؤولية في تبنّي هذه المقاومة ([37])، وحتى سرّيا وعمليّا كانوا فعلا بعيدين عن التحكّم في مسارها، ولعلّ إرادة البروز عند هذه الأحزاب وخاصة الحزب الحر الدستوري الجديد كأطراف "مسؤولة" و"سلميّة" وتنبذ العنف كانت غايتها إقناع فرنسا بأنّها ذات وجاهة ومصداقيّة "يمكن التّعامل معها"، وفي الآن ذاته أبقت الصّلة ولو من بعيد ببؤر المقاومة المسلّحة لتوظيف فعلها واستثماره في حينه، وذاك ما جدّ فعلا منذ صائفة 1954 في إطار التّفاوض حول الإستقلال الداخلي.

على كلّ تكوّنت مع بداية 1952 مجموعات مسلّحة من المقاومين معروفة بعصابات الفلاّقة ورغم ما لهذه العبارة من سلبيّة وما تعنيه من نهب وسلب وخروج عن القانون خاصة في منظور الإستعماريّين، فإنّها كانت متداولة لتسمية ثائري الجبال لما تحمله لفظة

أما بالنسبة للدّستوريين القدماء والزيتونيّين يراجع محمد ضيف الله، المدرج والكرسي، م.م. ص 64-66. كذلك حول نشاط الأطراف الوطنية كلّها ومسؤوليتها في العنف المسلح. انظر:
QO.Tunisie 1944-1955, C 350 « Note sur le dév. des sabotages… » (Aôut 1952).

([36]) شأن أهمّ رمز في "مغامرة" المقاومة المسلّحة في الخمسينات الطّاهر لسود الذي أقرّ أنّ الحزب الحر الدستوري الجديد أمدّه قبل أن "يصعد للجبل" في فيفري 1952 بخمسين ألف فرنك ومنظار ومقص للقيام بعمليات تخريب (شهادته مسجّلة بمعهد الحركة الوطنية) كذا الأمر بالنسبة للقائد الآخر لزهر الشرايطي الذي حسب شهادة أخيه عبادة بن مبارك الشرايطي (مسجّلة بمعهد الحركة الوطنية) كان خروجه للجبل بتأثير من بورقيبة ودفع من القائد الدّستوري الجهوي أحمد التليلي.

([37]) انظر مثلا شهادتي القائدين السّاسي لسود والطيّب بن بلقاسم من الحامّة (بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة).

فلاّقة من معاني الشجاعة والبأس وعدم الصبر على الضيّم ومقاومة القهر والظلم ([38]). ودون التفصيل في تنظيم ونشاط هذه المقاومة لأنّنا تناولنا أوجهًا منها في البحوث المنشورة في هذا الكتاب وغيره كما درس باحثون آخرون بإطناب هذا الموضوع ([39]) نقف هنا عند أهمّ خصائصها.

هذه المجموعات من المقاومين التي تكوّنت في الأوّل على أساس عروشي أو قبلي لتنفتح على رجال آخرين من خارج الإنتماء العروشي أو الجهوي تعدّى وعيها العصبيّة القبليّة إلى اعتناق الوطنيّة وحتى الإنتماء للمغرب العربي. امتشق رجالها السّلاح ثورة على القهر الإستعماري وإرادة في التّحرّر، حتى وإن كان القادح الأوّل للثّورة شخصيا كالتّعرّض للظّلم أو القهر من الإستعمار وأعيان المخزن أو رفض الخدمة العسكرية أو هروبا من التّتبعات أو نجاة بالنفس بعد فرار من السّجن ([40]) أو استجابة لنخوة الإنتماء للقبيلة ([41]). من هم إذا رجال الفلاّقة؟

وإن كنّا نفتقد إلى دراسة إحصائيّة جامعة وشاملة لحالة الثلاثة آلاف ونيف الذين شاركوا في المقاومة المسلّحة في فصلها الأوّل (جانفي 52– ديسمبر 54)، فإنّ ما نمتلكه

([38]) نتّفق تماما مع زميلنا فتحي ليسير في رأيه المدافع عن شرعيّة استعمال مصطلح الفلاّقة لمقاومي الخمسينات. انظر كتابه: من "**المملكة الشريفة...**" م.م. ص 18–23.

([39]) خاصة في رسالتي سليم القضتومي ومحمد المختار ناصري واللتين سبقا ذكرهما.

([40]) شأن الستة وأربعين مناضلا الذين فرّوا من زندالة باردو في 22 أوت 1953 ومنهم نور الدّين بن جميع ورضا بن عمّار وحمدة جنيّح أو الخمسة عشر الذين فرّوا من السجن المدني بتونس في 4 أفريل 1954 (منهم بلقاسم البقلوطي وأحمد العياشي وعلي صنديد) والأحد عشر الذين استطاعوا الفرار من السّجن العسكري (منهم بشير زرق العيون ومختار الحامّي وبلقاسم الرّياحي وعلي بن يوسف) وقد لجأ الكثير من هؤلاء إلى مجموعات المقاومة بجبل إشكل أو في طرابلس. حول هذه الأحداث انظر: حبيب قرار، **لتحيي تونس**، ص 104–120.

([41]) بعض العروش حثّت عديدا من رجالها على الصعود للجبال تباهيا على العروش الأخرى ولكسب شرف المساهمة في تحرير الوطن. كما التحق آخرون خاصة في أواخر 1954 "الغاية في نفس يعقوب" للتّعمية على ماض غير مشرّف أو طمع في مصلحة. هذا على الأقل ما صرّح به عديد المناضلين. انظر مثلا شهادة الساسي بويحي مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية كذلك مقالنا: "تفزاوة والمقاومة المسلّحة في الخمسينات.

من معلومات حول الذين استشهدوا ([42]) أو الذين وقع استجوابهم تسمح لنا برسم صورة قريبة من الحقيقة عنهم. فهم رجال في مقتبل العمر في أغلبهم (لكن فيهم من هو دون العشرين ومن زاد عمره على الأربعين) ([43])، ومن العزّاب في الغالب لكن فيهم الكثير من المتزوّجين، أمّا من حيث المستوى الإجتماعي فجلّ مجاهدي الخمسينات هم من أبناء الأرياف والعروش الفقراء (ملاّكين صغار أو بدون أرض، عمّال، رعاة...) وقلّة من الفئات الشعبيّة من المدن، ومستواهم التعليمي لم يتعدّ الكتاتيب في الأغلب أو أمّيين كحالة غالبية الشّعب في الخمسينات. أمّا من حيث أصولهم الجغرافيّة فهم في ثلاثة أرباعهم تقريبا من المناطق الدّاخلية لتونس وخاصة منطقة السّباسب العليا والسّباسب السفلى (سيدي بوزيد، قفصة، القصرين، القيروان) ثم من أرياف السّاحل تليه المنطقة العسكرية بالجنوب وبقيّة جهات البلاد ([44]). فالمقاومة المسلّحة كانت شأن أهل الرّيف والبوادي لعدّة اعتبارات أوّلا لإحكام السّيطرة الإستعماريّة السّريعة على السّاحل الحضري للبلاد ولسهولة انقياد الحضر، وثانيا لأنّ سكان دواخل البلاد وخاصة عروش البدو والسّباسب لا زالت آنذاك صعبة الشكيمة وغير صبّارة على الضّيم ومتروّضة على رفع السّلاح ثمّ أن المجال بجباله وفيافيه وسباخه وصحاريه مواتٍ لحرب العصابات والكر والإختفاء. كيف تنظّمت إذا هذه المقاومة؟

اجتمع المقاومون حول قائد في وحدات جهاديّة سموّها أحيانا "عصابة" أو "كتيبة" واختلف عدد أفراد العصابة الواحدة من فترة إلى أخرى حيث تراوح مقاوموها من العشرة إلى المائة أحيانا وذلك لأن طبيعة المعركة مع الإستعمار كانت تقتضي "حرب عصابات" لا حرب جيوش نظاميّة. ورغم محاولة بعث تنظيم يوحّد بين فرق المقاومة هذه بعد مؤتمر جبل سمّامة في ربيع 1954 تحت تسمية "جيش التّحرير الوطني" حول لزهر

([42]) في "**السّجّل القومي لشهداء الوطن**" الصّادر عن الحزب الإشتراكي الدّستوري سنة 1978 رغم ما يمكن أن نسوقه من مآخذ على المادة المقدّمة فيه: عدم الدّقة، نسيان أسماء وإضافة أخرى وإهمال شهداء 1955-1956 في صف المعارضة اليوسفية... فإن هذا الدّفتر يبقى مفيدا.

([43]) وهي نفس الملاحظة التي توصّل إليها ناصري عندما درس البنية العمرية لحالة 216 شهيدا المذكورين في "**سجل الشّهداء**"، انظر أطروحته، م.م. ص 28.

([44]) وهو ما تؤكّده كذلك دراسة الأصول الجغرافية لشهداء المقاومة بين 1952 و1954. انظر أطروحة ناصري، م.م.، ص، .24.

الشرايطي والسّاسي لسود والطّاهر لسود، فإن هذه الفرق بقيت عمليا تعمل مستقلّة وتتكوّن في استقلال كذلك. وكان عناصر الفرقة من المقاومين المتطوّعين يقبل الواحد منهم في عصابة "الفلاّقة" بعد الإستخبار عنه والتيّقن من صدق نواياه لتفادي اندساس المخبرين في صفوف المجاهدين، ويقسم المنتدب الجديد على القرآن على الوفاء للجهاد وللوطن، ويدرّب على السّلاح داخل الفرقة –إن كان يجهله– تحت إشراف قائد الفرقة الذي يحظى بين رفاقه بالتّقدير لمزاياه الأخلاقية وقدراته القتاليّة. وكانت الفرق تنشط في علاقة مع شبكة من المعينين من المدنيّين تزوّدهم بالضّروري من السّلاح والمؤونة وخاصة بأخبار العدو وتحركاته، فهم داخل السكان "كالسمكة في الماء" حسب تعبير ماو تسي تونغ. أمّا سلاح المقاومين فجلّه من بقايا الحرب العالميّة الثانية تدبّره المقاومون بالإشتراء أو منحه لهم من كان يملكه أو غنموه من الفرق العسكرية الفرنسية، أو تسلّل لهم عبر بعض الوطنيّين الذين كانوا يعملون بوحدات الجيش الفرنسي ([45]). كذلك أسلحة صيد وبعض المسدّسات لكنّه عامّة لم يكن كافيا لتسليح المتطوّعين لأن كثيرين كانوا في وحدات المقاومة بدون سلاح.

وكانت أهم العصابات التي نشطت بين 1952 و1954 هي فرق : الطّاهر لسود (في جهة الحامة ثم تحول لجهة التل العالي) وحسن الغيلوفي (جبال الحامة) وزايد الهدّاجي (جبال مطماطة) ولزهر الشرايطي (جهة قفصة) وفي الوسط فرق محمد علي السّاكري ومحمد جلايلة والبرني البنّاني وعمّار سلوغة والسّاسي لسود وحسن بن عبد العزيز وعلي ماني (جهة السّاحل) وعبد اللّطيف زهير (جهة صفاقس) وبلقاسم البازمي (جهة الكاف) ولعجيمي بن مبروك (جهة جلاص) وهلال الفرشيشي (الشمال الشرقي) ومحجوب بن علي (جهة بنزرت وخمير) ومصباح الجربوع وأحمد لزرق وعلي الصّيد (المنطقة العسكرية بالجنوب)... وقد ازداد عدد هذه الوحدات المقاومة خاصة بعد ربيع 1954 ([46])

([45]) مثل الوحدة السّريّة التي كانت تعمل لفائدة المقاومة بدار المراقبة بقابس حول عمّار زدوقة ومصطفى الحشايشي وعمار بن فرج السبوعي. انظر شهادة السبوعي مسجّلة بمعهد الحركة الوطنيّة.

([46]) دامت فترة الترقب والهدوء النسبي منذ حلول المقيم العام الجديد بيار فوازار (Voizard) في سبتمبر 1953 حتى تبيّن الوطنيّون عدم جديّة الجانب الفرنسي في تلبية المطالب الوطنية حيث عادت المقاومة بقوّة في ماي – جويلية 1954. حيث بلغ عدد الفرق في منطقة تالة والقصرين لوحدها سنة 1953 مجموع 22 فرقة بـــ: سليم قضتومي، م.م. ص. 74.

وشمل نشاطها كامل دواخل البلاد تقريبا بعدما انطلقت من الجنوب وانزاحت تدريجيّا نحو الوسط والمناطق الجبليّة عامة بحثا عن المواقع الآمنة (جبال غابيّة، ماء...) أمام ضربات الجيش الفرنسي.

ولقد مرّت المقاومة المسلّحة في فصلها الأوّل هذا بأطوار كان زمام المبادرة فيها أحيانا بيد المقاومين (كمائن في المضائق والجبال في طريق وحدات الجيش والجندرمة، مهاجمة الثكنات ومراكز الأمن، مهاجمة ضيعات المعمّرين والمناجم، تخريب وسائل النّقل والمؤسّسات وأبراج المياه ومولّدات الطاقة، معاقبة الخونة...) لكن في أغلب الحالات وخاصة منذ ربيع 1953 وطيلة سنة 1954 كان "الفلاّقة" في موقف دفاعي، رغم تعزّز صفوفهم، أمام هجمات الجيش الفرنسي ومعينيه من "فرق الدّفاع" المكوّنة غصبا من الأهالي تحت إشراف السّلط المحلّية بغية تصفية المقاومة. ولقد جدّت من جانفي 1952 إلى ديسمبر 1954 تاريخ تسليم السّلاح حوالي 134 عمليّة مقاومة أو اصطدام هام مع القوّات العدوّة منها 28 في سنة 1952 و11 سنة 1953 و95 سنة 1954، وكان مجالها أساسا المناطق الجبليّة من جبال مطماطة في الجنوب إلى جبال خمير في الشمال وضيعات المعمّرين خاصة شمال الظهريّة ([47]). كما قامت عصابات المقاومين بعمليات جريئة داخل المدن ذاتها استهدفت منشآت أو أشخاصا من رموز الإستعمار أو من المتعاونين معه ([48]).

وكانت أهم المعارك التي استبسل فيها المقاومون التّونسيون واستعملت فيها القوات الفرنسية أسلحة ثقيلة وحتى الطّائرات واستشهد فيها الكثيرون (ما يربو على 288 شهيدا) وقعت من ربيع 1954 إلى موفّى هذه السّنة خاصة ولأن الحكومة الفرنسيّة كانت تحت ضغط الجالية الأوروبيّة في تونس المطالبة بضمان الأمن ورغبة هذه الحكومة في طيّ ملف الفلاّقة الذي أصبح مصدر إزعاج لها في تونس وفي المغرب الأقصى (منذ أوت

([47]) في شأن هذه المقاومة انظر في أرشيف وزارة الخارجية تقارير الإقامة العامة لهذه الفترة بـ Q.O. Série Tunisie 1944-1955, les cartons : 354-356.

وفي أرشيف مصلحة التاريخ لجيش البر الفرنسي: S.H.A.T., Série 2H125, S.369, SHAT, 2H 154, S.389

([48]) انظر دراستنا المنشورة هنا: *"ضحايا الجانب الفرنسي نتيجة أعمال المقاومة"* كذلك مقالنا: *"الجاليات الأوربية والمقاومة المسلّحة في الخمسينات في تونس"*.

ملف الفلاّقة الذي أصبح مصدر إزعاج لها في تونس وفي المغرب الأقصى (منذ أوت 1953) رافضة أن تدخل المفاوضات حول الإستقلال الداخلي مع الجانب الوطني وهي "تحت تهديد السّلاح".

لذا كانت سنة 1954 عسيرة على الفلاّقة وسقط فيها من الشّهداء أكثر من غيرها وتمّت أهمّ الوقائع من حيث شدّة المعارك وعدد الضّحايا في : جبل إشكل: 54/5/22 (شهيد واحد) وأولاد بوعمران: 54/6/5 (7 شهداء) وأبة قصور: 54/6/14 (9 شهداء) وجبل هدّاج: 54/9/1 (12 شهيدا) وجبل برقو: 54/9/13 (15 شهيدا) وجبل سيدي عيش: 54/9/18 (11شهيدا) وجبل المالوسي: 54/9/24 (8 شهداء) وجبل الخشم: 10/1/54 (19 شهيدا) وجبل قضوم: 54/10/8 (22 شهيدا) وجبال طباقة (الحامّة) 10/18/54 (10 شهداء)، وجبل سيدي علي أم الزّين (الرّوحيّة): 54/10/14 (24 شهيدا) وجبل المرفق (قفصة) 54/11/18: (20 شهيدا) وجبل وسلات: 54/11/18 (12 شهيدا) وجبل سيدي عيش: 54/11/21 (33 شهيدا) ([49]).

ورغم خطاب رئيس الحكومة الفرنسية بقرطاج في 31 جويلية 1954 وإعلانه استعداد فرنسا منح تونس استقلالها الدّاخلي وتكوّن حكومة الطّاهر بن عمّار (7 أوت 1954) للتّفاوض في ذلك ونداء الباي (2 أوت 1954) للشعب والمقاومين بملازمة الهدوء والثقة في الحكومة الفرنسية ودعوة المقيم العام الجديد بويي دولاتور (Boyer de Latour) (12 سبتمبر 1954) "الفلاّقة" لتسليم سلاحهم مقابل العفو على من كانوا رفعوه في وجه القوات الفرنسية وركون المقاومين في الجبال فعلا منذ سبتمبر 1954 للهدوء وعدم القيام بعمليّات مقاومة في انتظار ما ستسفر عليه المفاوضات التي افتتحت رسميّا في 4 سبتمبر بباريس، رغم ذلك تعرّض الفلاّقة إلى عمليات ملاحقة مكثفة أسفرت عن الخسائر التي ذكرنا وسهّلت ربّما تلبية النّداء المشترك لبلاغ الحكومة التّونسية والمقيم العام في 22 نوفمبر 1954 للثوّار بتسليم أسلحتهم مقابل منحهم الأمان وحدّد تاريخ 9 ديسمبر 54 آخر أجل لذلك. مع التذكير أنّ هذا الإتّفاق تمّ بعد لقاء بين الزعيم بورقيبة

([49]) انظر محمد مختار ناصري، م.م.، ص 100-106. كذلك "السّجل القومي لشهداء الوطن" م.م.

ومنداس فرانس وبعد موافقة المجلس الملّي الموسّع للحزب الحر الدستوري الجديد الذي انعقد بتونس في 14 نوفمبر 1954 ([50]).

وفعلا في التاريخ المحدّد سلّم جلّ المقاومين أسلحتهم ([51]) أي 2713 مقاوم – ما عدا الطّاهر لسود وسبعين من رجاله –"للجان الإتّصال" التي تكوّنت من ضبّاط فرنسيّين وشخصيات تونسيّة تحظى بالإحترام من الدّستوريّين واتّحاد الشغل والمنظّمات المهنيّة ومستقلّين ([52]). وتسلّم المقاومون "بطاقة دولاتور" أي وثيقة تحمل هويتهم وتضمن عدم تتبّعهم مع منحة بسيطة بقدر عشرة آلاف فرنك ([53]). تمت إذا عمليّة تسليم السّلاح عكس ما كان ينتظر بنسق سريع في العشرة أيام المحدّدة حتى أنّ الإقامة العامة رأت في ذلك إقرارا من "الفلاقة" بالهزيمة أكثر من الإحساس بالنّصر ([54]). وبالفعل لم نلمس في تصريحات بعض المقاومين الذين التقتهم الصحافة افتخارا أو تبجّحا بالنّصر بل هنالك فقط ارتياح وثقة في الحكومة الفرنسية في أن تفي بما عاهدت به ([55]). كيف نفسّر إذا هذا الإمتثال السّريع لنداء 22 نوفمبر 1954 بإيقاف المقاومة وتسليم السّلاح؟ في الواقع إنّ ما ذهب إليه المقيم العام من أنّ "الفلاّقة" كانوا في وضع محرج في الأشهر الأخيرة من سنة 1954 وأنّ نداء حط السّلاح أتى كمخرج مشرّف لمن أصبح "موضوعا في الزاوية" فيه كثير من الحقيقة، لكن من وجه آخر لم يكن ينقص أغلب المقاومين روح التّضحية و"الرّغبة في الشهادة" من "أجل شرف الدّين" و"شرف الأمّة" و"حريّة الوطن" (كما كان

([50]) انظر نص اللاّئحة الصّادرة عن هذا المجلس بجريدة "البتي متان": **Le Petit Matin**, 16/11/1954

([51]) عدد الأسلحة المسلّمة: 2105 جلّها أسلحة من الحرب العالمـية الثانية: أهمّها: 1399 بندقية و38 رشاشة ومدفع واحد رشاش. ويبدو أنّ الأسلحة الصالحة والجيّدة احتفظ بها المقاومون حسب شهادات الكثيرين.

([52]) انظر القائمة الكاملة بجريدة "البتي متان": **Le Petit Matin**, 28/11/1954

([53]) حول عمليّة التّسليم هذه يمكن مراجعة كتاب أحد أعضاء لجان الإتصال بالكاف: محمد الحبيب المولهي، **الوطن والصّمود**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص 198–200 وكذلك التّغطية التي قامت بها جريدة "**الصّباح**" لشهر ديسمبر 1954.

([54]) انظر مراسلة المقيم العام لوزير الخارجية بتاريخ 1954/12/10بـ: A.Q.O, Tunisie 1944-1955, C. 376, f.129

([55]) انظر مثلا تصريح المناسي لسود (**الصّباح** 1954/11/5) والطيّب الزّلاّق (**الصّباح** 12/13/ 54) والأزهر الشرايطي (**الصّباح** 3 و1954/12/4) وعلي الصّيد (**الصّباح** 1954/12/9).

يتردّد في كلامهم) حتى يواصلوا كفاحهم حتى النّهاية، لكن يبدو أنّ أغلبهم اقتنع بما كان يروّجه مبعوثو الحزب الحر الدّستوري الجديد بينهم من أنّ دورهم انتهى وأنّ المهمّة أصبحت من مشمولات السّياسيّين كما خيّل للكثير منهم أنّ الإستقلال تمّ بعد أو هو على الأبواب. كما أنّ الوضع المادي للمقاومة أصبح صعبا من حيث التّموين بالغذاء والسّلاح بتشديد الخناق والمراقبة على بؤر المجاهدين بالجبال من ناحية وعلى السّكان مصدر تموينهم من ناحية ثانية بمنع تحركات العروش للرّعي والهطاية أو الحرث ومعاقبة كل من ثبت تعاونه مع مقاومي الجبال. انتهى إذا الفصل الأوّل من المقاومة المسلّحة في 10 ديسمبر 1954 لكن لتتجدّد بعد سنة تقريبا مع موفى 1955 في ظروف أخرى هذه المرّة.

3) المقاومة المسلّحة: الفصل الأخير أو "الثورة الثانية" ([56]):

تطوّر الخلاف خاصة في قيادة الحزب الحر الدستوري الجديد حول فحوى مضمون الإستقلال الداخلي الذي كان موضوع المفاوضات التّونسيّة الفرنسية بباريس بين المتشدّدين دعاة التكريس الكامل للسيادة التّونسيّة بزعامة الأمين العام للحزب صالح بن يوسف وبين القابلين بالحلول المرحليّة في تحقيق الإستقلال بقيادة رئيس الحزب الحبيب بورقيبة إلى صراع علني ومفتوح كان سياسيّا في الأوّل منذ إمضاء اتفاقيات 3 جوان 1955 حتى موفى هذه السّنة ليتطوّر من صراع الكلام إلى كلام السّلاح ([57]).

---

[56]– كنّا تناولنا أحداث هذا الفصل من تطوّر الحركة الوطنية في مقالنا المنشور في هذا الكتاب: "*جيش التّحرير الوطني التونسي: حقيقته ومصيره*" لذا لن نعود هنا إلاّ لما يقتضيه هذا النّص التّقديمي من توضيح أو إضافة.

([57]) حول كرونولوجيا هذه الأحداث ومواقف الطّرفين واستفراد بورقيبة بالتّأثير على المفاوضين بباريس وإزاحة صالح بن يوسف الذي كان يتنقل بين جنيف والقاهرة انظر: سامية المشّاط: تونس: السّبل نحو الإستقلال (1945–1956).

ELMACHET (S), Tunisie. Les chemins vers l'indépendance (1945-1956), Paris, L'Harmattan, 1992, pp. 222-248.

وحول مفهوم صالح بن يوسف لمضمون الإستقلال المرتقب وعلى ضوئه تكوّنت حكومة التفاوض في أوت 1954 راجع رسالته للمنجي سليم بتاريخ 14 فيفري 1954 بأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (M.A.E., Tunisie 1950-1955, V.308, ff.315-327) والتي ضمّنها الوالدي في بحثه المذكور. ص 122–134.

وكانت انتقادات المعارضين للإتفاقيات تتلخّص في اعتبارها "خطوة إلى الوراء" بما "أنها أقرّت لفرنسا حقوقا دائمة لم تقرّها معاهدة باردو" (1881) حيث منحتها حق الدفاع والشؤون الخارجية وأفقدت بذلك تونس مقوّمين أساسيين لمعرّفات السّيادة. كما ضمنت الإتفاقيات لفرنسا لمدة طويلة (20 سنة) الإشراف على الأمن الداخلي وبقاء محاكمها فاعلة في البلاد وخاصة وجودها الإقتصادي بربط تونس ماليا بفرنسا وضمان المصالح القائمة لمعمّريها وموظّفيها كما يرى هؤلاء أنّ اتفاقيات جوان 55 مسّت من هويّة تونس العربية الإسلامية بربطها بالإتحاد الفرنسي وهي كذلك "خيانة في حق الشعبين الجزائري والمغربي" المحاربين من أجل استقلالهما بينما كانت القيادات الوطنية الثلاث التزمت بالتكاتف حتّى النصر الشّامل ([58]).

أمّا المدافعون عن الإتفاقيات برئاسة الحبيب بورقيبة فهم يقرّون بنقاط الضّعف فيها لكن يعتبرونها مرحلة هامّة في طريق الإستقلال الكامل للبلاد بما أنّ فرنسا اعترفت بوجود دولة تونسية وتمكّن التّونسيون فعلا من تسلّم مقاليد السلّطة فيها، ثمّ أنّ وضعية تونس الجديدة هي أفضل من وضعها السابق لمواصلة الكفاح من أجل استعادة السّيادة كاملة ([59]).

لذا يرى أتباع بورقيبة وجوب احترام الإتّفاقيات والثقة في الجانب الفرنسي من أجل تطويرها، بينما يرى المعارضون وعلى رأسهم صالح بن يوسف وجوب اعتبار اتفاقيات 3 جوان لاغية ومواصلة النضال من أجل فرض اتفاقيات أخرى. وقد لقي بورقيبة في قيادة الإتّحاد العام التّونسي للشغل الدّعم بعدما كان في الأوّل على الحياد ([60])، كذلك

([58]) راجع مثلا خطاب صالح بن يوسف بجامع الزيتونية في 7 أكتوبر 1955 بجريدة **الصّباح** (8/55/10) كذلك النّقد المنهجي لمحتوى الإتفاقيات الذي قام به صالح بن يوسف في أرشيف الخارجية الفرنسية وألحقه الوالدي برسالته المذكورة ص 139-144.

([59]) هذه الحجج بسطها بورقيبة في خطب عديدة طيلة النّصف الثاني من سنة 1955. انظر مثلا خطبه بسوسة (17 جوان) وبقصر هلال (3 جويلية 1955) وأمام إطارات الإتحاد العام للفلاحة التونسية (4 جوان) وصفاقس (17 ديسمبر) وبنزرت (6 نوفمبر) بـ: **تاريخ الحركة الوطنية، الجزء 15.**

([60]) حول موقف الإتحاد العام التّونسي للشغل انظر شهادة أمينه العام آنذاك أحمد بن صالح وأحد قياداته الحبيب عاشور:

مساندة الإتّحاد العام لطلبة تونس واتحاد الصّناعة والتجارة. لكن هذا لا يعني إجماع قيادات هذه المنظّمات ومناضليها حول بورقيبة بل كانت كغيرها يشقها التناقض ([61]). أمّا القوى التي عارضت رئيس الحزب الدستوري الجديد واصطفت وراء صالح بن يوسف نجد فيها قيادة الإتّحاد العام للفلاحة التّونسية ممثّلا في رئيسه الحبيب المولهي وأمينه العام إبراهيم عبد الله ([62])، والوسط الزيتوني في أغلبه من طلبة ومدرّسين. نقول في أغلبه لأنّ طلبة الزيتونة في الإتحاد العام لطلبة تونس وقفوا لجانب بورقيبة ([63]) كذلك بعض مدرّسي الزيتونة (آل النيفر مثلا). أمّا الحزب الشيوعي التونسي الذي عارض في الأوّل اتفاقيات 3 جوان واعتبرها "مغالطة ومجرّد ترميم لنظام الحماية" سوف يراجع موقفه وينضم في أواخر 1955 لصفّ بورقيبة كردّة فعل على الخطاب المحافظ والعروبي لصالح بن يوسف. كما كان الحزب الحر الدّستوري القديم من الرّافضين للإتّفاقيات منذ البداية، وكذا جلّ الصّحف الصّادرة بالعربيّة: صدى الزيتونة والزّهرة والأسبوع واليقظة وخاصة جريدة الصّباح.

هكذا إذا بعد عودة صالح بن يوسف إلى تونس في 13 سبتمبر 1955 وانفجار الخلاف حول الإتفاقيات عرفت البلاد عملية اصطفاف فيها المبدئي وفيها الإنتهازي، فيها العقائدي وفيها المصلحي. وتغيّرت الولاءات لهذا الرّمز أو ذاك حسب حسابات المصلحة والوعود ([64]). ودون أن نكون قطعيّين يمكن أن نقول أنّ صفّ اليوسفيّة جمع المحافظين

-ACHOUR (H), **Ma vie politique et syndicale : Enthousiasme et déceptions (1944-1981)**, Tunis, Alif Editions de la Méditerranée, 1989, p. 59.

– أحمد بن صالح أمين عام الإتّحاد آنذاك يقول أنّ موقفه كان توفيقيّا . انظر، أحمد بن صالح، **إضاءات حول نضاله الوطني والدولي**، زغوان، فترسي، 2002، ص 110.

([61]) انظر مثلا في ما يخصّ موقف اتحاد الصّناعة والتّجارة شهادة مدير جريدة (مسيون) Mission وأمين مال جامعة تونس والأحواز للحزب الحر الدستوري الجديد **أحمد الزّمني بالمجلة التاريخية المغاربية**، رقم 110، جانفي 2003.

([62]) راجع، المولهي، **الوطن والصمود**، م.م.

([63]) راجع شهادة عمر شاشــيّة على منبر مؤســسة التميمي، منشورة بجريدة **الصّباح** عددي 17 و18 ديسمبر 2003.

([64]) انقلاب الباهي الأدغم أو عزّوز الرباعي مثلا بسرعة على صالح بن يوسف بينما أسباب موقفهما في الأوّل لا زالت قائمة آنذاك.

والملاّكين الكبار والبرجوازية من التّجار وأهل الحرف ([65]) وموظفي الإدارة ذوي التّكوين الزيتوني والقضاة والمفتين ([66]) والعائلة الحاكمة خاصة الأميرين الشاذلي ومحمد بينما لمين باي لم يفصح رسميّا على ميوله ([67]). أمّا العامّة من النّاس وخاصة سكّان الأرياف وهم الأغلبية وإن تعاطف البعض مع هذا الزّعيم أو ذاك لاعتبارات جهويّة أو تحزّبا للزّعامات المحليّة فإن غالبيتهم كانت في موقف المترقّب أو الآسف عمّا يحدث من فتنة بين الإخوة.

ولعلّ الأخطر في تطوّر الحركة الوطنية في هذا النّصف الثاني من الخمسينات هو عمليّا انقسام أهمّ قوة سياسية أي الحزب الحر الدستوري الجديد خاصة بعد فصل صالح بن يوسف في 8 أكتوبر 1955 إلى حزبين حزب "الأمانة العامة" وحزب "الديوان السياسي". ما هو ميزان القوّتين؟ يصعب الفصل في ذلك، وإن كانت تقارير المخابرات الفرنسية تعترف بصعوبة موقف بورقيبة في الأوّل فإنّ قدرة الزعيم بورقيبة على الإقناع مع انحياز فرنسا لصفّه سوف يقلبان المعادلة لصالحه. على كلّ تقدّر الإستعلامات العسكرية الفرنسية أنّه في منتصف شهر سبتمبر 1955 كان 40% من الدستوريّين في صفّ صالح بن يوسف ([68]) وأن أكبر جامعة للحزب الدستوري الجديد أي جامعة تونس والأحواز كانت أيضا في صفّه ([69]). لكن جغرافيّة الولاء للأمانة العامة أو للدّيوان

([65]) من ذلك أنّ 500 على 1300 "حانوت" في مدينة تونس أغلقت أبوابها يوم 14 أكتوبر 1955 احتجاجا على طرد صالح بن يوسف من الحزب. انظر:
M.A.E. Tunisie 1950-1955, V. 309, Tg. de Seydoux du 14/10/1955, f. 318.

([66]) حسب وثيقة للإستعلامات العسكريّة الفرنسيّة حول نشاط صالح بن يوسف أنّ هذا الأخير زار في 22 أكتوبر 1955 شيخ الإسلام المالكي عبد العزيز جعيط وأكّد له هذا الأخير عن مساندته التّامة بـ: S.H.A.T., 2H 337 أوردها والدي ملحقا في رسالته المذكورة، ص 162.

([67]) يبدو أنّ أموالا جمعت من الأميرين المذكورين لفائدة صالح بن يوسف في منتصف شهر ديسمبر 1955 حسب الإستعلامات العسكرية. ذكره والدي. ص. 48. م.م. ومصدره (SHAT, 2H 374). بينما بورقيبة لاحقا سوف يتهم لمين باي بدعم غريمه بن يوسف.

([68]) SHAT, 2H337, Note de Renseignements, 16 sept. 1955.

([69]) كان 18 على 21 من قياديي الجامعة لجانب بن يوسف (ذكرته المشاط)، م.م.، ص 240)، انظر كذلك شهادة المناضلين اليوسفيّين الأزهر الشابي القروي وأحمد صوّة وحمّادي غرس والصادق العبيدي وعبد الستار الهاني بجريدة الصّباح: ليومي 7 و8 جانفي 2003.

السّياسي لم تكن قطعيّة ففي الجهة الواحدة نجد من يشايع ذلك الصّف أو الآخر فالسّاحل مثلا لم يكن كلّه في صفّ بورقيبة حيث تكوّنت خلايا للأمانة العامة في القلعة الكبرى وزرمدين والمكنين وجمّال وسوسة وحتى المنستير ([70]) وكذا الأمر للمناطق الأخرى وخاصة الجنوب الشّرقي الذي كان أحد مراكز المقاومة المسلّحة في صف اليوسفية ([71]) خاصّة في أشهر مارس أفريل ماي 1956 وحيث جدّت أعنف المعارك بين ثوّار "الثورة الثانية" والجيش الفرنسي والقوات المساعدة من حرس إضافي ولجان الرّعاية.

على كلّ مثّل مؤتمر صفاقس للحزب الحر الدّستوري الجديد الذي انعقد بين 15 و18 نوفمبر 1955، ورغم مقاطعته من اليوسفيّين وما حدث من ضغوطات على المؤتمرين من عناصر جنّدها الإتحاد العام التونسي للشغل "لحماية المؤتمر" أو من قدماء الفلاّقة الموالين لبورقيبة ([72])، مرحلة هامة في حسم الخلاف، بما أنّ المؤتمر صادق على اتفاقيات الإستقلال الداخلي لكن طالب بتطويرها في الإتجاه الذي كان ينادي به اليوسفيّون. لكن الحسم الفعلي مع المعارضين سوف يكون باعتماد وسائل غير سياسية من الإيقافات والمحاكمات والتّتبّعات وخاصة الحسم المسلّح مع العصابات اليوسفيّة التي بدأت تنشط فعلا في أواخر 1955 وبداية 1956 بقيادة الطّاهر لسود على الميدان وتخطيط وتوجيه من صالح بن يوسف من طرابلس ثم القاهرة ([73]). وكان تدخّل الجيش الفرنسي في صفّ النّظام الجديد النّاشئ الفيصل في حسم الصّراع.

([70]) SHAT, 2H337, Fiches de Renseignements, déc 1955- janv. 1956.

([71]) حتى جرجيس التي تعدّ معقل البورقيبية كانت فيها معارضة يوسفيّة. انظر سالم لبيض: "تطوّر حركة المقاومة في أقصى الجنوب التونسي من القبيلة إلى الخلية الحزبية" بـ: **منهجيّة كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي**، نشر مؤسّسة التميمي، زغوان، 1998، ص ص 121-167، ص 166.

([72]) حضر المؤتمر 1264 نائبا إضافة لـ 1200 عامل جنّدهم اتحاد الشغل "لحماية المؤتمر" وحوالي 1000 آخرين من قدماء الفلاّقة كانوا حضروا على ما يبدو للتّأثير على المؤتمرين. حول أجواء هذا المؤتمر راجع في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية المذكّرة بتاريخ 22 نوفمبر 1955 بـ: QO. 650, Tunisie 1944-1955, V. 316 ff. 107-112.

كذلك شهادة الحبيب قرار، المصدر المذكور، ص 100-183. وكلا المصدرين يفيدان أنّ المؤتمرين لم يكونوا أحرار الإرادة.

([73]) انظر مقال: **"جيش التحرير الوطني التونسي"**.

ورغم النّظرة السّلبية لهذا الفصل من المقاومة لدى بعض السّياسيّين وحتّى من المؤرّخين الذين يُخرجون هذه "المغامرة" اليوسفيّة من تاريخ المقاومة الوطنية نرى نحن عكس ذلك لعدّة اعتبارات ولعدّة نتائج يكشفها البحث:

- نجاح مقاومة "الثورة الثانية" في جرّ القيادة الوطنيّة لتبنّي مطلب الإستقلال التّام وجلاء العساكر الفرنسية وخاصة دعم الثورة الجزائريّة وهذا ما تمّ فعلا ([74]) .

- أجبرت "الثورة الثانية" الجانب الفرنسي على الخضوع لمطلب الجانب الوطني بقيادة بورقيبة على منح البلاد استقلالها في 20 مارس 1956 خدمة لحسابات فرنسا للتفرّغ للقضاء على الثورة في الجزائر وخنقها بقطع الإمدادات عنها من المقاومين في تونس والتخلّص من همّ هي في غنى عنه.

- لكن سلبا تركت هذه الأحداث وما تبعها من محاكمات وتصفيات وإقصاءات جرحا عميقا في الوحدة الوطنيّة التي لم تعرف رتق الصّدع إلاّ بعد جهد وفعل الزّمن في ذاكرة الأجيال.

خـــاتمــــــة :

كانت إذا سنوات الخمسينات ثريّة فعلا بالنّضالات الشعبيّة الحاسمة ولعلّ الدّراسات المنشورة هنا تساهم في الكشف عن بعض ثناياها وتبرز دورها في معركة التحرير الوطني.

([74]) انظر مقالنا: **"التونسيون والثورة الجزائرية"**

ALEYA SGHAIER (A):*"Les Tunisiens et la révolution algérienne"*, in **Méthodologie de l'Histoire des Mouvements Nationaux au Maghreb**, Zaghouan, FTERSI., 1998, pp. 109-149.

البحـــث الأول :

ستون يوما من النضال الشعبي بتونس

من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952

من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952
ستون يوما من النضال الشعبي بتونس

لا زالت فترة الخمسينات من تاريخ الحركة الوطنيّة التونسيّة لم تبح بأسرارها كاملة خاصة وأن عديد الكتابات كانت مطبوعة بطابع التحيّز الواضح إما للقراءة الرسميّة للتاريخ وما صدر عنها من تأكيد على أولوية العمل السياسي المنظّم ومن الالتفات بصورة ثانوية للنضالات الأخرى أو محاولة توظيفها في رؤية انتصارية وزعامتية واضحة. وهناك كتابات ثانية لم تخرج من جدليّة الصراع البورقيبي - اليوسفي وغلّبت الجانب النضالي الشعبي وخاصة المقاومة في روح استبطاليّة (من البطولة) للجماهير واختلاق الأساطير لها. ولعلّ بداية انفتاح الأرشيف المتعلّق بهذه الفترة للباحثين، سيمكّن من نحت نظرة أقرب للواقع. ونحاول بدورنا في هذه الدراسة، تناول فترة وجيزة من هذه المرحلة في تاريخ تونس أي بداية ما اصطلح على تسميته "بالثورة" مركّزين على عرض الأحداث كما وردت. وقد اعتمدنا في درجة أولى على أرشيف القيادة العليا للجيش الفرنسي بتونس وهي -كما هو معلوم- وثائق داخليّة للجهاز الإداري الإستعماري، وهي بصورة عامة عاكسة لحقيقة الأحداث -على الأقل في وقوعها لا في نتائجها- على أن تقارن بمصادر أخرى مكتوبة أو شفاهية.

ونقوم أولا بسرد هذه الوقائع في تسلسلها الزمني والمكاني وثانيا سنحاول في حصيلة استنتاجية الوقوف عند كميّة وكثافة الأشكال النضالية وتنوّعها وجغرافيّتها وسنذّكر بالظروف الماديّة والأمنية التي كانت جدّت فيها.

1- يوميّات النضال الوطني الشعبي في تونس من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952 ([1]) :

التاريخ	الــوقائـــــــع
15 ديسمبر 1951 :	- الحكومة الفرنسية تبعث بمذكرة إلى الباي تعلن فيها عن تمسكها بمبدإ السيادة المزدوجة وعزمها على ربط البلاد التونسيّة بصفة عضوية ونهائية بفرنسا .
21-22-23 ديسمبــر 1951	- المنظّمات الوطنيّة تشنّ إضرابا عاما إنذاريا لإدانة السياسة الفرنسيّة وللتعبير عن رفضها لمبدإ لسيادة المزدوجة
13-1-1952 :	- وصول المقيم العام الفرنسي جون دوهوتكلوك (Jean de Hautecloque) إلى تونس على متن الباخرة مارصو (Marceau) التي كان يرافقها سرب من الطائرات العسكريّة.
14-1-1952 :	- مظاهرة أمام المحكمة في تونس تندّد بمحاكمة رئيس الجمعيّة التونسيّة لقدماء المحاربين، تؤدي إلى التحام مع قوات الأمن نتج عنه جرح اثني عشر شخصا.
15-1-1952 :	- مظاهرة في مدينة باجة ضمّت بين 700 و 800 شخص وأوقف خلالها ثمانية عشر مشاركا من بينهم عشر نساء.
16-1-1952 :	- بنزرت : تظاهر ما بين 4500 و5000 شخص أمام مقرّ القيادة احتجاجا على محاكمة معتقلي باجة ؛ وقد وقعت اشتباكات مع قوات الأمن جرح خلالها خمسة وخمسون نقل تسعة منهم إلى المستشفى.

([1]) وقع تجميع هذا الجدول من مصادر مختلفة وخاصة من أرشيف القيادة العليا للجيش الفرنسي بتونس "مصلحة جيش البر"، وهي عبارة عن تقارير يومية عن سير العمليات وشريط الإضطرابات ممضاة من قائد الجيوش الفرنسية بتونس الجنرال قاربي (Garbay) أو من مساعده العقيد ديفاري (Divary)، وذلك في سلسلة تونس (Série 2 H Tunisie) الموجودة بالمعهد الأعلى لتــاريخ الحركة الوطــنية، وقد اعتمــدنا خاصة البكــرات : (S 373, carton 2 H 130) (.S 372, Carton 2H 129) (S 369, Carton 2H 125). كما اعتمدنا بصورة ثانوية مصادر أخرى نشير إليها في مكانها.

– وقع إضراب عام بالأسواق، المقاهي. ضدّ الاعتقالات كما نظمت مظاهرات ببنزرت وفريفيل أطلق البوليس خلالها النار مما أدى إلى سقوط قتيلين توفي أحدهما بالمستشفى و 23 من الجرحى (²).

1952-1-18 : – في فجر هذا اليوم تمّ إيقاف وإبعاد ستة قياديين من الحزب الحرّ الدستوري الجديد على رأسهم بورقيبة، وستة شيوعيين على رأسهم الكاتب العام للحزب موريس نزار واتهامهم بالتحريض على الشعب كما تمّ إيقاف بعض النقابيين بتونس وماطر والكاف. وبانتشار الخبر نادت المنظمات القومية والاتحاد العام التونسي للشغل بالإضراب العام في المؤسسات والأسواق بينما كانت قوات الأمن تسيطر على كافة الأنهج بالعاصمة. وتشمل الحوادث مختلف المدن.

– بالرغم من معارضة السلط الاستعماريّة عقد الدستور الجديد مؤتمرا سريا خارقا للعادة ترأسه الهادي شاكر وطالب فيه المؤتمرون بإلغاء نظام الحماية وتحويل تونس إلى دولة مستقلة.

– تونس: اعتداء بالحجارة على الترولييبس، مظاهرات بباب منارة وباب الجديد والقصبة وإطلاق الرصاص من البوليس، قتيل و4 جرحى من المتظاهرين.

– سوسة : أضربت الدكاكين بالمدينة وعم هذا الإضراب كامل قرى سوسة.

– المنستير: مظاهرة احتجاج على الاعتقالات أمام مقر القيادة.

– القلعة الكبيرة : مظاهرة مماثلة أمام مقر الخليفة.

(²) في كتاب : **تاريخ الحركة الوطنية، الحزب الدستوري الجديد أمام المحنة الثالثة (1952-1956)** طبع دار العمل سنة 1979 (بالفرنسية) ورد بالصفحة 62 أن عدد القتلى أربعة. من الأرجح أن هذا العدد مبالغ فيه إذ نجد أيضا في كتاب "**السجل القومي لشهداء الوطن**" الصادر عن الحزب الإشتراكي الدستوري، دار العمل 1978، ص 77 أن عدد القتلى اثنين فقط وهما صالح بن محمد بن علي السويسي استشهد على عين المكان وعلي بن الصادق بالحاج حمدة الباري مات متأثرا بجراحه بالمستشفى.

- جندوبة :غلق الدكاكين والمقاهي.

- قعفور : إضراب التجار وإرسال برقيات احتجاج.

- طبربة : غلق الدكاكين والأسواق والمقاهي ومظاهرة أمام مقرّ الكاهية ([3]).

19-1-1952 : - مواصلة الإضراب العام بكامل البلاد.

- تونس أريانة، الحمامات، سوسة، قليبية، الكاف، قعفور : مظاهرات ومشادات مع البوليس ([4]). مع الملاحظ أن مظاهرة نسائية أمام الإقامة العامة بتونس قد واجهها البوليس بعنف ووقع خلالها إيقاف ثلاثين امرأة وعشرة رجال.

- ماطر : مظاهرة : حوالي 2000 شخص حسب الإقامة العامة أمام ثكنة الجندرمة لإطلاق سراح ثلاثة من الوطنيين. مصادمات مع قوات الأمن والجيش، قتــل 7 متظاهرين وجرح 26 ([5]).

20-1-1952 : - بنزرت : تخريب السكة الحديديّة بين تينجة وبنزرت.

- رأس الجبل ؛ بنزرت : مشادة مسلّحة مع قوات الجيش استشهد فيها خمسة تونسيين ([6]).

- بورتو فرينة ؛ غار الملح : اغتيال الجندرمي سيسرو بالرصاص ([7]).

([3]) انظر كذلك تفاصيل أحداث اليوم بجريدة "Le Petit Matin" يوم 19 جانفي 1952.

([4]) محمد الصياح في المصدر المذكور ص 126 يتحدث عن قتلى في نابل والحمامات لكن المصادر الأخرى لا تذكر ذلك.

([5]) الإقامة العامة تتحدث في بلاغها الذي نشرته يوم 1952/1/20 عن مقتل 6 فقط، ومحمد الصياح يذكر في المصدر المذكور ص 126 أن عدد القتلى كان 8 و"السجل القومي لشهداء الوطن" يذكر سبعة أسماء فقط (ص 79).

([6]) نشير إلى أن هذه الحادثة التي يوردها "السجل القومــي ..." لم يذكرها تقرير الجنرال قاربي Journal de Marche par le CSTT (Commandant Supérieur des Troupes de Tunisie),) (S. 369, D1.

– القيروان : تظاهر ثلاثمائة شخص بالمدينة الأوربية واعتدوا خلال ذلك على المغازات بالتهشيم.

– تونس : تظاهر مائة وخمسون شابا في اتجاه المدينة الأوربية، وقد تصدّت لهم قوات الأمن. كما وقع تخريب واجهات المغازات وحرق العديد من عربات الترامواي ومحاولة تعطيل خط .T.G.M على مستوى المطار.

– فريانة ،القصرين : تخريب أسلاك الهاتف ليلا.

– تونس : أطلق الرصاص على الساعة الخامسة والنصف صباحا في حي لافايات وقد يكون ذلك بهدف الترهيب وبث الفزع في الأوربيين.كما وقعت محاولة مظاهرة بمشاركة ما بين 200 و 300 شاب وعلى رأسها حوالي خمسين امرأة، أمام الإقامة العامة ومحاولات تجمع في المدينة الأوربية في المساء تفرّقها قوات الأمن وقد وقعت خلال ذلك اعتقالات وسقط عديد الجرحى.

– يشير بلاغ الإقامة العامة ([8]) إلى أن بعض المتظاهرين أطلقوا النار من مسدّسات تجاه قوات الأمن وأن بعض الموقوفين كانوا يحملون سكاكين.

– سوسة : قامت مظاهرة بمشاركة حوالي ألف شخص تفرّقت بعد تدخل القايد.

– الوطن القبلي : الساعة 13 و20د: على الطريق الفاصلة بين نابل والحمامات أقام متظاهرون حواجز حجريّة لقطع الطريق أمام فرقة من الجندرمة وأخرى من الجيش (4ème Zouaves) وتبادل النار بين

([7]) حكمت المحكمة العسكرية بتونس على ثلاثة مواطنين من غار الملح تورطوا في اغتيال رئيس الجندرمة سيمرو بحكم الإعدام والذي نفذ يوم 8 ديسمبر 1952 بالسيجومي وهم البشير بالهادي قصيبة (شهر بونقرة) وأحمد بن مصطفى بن سليمان الورتاني وحمادي بن محمد بن علي العطوي شهر بلانكو (سجل ... م. م. ص 85)

([8]) انظر نص البلاغ بلو بتي ماتان ليوم 1952/1/22.

الطرفين.

كما توجّهت مظاهرات في اتجاه مقرّ القيادة بنابل تصدّت لها قوات الأمن وسقط خلالها ثلاثة قتلى وعشرون جريحا وقد أشار بلاغ الإقامة العامة إلى إطلاق للنار آت من السطوح (9).

– صفاقس : مظاهرة.

– جربة : مظاهرة 300 شخص.

ليلة 21–22/1/ 1952 – سوسة : تخريب السكة الحديديّة في موقعين.

1952-1-21 – مساكن : تخريب السكة الرابطة بين صفاقس وتونس مما أدّى إلى خروج قطار سلع عن السكة.

– سوسة : وقعت مظاهرة كبيرة نظمها الدستور الجديد والاتحاد العام التونسي للشغل والتلاميذ وقعت خلالها اشتباكات عنيفة مع قوات الأمن والجيش، وسقط أثناءها أحد عشر قتيلا وجرح ثلاثة وثلاثون من المتظاهرين (10). ومن الجانب الفرنسي قتل الكولونال ديران (le Colonel Durand) قائد الجندرمة بسوسة بعـــد أن هـــوى عليه أحد المتظاهرين بهراوة ثم سدد له طعنة بسكين، غير أن بلاغ الإقامة يذكر بأنه قتل بالرصاص أثناء نقاشه مع المتظاهرين. وقد تلت ذلك عمليات حرق وتخريب لواجهات المغازات وإضراب عام ومحاصرة للمدينة.

---

(9) "السجل القومي ..."، م م يذكر ص 80 أن أحداث نابل والحمامات ذهب ضحيتها 8 أشخاص: 7 قتلوا بالرصاص على عين المكان وواحد توفي بالسجن المدني في 26 مارس 1952 هل لجراحه ؟ هل للتعذيب ؟

(10) انظر بلاغ الإقامة العامة بالبتي ماتان في 1952/1/22 والذي يناقضه تقرير الشرطة الذي أورده محمد الصياح في "تاريخ الحركة الوطنية" م م، ص 158. وكذلك تقرير الأمن العسكري في S. 369, D 1, p. 391. المحكمة العسكرية سوف تحكم في هذه القضية في شهر ديسمبر 1953 على 37 شخصا بأحكام تتراوح من الأشغال الشاقة إلى السجن (تقرير المقيم العام بـــ S. 372, D. 2, p. 886)

– الساحل : قطع أعمدة الهاتف في عديد المواقع بين سوسة والمنستير والمكنين والمهديّة.

– قرمبالية : عرضت بالمسجد جثتا قتيلي الأمس بأحداث الحمامات كما عثر بالمسجد على صندوق به 1000 خرطوشة انقليزيّة ([11]).

– صفاقس : وان تواصل الإضراب، فان قوات الأمن أفشلت محاولتين للتظاهر.

– تونس : بداية العودة للنشاط العادي مع تسجيل بعض الحوادث المتفرقة مثل محاولة تجمّع بالبلفيدير وقذف الترمواي بالحجارة بباب سويقة وإحداث حريق على سكة الترامواي.

– باجة، فرنانة، سوق الأربعاء: مظاهرات تفرّقها الجندرمة.

1952-1-23 : – الساحل : المكنين، طبلبة : وقعت اشتباكات عنيفة بدأت بمهاجمة المتظاهرين لمركز الشرطة حيث قتل ثلاثة من الشرطة وجرح اثنان آخران، ومن جانب الأهالي جرح أربعة. وقد تواصلت المعركة بطبلبة حتى الليل وكانت حصيلتها سبعة قتلى وعشرة جرحى ([12]) من الجانب الوطني. ومن الأكيد أن الضحايا من الجانب الفرنسي كانوا كثيرين. غير أن بلاغ الإقامة العامة وكذلك تقرير الأمن العسكري لم يشيرا إلى معركة طبلبة هذه ([13]). وقد يكون ذلك بهدف إعطاء الانطباع أن قوات الأمن تسيطر على الوضع وأن الأمن سائد ولعدم إثارة الرأي العام.

– الوطن القبلي : بني خلاد، أوقف المتظاهرون بوسط بني خلاد ج.فاشي (Jean Vaché) ملازم الجندرمة وهو في طريقه للتحقيق في الاعتداء على أحد المعمّرين الفرنسيين بمنزل بوزلفة، ثم أطلقوا عليه

([11]) S. 369, D1, p. 391.

([12]) ذكر هذه الحصيلة محمد الصياح في المصدر المذكور ص 128، "السجل القومي..."، ص 82، يذكر أن عدد الضحايا 9.

([13]) لو بتي ماتان ليوم 1952/1/25، وكذلك تقرير أمن الجيش بـــ S 369, D1, p. 380.

النار فسقط قتيلا وقد تبعت ذلك تتبعـات وعمليـات انتقام من السكان ([14]).

- قليبية : هوجم مركز الشرطة ومركز الجندرمة بالقنابل والمتفجّرات وكذلك المغازات الأوربية من قبل الوطنيين. ولم تقـع السيطرة على الوضع إلا بوصول تعزيزات من الجيش واستعمال رشاشات طائرات الفمبير(Vampires) وقد سكتت المصادر الفرنسية عن الضحايا ([15]).

- الجنوب : قابس، لانتظمت مظاهرة ضمت ما بين 2000 و3000 شخص وانتهت بدون حوادث كما أضربت المتاجر.

- الحامة/ قابس : مظاهرة دون عنف.

1952-1-24 : - القيروان : إثر اجتماع وطني قامت مظاهرة ضمت عدّة آلاف أطلق خلالها الرصاص على المتظاهرين، فسقط من بينهم أربعة قتلى وتسعة جرحى ومن الجانب الفرنسي، جرح ضابط صف. كما وقعت مهاجمة مركز الشرطة.

- جمّال الساحل : تجمّعات سياسية.

- عين دراهم : وقعت مظاهرة ومشادة مع الشرطة كما وقع تخريب خطوط الهاتف.

- تونس : نصب مواطنون مسلحون كمينا بقنطرة قرطاج لدورية أمن انتهى باستشهاد أحد المواطنين كما وقعت اعتداءات على القطار والحافلات بباب الفلة وباردو واعتداء بالرصاص على مركز الشرطة باب سويقة ومحاولة حرق أحد أبواب الإذاعة ورمي الحجارة على بعض الفرنسيين. وتواصل إضراب التجار بالمدينة.

1952-1-25 : على الطريق الرابطة بين صفاقس وسيدي بوزيد اعتدت عصابة

([14]) سوف تصدر المحكمة العسكرية بتونس في شهر مارس 1953 في هذه القضية ثلاثة أحكام بالإعدام اثنان منها غيابيا (تقرير المقيم العام : S. 372, D2, p. 835).

([15]) لكن "السجل القومي ..." ص 83يذكر استشهاد ثمانية مواطنين منهم ستة على عين المكان واثنان بعد ذلك نتيجة جراحهم وكلهم من قليبية.

مسلحة على حافلة ركاب وسلبت الأموال المقبوضة فيها كما وقع تخريب أسلاك وأعمدة الهاتف.

– قفصة ومدنين وقابس ومنزل بوزلفة، وهنشير لبنة وسليمان وصفاقس وسيدي ثابت : تخريب الأسلاك وأعمدة الهاتف.

– بنزرت : نسف بالديناميت قسم من ورشة إصلاح السيارات للاستعماري الفرنسي برتولو (Bartolo) .

– الحمامات : تواصل الإضراب وإعلان منع الجولان فيها.

– جندوبة : مازال الإضراب متواصلا منذ يوم 17 جانفي كما نظمت مظاهرة ضمت حوالي ثلاثة آلاف شخص.

– جرجيس : مظاهرة.

– نفطة : مظاهرة.

– فندق الجديد /قرمبالية : محاولة السيطرة ليلا على مركز البوليس وتخريب السكة الحديدية ممّا أدّى لقلب قطار ناقل للفسفاط(9 عربات).

– الجديدة – منّوبة : تخريب السكة وانقلاب لقطار 12 عربة.

– تونس : بداية حريق لترمواي نهج الحلفاء والاعتداء على شاحنة طريق قريص ووقعت مظاهرة بباب الخضراء ضمت ثلاثمائة شخص ووقع خلالها تبادل إطلاق النار مع قوات الأمن.

1952-1-26 : – وصول تعزيزات من المظليين من الجزائر.

– سيدي نصر الله /القيروان : محاولة حرق مركز الجندرمة.

– قابس – غنوش : محاولة تفجير السكة.

– كرشان الوسط : محاولة تخريب قنوات المياه الرابطة بين سبيطلة وسوسة.

– تخريب خطوط الهاتف : السّواسي، مكثر، السرس، الشابة، زاوية باجة.

– الوطن القبلي : منزل بوزلفة، حرقت ضيعة إميل لنان (Emile Lenan)عضو الحجرة التجاريّة الفرنسية. كما قامت طائرات القمبير

بصعدات جوية وقصفت قرى المنطقة : منزل بوزلفة، أم الذويل، توزقران، بوكريم، زاوية أزمير، قليبية، منزل تميم، قربة... لترعيب السكان... وفي بني خلاد وقع تبادل للرصاص بين المتظاهرين وقوات الأمن.

– المحمديّة بضواحي تونس : تمرد في محتشد المحمديّة وجرح عديد المعتقلين من قبل قوات الجيش المكلفة بالأمن.

– تونس : عودة الهدوء النسبي. ما عدا اعتداء بالحجارة على الترام بفرانسفيل وعلى قطار .T.G.M بالمرسى.

1952-1-27 : – تونس : تميّز اليوم عامة بالهدوء كما توقّف إضراب التجار والمقاهي لكن المدينة بقيت تحت الحصار الكامل وتواصلت عمليات تفتيش الأهالي خاصة بأحواز المدينة بالملاسين وبئر فضل ووقعت محاولة حرق الترام بباردو وقطع عمود كهرباء بسكرة.

– بنزرت : أعلنت حالة الحصار بداية من هذا اليوم بهذه المدينة بعد مظاهرة ومشادة مع البوليس.

– نصر الله /القيروان : هاجمت عصابة مسلّحة دورية من الجندرمة وتبادلت معها النار.

1952-1-28 : – وقع تخريب أعمدة الهاتف بقعفور والسبيخة وماطر والخليديّة، وبين جندوبة وعين دراهم والكاف وساقية سيدي يوسف والحامة كما وقع تخريب للسكة الحديديّة، بين بئر بورقيبة وبوفيشة وبين بئر بورقيبة والحمامات وبين القصرين وسبيطلة وفي فريانة وماجل بالعباس ومحطة الكريب.

– الوطن القبلي : بداية عمليات التمشيط والمسمّاة عمليّة مارس (Opération Mars) تحت قيادة الكولونال شموكال (Schmuckel) وقد شاركت فيها وحدات من المظلّيين والجندرمة واللّفيف الأجنبي والقنّاصة السينغاليين والدّبابات. إضافة لقوات من البحريّة والطيران

([16]) وقد تواصلت هذه العمليات إلى يوم 2 فيفري 1952 وشملت جميع قرى ومدن الوطن القبلي واقترفت القوات الفرنسية خلالها فضائع عديدة كاغتصاب النسوة (12) والقتل وحتى من الأطفال (4) ونسف المنازل وإتلاف ما فيها وانتهاك حرمة المساجد... والهدف من ذلك ترعيب السكان والقبض على المناضلين ([17]). وقد حلت بتونس ست سرايا من الحرس الجمهوري قادمة من فرنسا كتعزيزات.

1952-1-29 : – وقعت عمليات إيقاف وتفتيش للسكان في أحواز تونس وبوفيشة وباجة. كما تواصلت عمليات التمشيط بالوطن القبلي.

1952-1-30 : -جهة بنزرت : ردا على تعرض قوات الأمن لإطلاق النار في جهة منزل عبد الرحمان قامت قوات مشتركة من البوليس والجندرمة والجيش بعمليات تمشيط مماثلة لما يقع في الوطن القبلي وقد شملت تلك العمليات منزل عبد الرحمان، منزل جميل وجرزونة واعتقل أثناءها ثلاثة وخمسون شخصا.

– بوفيشة : تعرضت دورية من الجيش لإطلاق الرصاص في حمّام الجديدي.

– قنطرة الفحص بسان جرمان : وقع تخريب للسكة الحديديّة.

– القصرين : إضرار بأسلاك الهاتف.

([16]) بأكثر دقة : Un bataillon d'Infanterie, 2 escadrons de chars, 4 escadrons de Gardes Républicaines à pieds, 3 bataillons parachutistes et des éléments de la Gendarmerie (S. 369, D1, p. 453).

([17]) انظر تفاصيل هذه الأحداث في التقرير (18 ص) الذي تقدم به الوزيران محمود الماطري وبن سالم للوزير الأول إثر زيارة ميدانية للوطن القبلي يومي 8 و9 فيفري 1952 وذلك بالصفحات 247-284 من البكرة S. 389 بالسلسلة المذكورة من أرشيف قيادة الجيش. نذكر أن هذه الأحداث كان لها صدى كبير داخل تونس وخارجها خاصة وأن الجيش والسلط السياسية الفرنسية أرادت التستر على الفظائع المقترفة واعتبار ما ورد في تقرير الحكومة التونسية مجرد دعاية مغرضة من ذلك مثلا أن الجيش لم يعترف إلا بمقتل أربعة تونسيين (S. 369, p. 586) بينما التقرير يتحدث عن 26 قتيلا وفي تقرير داخلي عن سير العمليات يذكر الأمن العسكري أن عدد القتلى بلغ العشرة (S. 369, p. 500).

- تونس : إطلاق الرصاص على قطار بالملاسين.

كما وصلت تعزيزات جديدة من الجيش قادمة من الجزائر تضم لواء من المضلّلين وفرقة من G.S.A. 7 تعدّ ثلاثة ضباط وخمسة عشر ضابط صف ومائة وتسعة وثمانين رجلا ومائة وتسعة وخمسين من الخيل ([18]).

1952-1-31 : وقعت عملية تمشيط بماطر.

- فريفيل : محاولة حرق ضيعة معمّر ليلا.

- قفصة : على وادي الفج ووسط المدينة تعرّضت دوريات من الجيش إلى إطلاق النار.

- الوطن القبلي : التجاء بعض المقاومين من بني خلاد الى جبل الجديدي وفي المساء أطلق الرّصاص على فرقة اللّجيونار دون تحديد الموقع.

- تونس : على أبواب الشقق في الحي الأوربي كتب حرف (F) وقد يكون ذلك تحضيرا لعمليات انتقامية أو للتّمويه.

- سيدي بوسعيد : وقع قطع 25 سلك هاتف بين سيدي بوسعيد وأميلكار.

- قابس : أطلق الرصاص من رشّاش على أحد الجنود بسيدي بولبابة.

1952-02-01: - شنّ إضراب عام بالبلاد دعت له القوى الوطنية بهدف التنديد بالإعتقالات.

وان كان كليا في الأسواق وعند الحرفيين فقد تفاوتت نسبة الانقطاع عن الشغل في القطاعات الأخرى وتبعت ذلك حملة من الإعتقالات للنقابيين والعمّال ومحاصرة مكاتب الاتحاد العام التونسي للشغل وغلقها وإطلاق الرصاص على المتظاهرين بتونس وقد سقط خمسة

([18]) S. 369, p. 468.

قتلى وعديد الجرحى ([19]).

- صفاقس : جرت مظاهرة تبعها إطلاق الرصاص وجرح خلالها عشرة أشخاص وإيقاف مائة آخرين.

- قابس : وقعت مظاهرة ألقيت خلالها قارورة بنزين مشتعلة على عناصر من الأمن.

- تونس : إطلاق الرصاص على شاحنة.

1952-02-02: - صفاقس : تواصل الإضراب وأغلقت المدينة العتيقة.

- بنزرت : تواصل الإضراب بماطر فقط.

- الساحل : وان سجلت عودة للعمل فقد تواصل إضراب التجار بالمنستير.

- ومن جهة أخرى وقع تخريب للهاتف بين صفاقس وقفصة وفي أحواز قابس.

- كما أطلق الرصاص من قبل الوطنيين بالمطوية وبتينجة.

- ووقعت محاولة حرق ضيعات معمّرني بديبان وبقعفور.

1952-02-03: - صفاقس : وقع تفجير المحوّل الكهربائي المحاذي للمستشفى الجهوي. كما قطعت بضيعة المعمّر فوازال (Voisel) ثلاثة وخمسون زيتونة.

- طريق بنزرت : تفخيخ قنطرة في جوار قرية عوسجة.

- قفصة : تفجير بالديناميت لخزانة ربط الهاتف حيث تم قطع الاتصال تماما . كما وقعت عمليات تخريب الهاتف ببنزرت ورأس الجبل وتاجروين وتونس وماطر.

- القيروان، البقالطة، تبرسق، زاوية مدين : عمليّات تفتيش يقوم بها البوليس وقع فيها إيقاف سبعة وعشرين شخصا وتجميع بعض الأسلحة.

([19]) Mustapha Kraïem, **La classe ouvrière et la lutte de libération nationale (1939-1952)**, Imprimerie de l'UGTT, Tunis 1980, p. 423.

- حمام الجديدي : كتيبتان من المظليين وسرّيتان من الحرس وعناصر من جيش المشاة والهندسة شاركت في عملية ملاحقة وتفتيش عن المقاومين بجبل حمّام الجديدي.

وإضافة إلى ذلك تواصل إضراب التجار والحرفيين بصورة جزئية بتونس وبصورة كليّة بالساحل (ماعدا سوسة) وبصفاقس وقفصة وقابس.

1952-02-04: - حمام الجديدي : انتهاء عملية ملاحقة المقاومين وايقاف ثمانية أشخاص وحجز ثلاث بنادق اثنتين منها من نوع موزار (Mauser) ومسدّسا ايطاليا وثلاث حراب ([20]).

- تخريب خطوط الهاتف: بين لخوات ولكريب، دبيان وقنطرة الفحص، باجة وطبرقة، سيدي بوسعيد وتونس، جرجيس ومدنين، الحامة وقبلي وقابس، مارث والزّارات.

- الساحل : فرقة من 4éme R.T.T تتعرّض للرّشق بالقنابل أثناء عبورها لقصر هلال وقد جرح ستة جنود وتونسي بصورة خطيرة. وفي غابة زياتين تعرّضت دوريّة جندرمة لاطلاق الرصاص.

- القصرين : في محطّة القطار وقع حرق ستمائة حزمة من الحلفاء.

- قليبية : فرقة من ثلاثة مقاومين يتزعمهم رقيب الاحتياط الصادق مجنوبة تعلن العصيان وتهدّد بذبح كل من سلّم السلاح لقوات الأمن ومعاقبته من ذلك تعرّض منزل شيخ حمّام الغزاز للنهب في غيابه.

- تونس : تواصل الإضراب بالأسواق وانتظمت مظاهرات بباب الخضراء قمعتها قوات الشرطة. وسقط فيها قتيل وعديد الجرحى.

- باجة : وقعت مشادات عنيفة بين المتظاهرين وقوات الأمن اثر موت أحد الوطنيين ([21]) بمركز الشرطة وقد دامت حتى ساعة

([20]) سوف نعود في الجزء الثاني من هذا العمل للأسلحة المحجوزة عامة.

([21]) هو محمد الأصفر توفي في الكوميسارية في 3 فيفري إثر ضربة عنيفة من البوليس، "السجل القومي"، نفس المصدر، ص 87.

متأخرة من النهار. جرح فيها طالب ضابط فرنسي لكن مصادر الجيش لا تعطي تفاصيل عن ضحايا الجانب التونسي.

- غار الملح - رأس الجبل : عمليّة تمشيط بحثا عن السلاح وملاحقة الوطنيين ورغم الايقافات والتفتيشات وعند مغادرة قوات الجندرمة غار الملح أطلقت من أحد منازل المواطنين عديد الطلقات النارية بهدف التحدّي.

1952-02-05: - الساحل وبنزرت : قامت قوات هامة من الجيش والبوليس والجندرمة بعمليات تمشيط بجهة الساحل أوقفت خلالها ستة وسبعين شخصا وحجزت بعض الأسلحة ووقعت عمليات مماثلة بالمتلين والعالية أوقف أثناءها أحد عشر شخصا وحجزت بعض الأسلحة.

- جهة القيروان : حاول بعض المهاجمين حرق ضيعة المعمّر مرات (Merat) وتبادلوا النار مع سكان تلك الضيعة.

- نفطة : وقع إضراب وتنديد بمقتل أحد المتظاهرين بتونس.

- توزر: محاولة تخريب للسكة الحديدية وإضافة إلى ذلك إضرب التجار والحرفيين بتونس وطبلبة والفحص وبنزرت وسوسة والقيروان ونفطة ومنزل تميم.

- كما وقع تخريب خطوط الهاتف بمنطقة بنزرت وبالجنوب إذ قطع الاتصال بين قابس وطرابلس.

1952-02-06: - تواصلت عمليات التفتيش بجهة الساحل وأوقف خلالها مائتان واثنان وثمانون شخصا وحجزت بعض الأسلحة.

- إضراب التجار وأصحاب المقاهي بجرجيس والكاف وطبلبة والمنستير والقيروان وصفاقس وبنزرت وأغلب قراها.

- قفصة : تخريب السكة الحديدية الرابطة بين قفصة والمظيلة بالمتفجرات.

- سوسة : إلقاء قنبلة في ثكنة.

- سيدي بوعلي : حوالي التاسعة ليلا أطلقت النار على كوكبة

عسكرية.

07-02-1952: – صفاقس : تواصل إضراب التجار وعمّال الرصيف.

– نفطة : وقع إضراب نادت به شعبة القرية.

– قابس : وقع انفجار في مدخل المدينة تلته عمليات تفتيش لم تصل إلى نتيجة كما تم اطلاق النار على مركز حراسة في وادي العكاريت وأوقف أحد المعتدين وقتل آخر.

– مكثر: تم قطع خطوط الهاتف على طول 400م.

8-2-1952 : – قابس : تعرضت شاحنتان عسكريتان قادمتان من رمادة لطلقات رشاش في خنقة تاجرة شفعت بعمليات تنظيف كما أطلقت النار على دورية من الجيش التابع لـ 4e R.C.A. في مستوى قنطرة قابس وقطع أربعة أعمدة هاتف على طريق قفصة ([22]).

– سيدي بوعلي : وقع تفجير السكة الحديدية بالكم 125 عند مرور قطار شحن متجه نحو سوسة.

– نفطة: تواصل اضراب التجار.

– جربة : وقعت محاولة حرق مغازة أوربية.

– قابس : أقيم حاجز على طريق الدورية الليلية بالمدينة ووقع تجمّع بالواحات الشمالية

– حمام الغزاز: مظاهرة رفعت خلالها شعارات ضدّ الاستعمار.

– صفاقس : احرق مخزون الحلفاء بالميناء.

– الساحل : أدّت عمليات التمشيط إلى اعتقال سبعين شخصا وحجز بعض الأسلحة.

([22]) جل هذه العمليات قامت بها فرقة قائد المقاومة بالجنوب الطاهر الأسود، عن تفاصيل بعض العمليات التي حدثت بالأعراض انظر : عروســـية التركي، المقاومة المسلحة بجهة الأعراض (1952-1954)، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلــوم الإنسانية والإجتماعية تونس 1988/ 1989، مع العلم وأن البحث وإن استفاد من الشهادات الحية فإنه لم يعتمد على المصادر الأرشيفية.

– بنزرت : خرّبت قنوات المياه المزوّدة للمدينة بغابة الرمال.

– أضرب التجار بالكاف والسّرس وأبة قصور.

1952-2-10 : – قفصة : تعرضت دورية من المخازنية إلى طلقات رشاش بالدوالي.

– قابس : قطعت ستّ أعمدة للهاتف بين قابس ومطماطة.

– زغوان /بئر حليمة : هوجم ليلا منزل معمّر مجنّد في الجندرمة.

1952-2-11 : – قفصة : عند منتصف الليل وقع إطلاق النّار على سيارة الحرس، ووقع تخريب للسكة الحديديّة بين هذه المدينة وصفاقس، وتخريب أعمدة الهاتف في بنزرت وقابس والشابة.

– المنستير : نظمت مظاهرة شارك فيها 500 شخص ووجهت برقيات احتجاج إلى الحكومة الفرنسية على اعتقال الوطنيين والمداهمات، كما اضرب التجار وأغلقت المقاهي بها وبسوسة وصفاقس وقابس.

1952-2-12 : – قابس : ليلا ألقيت قنبلة على سيارة للجيش لم تنفجر وأطلق الرصاص على فرقة أخرى من الجيش بالطريق الرئيسية رقم 1.

كما أطلقت النار في مدنين على ثكنة الجيش. وبين سوسة وصفاقس عثر على عبوّة ناسفة بالسكة الحديدية، كما قطع عمود للهاتف بين سوسة وفريانة وخربت السكة بين سبيطلة والقيروان.

– القلعة الكبيرة : انطلقت مظاهرات ضمت ثلاثمائة شخص قدّموا إلى الكاهية لائحة احتجاج على الاعتقالات والمداهمات.

– كما أضرب التجار بالساحل وبالجنوب جرجيس، الموانسة.

1952-2-13 : – جهة باجة : عمليات تمشيط ببئر سبهة وزاوية مدين عثر خلالها على بعض الأسلحة.

– الربع بشمال القيروان : وقعت عمليات إنزال لستين مظليا لترهيب السكان المتجمّعين في السوق الأسبوعية.

– تونس : عند إطلاق سراح إحدى المعتقلات بعض النسوة يتظاهرن أمام السجن المدني.

- سبيطلة : تخريب للسكة الحديدية وأعمدة الهاتف.

- الساحل : وقعت عمليات تخريب لأعمدة الهاتف والسكة الحديدية وأحرقت عربة حلفاء بمحطة القطار بسوسة وفي الليلة الفاصلة بين 12 و 13 فيفري نهب خزينة البريد بقصيبة المديوني وسرقة محتواها 113.150 فرنكا.

- رمادة : إضراب جوع قام به المبعدون في محتشد هذه البلدة. وقيام قوات الأمن والجيش بعمليات تفتيش واسعة عن الأسلحة وعن المشبوه فيهم.

- قفصة : عملية عسكرية قام بها (الفلاقة) بين أم العرائس وقفصة حيث وقع التعرّض الى سيارة جندرمة وقتل القبطان قائد الوحدة وجندرميان وجرح إحدى زوجاتهم. كما اغتيل بوسط المدينة سليمان بن حمودة خليفة القطار وأحد عملاء فرنسا ([23]).

1952-2-14 : - قابس : حوالي الساعة 20 تفجير خزان ماء وقنطرة وأعلنت حالة الحصار من الساعة 19 الى 6 و 30 د وأخضعت المدينة للتفتيش تحت تحليق طائرات "الفمبير".

- تونس : محاولة حرق المقرّات الوقتية للجندرمة بمحطة القطارات بتونس.

- القيروان : ليلا : محاولة حرق حافلة لشركة النقل.S.T.T.A

1952-2-15 : - الكاف : سكب البنزين على باب مركز الجندرمة في محاولة لحرقه.

- سوسة : وقع حرق 150 بالة حلفاء بالميناء باستعمال البنزين.

- تونس : الرابعة والنصف: مظاهرة نسائية أمام الإقامة العامة حيث قذفت أربع قنابل في اتجاه قوات الأمن انفجرت إحداها في سيارة

([23]) تم اغتياله على يدي أحد قياديي المقاومة المسلحة بتونس لزهر الشرايطي. انظر : الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية رؤية شعبية قومية جديدة**، الطبعة الثانية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة/تونس، ص 180.

(جيب) حيث جرح شرطيان واستعملت الشرطة الرشاشات لتشتيت المتظاهرات. ويبدو انه استشهدت مواطنة وجرحت أخرى ([24]).

- قفصة : عمليات تفتيش بلالة وكذلك بالمظيلة حيث تم إطلاق الرصاص على المتظاهرين وإيقاف عديد الأشخاص وحجز بعض الأسلحة.

- قابس : قطعت مائتا زيتونة في ضيعة المعمّر تريولي (Triolet) بالزّارات.

- العزيب : وقع قطع 6 أعمدة هاتف على الطريق بين تونس وبنزرت.

- إضراب التجار : جرجيس، الكاف، الحمامات، المنستير، الجم، قابس، طبربة، سوسة، تونس. لكن نجاحه كان متفاوتا.

16-2-1952 : - تونس منتصف الليل : محاولة إحداث حريق بحي ميّ فيل (Milletville).

- بنزرت : وزعت مناشير تدعو السكان لعدم التزوّد من التجار الفرنسيين.

- الرديّف / قفصة : إضراب عمال المناجم استجابة لنداء الاتحاد العام التونسي للشغل والنقابة الشيوعيّة (L'Union syndicale des travailleurs de Tunisie) تنديدا بإيقاف عاملين. وحسب تقرير الجيش فان عدد المضربين كان 440 على 1266 عاملا.

- القيروان : إضراب المتاجر احتجاجا على اعتقالات اليوم السابق كما اضرب التجار ببنقردان ونصر الله ومارث ضدّ استفزازات وعنف المظلّيين واللّفيف الأجنبي.

- وقع تخريب السكة الحديديّة بين ماطر وطبرقة، سيدي بوعلي، القلعة الكبيرة، ماطر، تمرة، وتخريب قنطرة شمال العوينات.

([24]) يشير علي البلهوان في كتابه "تونس الثائرة" القاهرة 1954 إلى مقتل امرأة لكن التقرير اليومي للأحداث التي تقدمه استعلامات الجيش لا يذكر ذلك (S. 369, p. 588).

- تخريب خطوط الهاتف بتطاوين التي قطعت عن رمادة وغمراسن، قرماسة وشنني. وكذلك قطع الاسلاك بين المكنين وجمّال وبين بلّي وبني خلاد وشمال المنستير وبين سوسة والمهديّة وبين قابس ومارث.

- صفاقس : وقع تخريب قنوات مياه الشرب بجبل كريشان غرب صفاقس.

1952-2-17 : - تلابت /القصرين : قامت وحدة من المظلّيين بعمليات تمشيط.

- قفصة : قام اللّفيف الأجنبي وفرقة من الكمندوس بعمليّة تفتيش في قرية سيدي بوبكر 40 كلم شمال غربي قفصة، وزنّوش 20 كلم شرق قفصة، والسند اسفرت على عديد الإيقافات وحجز بعض الأسلحة.

كما وقعت علميات تفتيش بالملاّسين : إيقاف 20 شخصا وحجز بعض الأسلحة.

- مطماطة : أحرق 30 طنا من الحلفاء على ملك تجار يهود من صفاقس.

- تخريب السكة الحديديّة : قرب مساكن توقف الحركة، وبين القلعة الصغيرة وعين قراززية 15 عربة تخرج عن السكة وعديد الجرحى.

- تخريب خطوط الهاتف : بين صفاقس والشابة وكذلك بين هيبون وبغدادي الساحل.

- قابس : تخريب قنطرة على وادي دمنة على مستوى النقطة P.K. 395ومن جهة أخرى قامت مجموعة الطاهر الأسود بعمليّة عسكريّة بخنقة عيشة 40 كلم غرب قابس.

1952-2-18 : - صفاقس : قدم مجموعة من التلامذة والطلبة إلى القايد لائحة احتجاج على عمليات القمع ووقع إيقاف ثلاثة نسوة كن على رأس المجموعة.

ومن جهة أخرى خرب المحوّل الكهربائي بالمركز طريق صفاقس- ترياقة.

- القيروان : إضراب لحتجاج على الاعتقالات.

– تخريب خطوط الهاتف : بين صفاقس والشابة وجبنيانة – اللّوزة، حاجب العيون، جلمة وبمكثر : عزل قرية كسرة، وكذلك بطريق مزوار السّاحل.

1952-2-19 : – منطقة مكثر: وقعت عمليات تفتيش بالرّوحيّة، سبيبة، تالة، القصرين، سبيطلة.

– الجديدة : تسلّل ليلا داخل الكنيسة وتدنيسها وسرقة محتواها.

– كما وقع تخريب مصلى المقبرة الأوروبية بالشويقي (طبربة).

– سوسة : وقعت عمليتان بالمتفجرّات ضدّ بنك الجزائر ومنزل نائب رئيس البلديّة زفاكو(Zevaco) .

1952-2-20 : – صفاقس : هوجم حارس باخرة وجرد من سلاحه وانتهت العمليّة بإيقاف ثلاثة وقتل أحد أفراد المجموعة كما تظاهر التلاميذ.

– تخريب الهاتف : بالشابة، بين تونس وبنزرت، شمال القيروان، في مدخل جبنيانة، سيدي بوعلي، على طريق السّاحلين وبين قبلي وقابس.

– زغوان : اثر زيارة وزير الصحة لهذه البلدة تنتظم مظاهرة شارك فيها مائة شخص.

– صفاقس : إضراب احتجاج على إيقافات اليوم السابق.

– الكاف : مظاهرة 150 شخصا قام بها الشيوعيون أمام مركز الجندرمة احتجاجا على إيقاف أحد رفاقهم اتهم بإحداث حريق.

– قابس : تخريب الهاتف بين قابس وقفصة.

– مدنين : قام الجيش بعمليّة (تنظيف) أسفرت على حجز بعض الأسلحة.

1952-2-21 : – أريانة : محاولة قطع عمود كهرباء.

– بنزرت : تخريب قنطرتين الأولى على طريق العالية والثانية في طريق بورتو فرينة.

منزل بوزلفة : توزيع مناشير وطنية بالعربيّة والفرنسيّة ليلا.

– ماطر : تعرضت سيارة أحد المعمّرين الفرنسيين وهو على متنها إلى عشر طلقات ناريّة.

– قصر هلال : تم إيقاف أحد الشبّان وهو يهمّ بحرق عمودي هاتف.

1952-2-22 : – الكاف : اغتيال اللّيجيونار هاريّ الذي كان ضمن دوريّة ليلية من قبل تونسي برصاصتين من مسدس. تبع ذلك إعلان منع الجولان وإيقاف قيادي دستوري.

كما تم تخريب الهاتف بمنزل جميل ورأس الجبل.

1952-2-23 : – تونس : الحزب الدستوري الجديد ينادي بمقاطعة المغازات والسلع الفرنسية كما تمت مظاهرة بسيدي البشير وإضراب جوع قامت به النسوة داخل جامع الزيتونة.

– الكاف : لجنة تتوجّه للقايد باحتجاج على منع الجولان واستعمال القنابل ليلا لترويع السكان. وإضراب المغازات احتجاجا على اعتقال اثنين وعشرين شخصا.

– قابس ومارث : غلق الدكاكين احتجاجا على إيقافات الليلة الماضية ومنهم الكاتب العام الجهوي لاتحاد الشغل وأمين مال الشعبة الدستورية.

– قابس : على طريق قبلي بوادي الحامة جرح ليجيونار باطلاق النار عليه بينما كان في شاحنة عسكريّة.

– صفاقس : مهاجمة مقرّ الجندرمة بجهاز متفجّر.

– تخريب السكة بالمظيلة والمتلوي.

– تخريب الهاتف بين صيّادة وقصر هلال وكذلك شمال جبنيانة.

1952-2-24 : – بنزرت : وقع ليلا تخريب قنوات المياه المزوّدة للمدينة.

– صفاقس : ليلا : تخريب المحوّل الكهربائي بين صفاقس وترنجة.

– قابس : حدث انفجاران ليلا استهدفا بناءات وزارة الفلاحة. وعلى الطريق في مستوى وادي كتانة تعرّضت شاحنة لإطلاق الرّصاص.

– وقع تخريب الهاتف : في سيدي مسكين بغار الديماء وبين سوق

الأربعاء وفريانة وبين قابس ومارث.

- الكاف : إضراب ضدّ عمليات المداهمة والاعتقالات بالكاف وأبة قصور والسرس.

1952-2-25 : - بنزرت : تمت عمليات تفتيش من الثالثة صباحا حتى الثالثة والنصف بعد الزوال بدوائر ضيعة صنتولان Santolin أسفرت عن إيقاف ثلاثة أشخاص.

- القيروان : قام مائة طالب وعشرون امرأة بإضراب جوع بالجامع الكبير. كما تمّ بسوسة إضراب جوع مماثل.

- وإضافة إلى ذلك تمّ تخريب الهاتف بحاجب العيون وتخريب الهاتف بمجاز الباب وبين قابس ومدنين.

1952-2-26 : - تونس : انتظمت مظاهرة اتجهت نحو قصر العدالة شارك فيها ثلاثمائة شخص من بينهم خمسون تلميذا كما أحرقت حافلتان.

- مطماطة : توجهت فصيلة من الدبابات نحو مطماطة.

- إضراب الطلبة : القيروان، صفاقس، المهدية.

- صفاقس : تمّ غلق أبواب المدينة إثر إضراب التجار احتجاجا على محاكمة الطلبة.

- تخريب الهاتف بسان جرمان وجرجيس وبين ماطر وطبرقة وبين مكثر وكسرة، شرق الكاف وبنّان.

- تخريب السكة بالقيروان، تحت قنطرة منوبة وبين فريفيل وبوسيجور.

1952-2-27 : - منطقة سليانة : على طريق سليانة مكثر تعرضت دوريّة من الجندرمة إلى الرّصاص من ثلاثة مقاومين. كما تعرّضت ضيعة موزّي Mozzi لطلق الرّصاص من أشخاص فرّوا نحو جبل فرج.

- إضراب التجار : صفاقس، ساقية سيدي يوسف.

- تخريب الهاتف ببنّان.

- زغوان : ليلا، طلقتين من مسدّس على إشارة مرور بمفترق

الطريق بالمدينة.

1952-2-28 : - كسرة /سليانة : طوقت قوات من الجيش والجندرمة القرية والدّواوير والجبال المجاورة في عمليّة واسعة أسفرت عن إيقاف واحد وعشرين شخصا وحجز بعض الأسلحة.

- نابل : وقعت ليلا محاولة حرق مركز البوليس.

- تونس : رشت حافلة بقارورة بنزين لكنها لم تحترق.

- صفاقس : سمع انفجار قوي عند الفجر.

- مدنين: اضرب تلامذة الزيتونة تضامنا مع زملائهم بصفاقس.

- قابس : اوقف تسعة أشخاص لمسكهم قنابل ومتفجّرات.

- رأس الجبل : وقعت محاولة تفجير مكتب البريد.

- كما وقعت ببنزرت محاولة تفجير مولّد كهربائي.

- وتم بالفعل تخريب الهاتف بين تالة والقصرين وقعفور والمعمورة ونابل. وتخريب السكة ببوفيشة وساقية الزيت.

- قام التلامذة بإضراب للجوع بمشاركة النسوة وذلك بجوامع كل من المنستير وقصر هلال وقفصة.

كما تواصل إضراب المتاجر بطبربة.

1952-2-29 : - كسرة : تواصلت عمليات التطويق والتفتيش ولم تنته إلا في اليوم الموالي.

- تونس : جابت مظاهرة أنهج رومة والجزائر وروسطون كما هوجمت دورية من الجيش بالحجارة من قبل سبعة أشخاص ووقع كشف عن قنبلة لم تنفجر تحت سيارة راسية في مستوى دار الفلاحين.

- مكثر : محاولة حرق شاحنة لشركة Pennot ومخازن محطة القطار بالكريب.

- القصرين : إضراب غير محدود ينادي به اتحاد الشغل في الأشغال العمومية ضدّ طرد سبعة وأربعين عاملا تونسيا وسبعة أوربيين.

كما أضرب التجار بصفاقس وتونس والقصرين وماطر وقفصة وقراها وغار الدماء ووادي مليز والكاف ومكثر وأبة قصور وتبرسق وسليانة وساقية سيدي يوسف، والمكنين.

ومن جهة أخرى تم تخريب الهاتف بطريق سيدي سعد والقيروان والسكة الرابطة بين ماطر وطبرقة.

1952-3-01 : – تونس : الساعة 20 : حدث انفجار هشّم بعض الزجاج بمكتب البريد بشارع روسطون كما وقع اعتداء في المساء على الترمواي وجرح سائقه.

– سليانة : وقع حرق ضيعة سنتاكس Santeix وتضررت محتويات المستودع خاصة واندلعت النيران بخمسة أكواخ للعملة.

– مكثر : حققت الجندرمة في عملية اعتداء وخطف نساء قام بها عساكر فرنسيون في دوار يقع على بعد 1.5 كلم من مكثر.

– سوسة : وقع تخريب المولّد الكهربائي بالمسعدين.

– تمّ تخريب الهاتف: بين الكاف وتاجروين وفي غرب قليبية.

– كما وقع تخريب السكة قرب قعفور مما أدى إلى انقلاب قطار معادن حيث جرح 4 أشخاص ومات واحد.

– انتهى بالمنستير إضراب الجوع لكن التلامذة يتظاهرون ضدّ اعتقالات يوم 29 فيفري.

– الحامة : قامت مظاهرة تلمذية أمام مقرّ الخليفة 5 إيقافات.

– إضراب التجار: تطاوين.

1952-3-2 : – نابل : اطلقت النار على حارس مركز الشرطة.

– المهديّة : وقع اعتداء بقنبلة وبإطلاق الرصاص ليلا على مقرّ الجندرمة. وبسوسة سمع انفجار ليلا.

– صفاقس : قطعت الطريق الرئيسيّة رقم 1 بواسطة متفجّر كما نسف محوّل أولنفيلOulinville.

– قابس : وقع تفجير قنطرة على وادي السرج وتعرّضت الدّورية

التي هبّت للمكان لإطلاق الرصاص.

– تونس : تمت محاولة حرق مركز للشرطة وإلقاء جهاز مفرقع على مقر الإذاعة.

كما تمّ تخريب الهاتف بأريانة وبباردو وبين رادس ووادي مليان، تونس – قعفور، ماطر، الجديدة، باجة، الجبل الأبيض، نصر الله. وكذلك تخريب السكة بمقرين ورادس والحنشة، وبين سيدي الهاني والقلعة الصغيرة. ومن جهة أخرى إضراب التجار بمكثر والقيروان.

1952-3-3 : – تونس : وقع اعتداء على الترامواي وانفجار داخل المدينة جرح خلاله شخصان.

– سوسة : تمت محاولة تفجير مكتب البريد في وضح النهار وإطلاق النار على الطريق الرئيسيّة تجاه دوريّة جندرمة.

– صفاقس : قذفت قنبلة من داخل سور المدينة على معسكر لباير (Lapeyre)

– قفصة : وقع إطلاق عياري نار بمحطة القطار.

– قابس : تمّ تفتيش قرية طبلبو وحدثت بوذرف ثلاثة انفجارات.

كما سمعت طلقات الرصاص بقابس المدينة وشوهدت طائرات القمبير تحلّق فوق قابس ووادي العكاريت والحامة وجبل الطباقة.

– جربة / حومة السوق : وقعت محاولة حرق صيدلية على ملك نائب رئيس البلدية. كما وقعت بجرجيس محاولة حرق دكان يهودي.

وتخريب الهاتف بنصر الله، وبين تالة والقصرين وزغوان

– الزريبة وقصور الساف– الشابة.

– إضراب التجار بالسّرس ضدّ عمليّة نهب تعرّض لها تاجر من جنود فرنسيين وفي مكثر ضدّ عمليات التفتيش بسليانة.

– إضراب الجوع تقوم به النسوة بتونس (جامع الزيتونة) وبالبقالطة بإحدى الزوايا، وبسوسة جامع الحنّاشي.

4-3-1952 : - سوسة : حرق صيدليّة بوستّة برميها بقنبلة وإلقاء قنبلة ثانية على مغازة خيّاط تونسي موقوف (من المحتمل أن العمليتين كانتا من فعل عصابة "اليد الحمراء") ([25]).

- بنزرت (ليلا) وضع جهاز متفجّر وقارورة بنزين تحت سور ثكنة الجندرمة بالمدينة العربية غير أنّ الانفجار لم يحدث أضرارا تذكر.

- سان جرمان : وقعت محاولة تفجير قنطرة.

- تينجة : حرق مكتب البريد.

- الحامة : حدثت محاولة تفجير مكتب البريد.

- تونس : ألقيت قوارير مشتعلة على الترولييس في مستوى نهج الباشا.

- وقع تخريب السكة بغار الديماء ومنوبة وبين قفصة والمتلوي.

كما وقع تخريب الهاتف برادس والحمامات - نابل وصوّاف وبين قصور الساف وسيدي بوعلي.

- القيروان : اضرب التجار تضامنا مع التلاميذ الذين كانوا اضربوا ولم يقع قبولهم بالمدارس.

5-3-1952 : - صفاقس : وقع تخريب المحول الكهربائي في تقاطع السكة بيكفيل Picville.

- جرجيس : محاولة حرق معصرة قفرتو Gauffreteau .

- مطماطة : تعرضت سيارة جيب عسكريّة لإطلاق الرصاص.

تمّ تخريب السكة بين قفصة والمتلوي وبمنوبة وغار الدماء.

كما تم تخريب الهاتف بين القصور والشابة، وبين حلق الوادي ورادس، وبين صفاقس والقيروان، وبين زغوان والزريبة.

([25]) "اليد الحمراء" منظمة إرهابية كونها الإستعماريون الفرنسيون بتونس وبعض المغالين من السياسيين والبوليس. راجع الإحالة 29 في مدخل هذا الكتاب.

– وقع إضراب للجوع بالبقالطة مع مظاهرة بالطريق العام وكذلك بالمنستير كما اضرب الطلبة الزيتونيون بهذه المدينة وتوزر.

6-3-1952 : – قابس : قطعت خطوط الهاتف والاتصالات مع صفاقس ([26]).

– المنستير: تواصل الإضراب الطالبي.

10-3-1952 : – سوسة : وقعت عمليّة بالمتفجرات استهدفت مركز الشرطة وأدت إلى مقتل جندي فرنسي وجرح ستة آخرين.

26-3-1952 : ألقي القبض على أعضاء وزارة شنيق وتم إبعادهم إلى قبلي.

16-4-1952 : وقع اعتداء على محل مرطبات امنوب Emnop بسان هاري.

20-04-1952: حدثت مظاهرة بالعاصمة وقع فيها إلقاء أجهزة مفرقعة على منزل الوزير الأول صلاح الدين البكوش.

30-04-1952: – أطلق الرصاص على سيارة وزير الاقتصاد وذلك بتونس.

([26]) لقد توقفت التقارير اليومية المفصلة حول الأحداث في أرشيف القيادة العامة للجيش عند يوم 6 مارس وأصبحت تقارير شهرية وهذه التقارير لا تتوقف إلا عند الأحداث الهامة، ومن المؤكد أن ذلك يرجع لفتور التحركات الشعبية.

II- الاستنتاجات :

1- حصيلة التحركات الشعبية من 14 جانفي الى 15 مارس 1952 :

أشكال التحركات الشهر	جانفي	فيفري	مارس	المجموع
مظاهرات مع مشادات مع البوليس	36	19	5	60
إضرابات عمالية ذات طابع سياسي (عدد الأيام)	4	5		9
إضرابات التجار والمهنيين وطلبة الزيتونة (عدد الأيام)	11	94	6	111
إضرابات جوع	–	5	5	10
عمليات حرق وتخريب منشأة اقتصادية	11	29	10	39
اعتداءات بالسلاح والأجهزة المحرقة على وسائل النقل ومراكز الأمن والإدارات الرسمية	16	14	10	40
عمليات مسلحة (الفلاقة)	8	24	6	36
تخريب خطوط الهاتف	30	98	23	151
تخريب السكك الحديدية والقناطر	15	30	13	58
عدد المعتقلين (أثناء المظاهرات)	70؟	100؟		170؟
عدد الجرحى في المظاهرات والإصطدامات	207	40		247
عدد القتلى في المظاهرات وعمليات التمشيط	76	10		86

2- تنوع الأشكال النضالية :

تنوّعت أشكال النضال الشعبي في الفترة المدروسة واتخذت طابعا تصاعديا خاصة بعد 18 جانفي 1952 تاريخ اعتقال بعض الزعماء الوطنيين وعلى رأسهم الحبيب بورقيبة، وإن كانت وراء جلّ هذه الأحداث عناصر حزبية أو نقابية منظّمة، فإن العديد منها كان عفويا كردّ فعل فردي أو جماعي على سياسة القمع الاستعماري وكان البعض منها وخاصة إغلاق الأسواق والحرف والدكاكين في عديد الأيام وعديد الجهات يحدث نتيجة الضغط والتهديدات أحيانا من قبل عناصر منتسبة للحزب الحرّ الدستوري الجديد والمنظمات المهنية أو من باب المجاراة للتيار العام دون تحمّس كبير وتقارير الأمن العسكري تورد عديد الأمثلة من تشكّي بعض التجار الذين تضرّروا في مصالحهم من الإغلاقات المتكرّرة ([27]).

كما شملت هذه النضالات كل الفضاءات من الطريق الى الإدارة والمصنع والمتجر والمزارع وكذلك شملت المدن والأرياف عامة ولو بصورة متفاوتة، وشاركت فيها جميع الفئات الشعبية تقريبا من مهمّشي الأرياف والمدن الى العمّال والموظّفين والفلاّحين الفقراء والتجار والمهنيين. ولكن نادرا ما يتورّط أحد أبناء الفئات والعائلات المحظوظة في أعمال نضالية ذات خطورة كالتظاهر أو القيام بعمليات إرهابية ([28]). كما شاركت في

([27]) انظر مثلا تقرير العقيد دفاري (Divary) مساعد الجنرال قاربي ليوم 4 فيفري 1952 (S. 369, p. 515) حيث يذكر أن بعض التجار الكبار في سوسة تشكوا للقايد من الإستعمال المفرط للإضراب وسوف تأخذ السلط الإستعمارية ذلك في الإعتبار عندما اعتبرت بداية من 16 جوان 1952 غلق الدكاكـين جريمة يعاقـب عليها القانون (انظر قرار الجنرال قاربي بـ S. 389, p. 794).

([28]) يكفي استعراض قوائم الموقوفين إثر التظاهر وقوائم الشهداء للتأكد من ذلك. وبصورة أعم إن المتعاملين مع الإستعمار أو المتهادنين معه والذين الكثير منهم طالتهم يد المقاومة بالعقاب (الإغتيالات) كانوا من نفس الفئات المحظوظة أو من عناصر المخزن. انظر من باب المثال فقط موقف بعض الأعيان من الفظائع التي ارتكبها الجيش في أواخر جانفي 1952 بالوطن القبلي حيث

هذه النضالات جميع الفئات العمريّة وخاصة الشابة منها المتميّزة بالاندفاع والتحمّس وحتى تلاميذ المدارس. ومن الملفت للنظر أيضا مشاركة المرأة ولو بصورة محدودة - مقارنة بالثورة الجزائرية مثلا- في أعمال نضالية من التظاهر إلى إضرابات الجوع وحتى إلقاء القنابل لكن هذه الظاهرة همّت المدن الكبيرة فقط إذ لا تشير المصادر إلى مشاركات نسائية في دواخل البلاد.

أمّا التوزيع الجغرافي للمقاومة الشعبية - كما يبرزه القسم الأول من هذا البحث، فقد تميّز بالشمولية فليس هنالك نقطة تقريبا من البلاد لم تعش تحركات شعبية ممّا يبرز عمق المد الشعبي وخاصة القدرة التأطيرية الفائقة للمنظمات القومية وبالخصوص خلايا الحزب الدستوري الجديد لكن التحركات الجماهيرية تركّزت أكثر بالمدن الكبرى أي العاصمة وبنزرت وسوسة وصفاقس وذلك لأسباب معروفة منها الكثافة السكانية ووجود جاليات أوروبية فيها أكثر ممّا يمثّل في حدّ ذاته تحدّيا للشعور القومي وخاصة عراقة النضال السياسي والاجتماعي فيها وللقدرات التنظيمية والتأطيرية المتوفّرة في هذه المراكز، أما من حيث الجهات فتبرز جهة تونس الكبرى والساحل بكثافة نضالية أكبر.

أما من حيث أهميّة الأشكال النضالية فانه ثبت لنا من خلال الدراسة الدقيقة للتحرّكات الشعبية في الشّهرين الأوّلين من الانتفاضة أن الأعمال الجماعية التي طبعت شهر جانفي وخاصة التظاهر في الشوارع، تراجعت نسبيا في الأشهر اللاحقة حيث عرفت البلاد في النصف الأخير فقط من شهر جانفي أكثر من 36 مظاهرة سياسية بينما انخفضت في شهر فيفري إلى 19 والى 5 في النصف الأول من شهر مارس، وذلك يفسّر بما اعتمدته السلط الاستعمارية من إجراءات قانونية حادة للنشاط السياسي وخاصة لما تعرّض له السكان من أساليب قمع واعتقالات، بينما ازداد نسق الأعمال التي يقوم بها المقاومون فرادى أو في شكل مجموعات مثل عمليات الحرق وتخريب المنشآت الاقتصادية وبالدرجة الأولى الاعتداء على ضيعات المعمّرين بالحرق أو قطع الأشجار أو الاضرار بالماشية أو حرق السّلع ومحطّات القطارات (الحلفاء خاصة) ونهب وحرق المخازات على ملك الأوربيين أو اليهود كذلك تفجير محوّلات الكهرباء، وخاصة بصفاقس، أو خزّانات الماء. كما أن الإضرار بوسائل وطرق النقل والإيصال تزايدت بمرور الأيام وشدّة المحاصرة على

يصرح أحد أعيان جهة نابل متحدثا عن الجنود بأنهم تصرفوا en gentlemen. راجع تقرير العقيد شموكال ليوم 4 فيفري 1952 بـ S. 369, p. 500.

المدن حيث سجّلت مصالح الجيش في الفترة المدروسة 151 عمليّة تخريب لخطوط الهاتف و58 تخريبا للسكة الحديديّة. وكانت الأساليب المستعملة في ذلك بسيطة في حدّ ذاتها كالمقص لقطع الأسلاك أو المنشار لقص الأعمدة أو الحرق عن طريق البنزين أما القناطر والبناءات المنسوفة فكانت عادة عن طريق الديناميت الذي يتحصّل عليه المقاومون من البحّارة أو من المنجميّين أو عن طريق قنابل حرفية. أما الإضرار بالسكة الحديدية فكان يقع أما عن طريق التفجير أو فك براغي السكة أو وضع قطع حديد وعصي أو حجارة في تجويفات السكة أو تحويل الاتجاه والهدف من هذه الأفعال شلّ الحركة الاقتصادية وخاصة بثّ الرعب ومنع الاتصالات بين أجهزة الإدارة ومن الملاحظ أن العديد من عمليات تخريب الاتصال الهاتفي كانت تسبق عمليات عسكرية كان يقوم بها "الفلاقة" وخاصة بالجنوب التونسي.

كذلك من الاستنتاجات التي وصلنا إليها من خلال تتبع شريط الأحداث في الفترة المدروسة أن أعمال المقاومة المسلّحة المصطلح على تسميتها "بالفلاقة" زادت حدّة وكثافة بمرور الأيام وخاصة بضرب الحصار على المناطق الآهلة وتكثيف عمليات "التمشيط" و"التنظيف" التي كان يقوم بها الجيش الفرنسي حيث سجّلنا ثماني عمليات في شهر جانفي وأربع وعشرين في شهر فيفري وستة في بداية مارس وجل العمليات وقعت بجهة الأعراض بالجنوب وبصورة أقل بالساحل. ومن الملاحظ أن نشاط المقاومة المسلّحة سوف يتصاعد مستقبلا ويشمل جلّ المناطق الجبلية بالبلاد ومن جنوبها إلى شمالها ([29]).

هناك جانب آخر قادر أن يعطينا عمق التحركات الشعبية ومدى تمثيليتها وهو عدد المشاركين فيها لكن حسب إمكانيات مصادرنا الحالية، فان احتساب عدد المتظاهرين في الشوارع أو الحاضرين في التجمّعات السياسية أو المضربين عملية غير مضمونة وذلك لأن المصادر الأمنية عادة ما تعطي أرقاما أقل من الواقع، وأحيانا تضخمها أو أرقاما تقريبية أو بدونها أصلا أما المصادر الوطنية فهي عادة تبالغ فيها. كذلك في محاولتنا القيام بعملية مسح كمّي للمشاركين في هذه الأعمال تبيّن لنا أن عديد المظاهرات مثلا ذكرت دون تحديد لعدد فاعليها. كذلك بالنسبة لعدد المعتقلين اثر المظاهرات حيث أحصينا لشهر جانفي سبعين شخصا ولشهر فيفري مائة فقط وهذا من الأكيد دون الحقيقة بكثير.

([29]) انظر كذلك بحث عروسية التركي بعنوان "المقاومة المسلحة بجهة الأعراض"، المصدر المذكور.

أما عدد الجرحى في اصطدامات الشوارع فإن المصادر الأمنية تذكر مائتين وسبعة لشهر جانفي وأربعين لشهر فيفري أما القتلى فكان عددهم 76 في اسبوعي المظاهرات لشهر جانفي أو بمعدل خمسة قتلى في اليوم تقريبا وعشرة فقط لفيفري أي في المجموع ستة وثمانين، وتعطي الإحصائيات الرسمية الواردة في "السجل القومي لشهداء الوطن" كمجموع لشهداء سنة 1952 عدد مائة وأحد عشر شخصا قتلوا أو اعدموا بعد محاكمات حيث يمثّل الذين سقطوا في الستين يوما الأولى من الانتفاضة نسبة 26.61 % منهم. أما فيما يخص ضحايا الجانب الفرنسي فان مصالح الجيش تقدّم الإحصائيات التالية: حيث قتل من جانفي إلى موفّى مارس 1952 عشرون شخصا منهم أربعة عشرة ذوي جنسية فرنسية وستة من المتعاونين معهم من التونسيين أما عدد الجرحى فيرتفع إلى واحد وعشرين منهم عشرة فرنسيين ([30]).

يبقى أن نقف الآن عند الأسباب العامة التي أدت إلى هذا الانفجار النضالي في بداية جانفي 1952 والظروف التي تم فيها، إن النضالات الشعبية المذكورة تفجّرت في وضع عام متأزّم كانت تعيشه البلاد منذ الحرب العالمية الثانية والذي تميّز بصورة عامة بالتدهور الاقتصادي نتيجة تراجع الإنتاج الزراعي، الجفاف، مشاكل التصدير، تراجع المردودية وعدم مواكبته للنمو الديمغرافي إضافة إلى انحدار النشاط الحرفي نتيجة تدفق السّلع المستوردة على البلاد بنهاية الحرب كما تفاقم عجز الميزان التجاري بصفة ملحوظة نتيجة ركود أسعار جلّ المواد المصدّرة وارتفاع قيمة المواد المستوردة وكذلك لتفاقم التضخّم المالي وعجز ميزانية الدولة التي عمدت للترفيع في الضرائب المباشرة للحدّ منه. هذه الأوضاع أثرت سلبا على جميع الأوساط التونسية وخاصة الشعبية: تدهور القدرة الشرائية، استشراء البطالة، النزوح. هذا الوضع المتأزم كان أرضية خصبة لتصاعد

([30]) أما مجموع ضحايا الجانب الفرنسي حتى 20 جوان 1953 فهو يرتفع إلى 72 قتيلا (منهم 33 فرنسيا و39 تونسيا) وعدد الجرحى 230، مع الملاحظ أن من بين المقتولين نجد 20 شخصا من قوات حفظ الأمن (بوليس، جندرمة، حرس، عساكر) والبقية (52) لا علاقة لهم بهذه المهنة. وجل الذين قتلوا وجرحوا كانوا نتيجة اعتداء مباشر عليهم أو إثر انفجارات وعمليات تخريب انظر في هذا الشأن :

1) S. 389, D 154, p. 54, le document : Etat des victimes franco-tunisiennes provoquées par les troubles insurrectionnels du 12 janvier 1952 au 20 juin 1953.
2) S. 389, D 154, p. 23, le document : Synthèse des événements tunisiens depuis le 10 janvier 1952.

النضالات المطلبية والوطنية التي سوف تحتد اكثر في بداية 1952 كتعبير عن حسّ وطني واضح ووعي بالقضية القومية وكردّ فعل على تصلّب الحكومة الفرنسية ورفضها المطالب الوطنية وما سلّط على السكّان من اضطهاد كان هدفه اجتثاث النشاط النضالي وترعيب السكان وتحطيم عزائمهم، فأدى ذلك إلى نقيضه وهو ازدياد النقمة والإصرار على المقاومة ونذكر فيما يلي بالإجراءات القمعية التي مارستها السلط الاستعماري في هذه الفترة، حيث شنّت حملات اعتقال واسعة استهدفت قيادات المنظمات القومية ومناضليها على أساس قوائم مهيأة للغرض وخاصة أعضاء الحزب الحرّ الدستوري الجديد والاتحاد العام التونسي للشغل إضافة لكل المشكوك فيهم وحتى من عامة الناس الذين وضعتهم الصدفة أمام دوريات الأمن والجيش حيث تم في الشهرين الأولين إيقاف الآلاف من المواطنين والعديد منهم وقع تحويلهم إلى السجون والمحتشدات وكان عددهم يناهز العشرة آلاف إلى حدود 5 مارس 1952 ([31]). وغصّت السجون بأضعاف قدراتها على الحجز وبعثت عديد المحتشدات لاستقبال الموقوفين نذكر منها محتشدات رمادة وجلاّل ببنقردان وزعرور قرب منزل جميل ومحتشد سرفيار قرب فندق الجديد وتبرسق إضافة إلى ثكنات الجيش والجندرمة والسجون المدنية والعسكرية الموجودة بكامل جهات البلاد ([32]) ، وكان الموقوفون يعيشون في ظروف غذائية وصحيّة قاسية إضافة للإهانات والتعذيب الذي يصل إلى حدّ الموت.

وكانت جلّ المدن وجهات البلاد تعيش منذ اندلاع "الثورة" حالة حصار ومراقبة ليلا نهارا بقوات الأمن وخاصة من الجيش حيث ترابط المدرّعات قرب البناءات العمومية وفي داخل الأحياء الأوروبية وتراقب تحركات السكان وتخضع المارّة إلى عمليات تفتيش دقيقة تحت تهديد السلاح. كما عرفت جل المناطق الداخلية والأرياف عمليات تمشيط ([33]) شاركت فيها قوات هامة من مختلف وحدات الجيش وخاصة العناصر الأكثر شراسة من اللّفيف الأجنبي والمظليين والجندرمة ومن البوليس واستعملت كذلك وحدات من البحرية

([31]) من رسالة بعث بها فرحات حشاد بتاريخ 5 مارس 1952 إلى الكاتب العام للكنفدرالية العالمية للنقابات الحرة، ذكرها مصطفى كريم في كتابه : **La classe ouvrière ..., op. cit., pp.** 421-422.

([32]) المصدر السابق.

([33]) راجع جدول الوقائع.

لمحاصرة الحدود ومنع إمكانية إفلات للوطنيين أو تسرّب للأسلحة ([34]) في حين كانت الطائرات العسكرية من نوع فمبير (Vampires) أو مرتنى (Martinet) تحلّق فوق المناطق المعنية على ارتفاع منخفض مطلقة صفاراتها لترعيب السكان ومراقبة التجمّعات أو إطلاق عيارات من رشاشاتها لتفريق المتظاهرين أو لملاحقة المقاومين في الجبال كما كانت الطلعات الجوية المتكرّرة تهدف إلى تحسيس المعمّرين خاصة في المناطق النائية بالأمن ([35]).

وكانت مداهمة المدن والقرى في عمليات التمشيط تقع قبل طلوع النهار وبسرعة باستعمال الشاحنات والمدرّعات والدّراجات النارية حيث تسلط الأضواء الكاشفة على الهدف لمنع حالات الهرب أو محاولة التخلّص من الأسلحة بإخفائها كما يقع أحيانا إنزال المظليين ليكون الوقع على السكان أكبر، ثم يقع تجميع السكان خارج القرية أو المدينة أو في إحدى ساحاتها، وتنصح قيادات العمليات بفصل النساء والأعيان عن بقية الذكور ليسهل التحصّل على المعلومات الضرورية عن طريق الضغط وإثارة الحزازات أو إحياء الأحقاد الدفينة بين الأشخاص كما تشير التعليمات المقدمة للمنفّذين بالبدء "بحثالة المجتمع" والمجرمين لانعدام الذمّة عند الاستنطاق وكذلك النساء "لأنهن يتكلّمن أسهل من الرجال".

كما أن التعليمات المعطاة لقيادات العمليات تشير بعدم قبول رجال الصحافة في ساحة العمليات إلا الصحافة المعتمدة رسميا ويجب أن تكون مصحوبة دائما بضباط يزوّدونها "بالمعلومات الصالحة" ومنع اتصال الصحافيين بالجنود، لأنهم عادة يتفاخرون بأعمال لم يقوموا بها ([36]) والهدف واضح ويتمثل في منع تسرّب أخبار عما يقترف من تعدّيات وفظائع في حقّ الأهالي.

([34]) مثلا في 30 جانفي 1952 كانت الحدود البحرية للبلاد مراقبة من قبل ثلاث زوارق سريعة (Vedettes) وهي Courlis وSerpent de mer وCheval de mer. وفي عرض الوطن القبلي نجد ثلاث وحدات أيضا وهي Macreuse وLion de mer وLoup de mer (S. 369, p. 468).

([35]) وضع جيش الطيران على ذمة قيادة الجيوش بتونس بداية من 28 جانفي 1952 38 طائرة عسكرية منها 18 راسية بتونس بقاعدة سيدي أحمد وبالعوينة و6 بالجزائر و14 بباريس قادرة كلها على التحرك في ظرف لا يزيد عن 12 ساعة (عن تقرير قائد الجيوش الفرنسية بتونس الجنرال قاربي للمقيم العام بتاريخ 29 جانفي 1952 ــ S. 369, p. 459).

([36]) وثيقة موسومة بطابع السرية بتاريخ 2 فيفري 1952 ممضاة من الجنرال قاربي بعنوان :

وتنتهي هذه العمليات بإيقاف المشبوه فيهم وحجز الأسلحة التي يقع العثور عليها أو التي سلّمت طواعية من بعض السكان، وجلّ هذه الأسلحة من بقايا الحرب العالمية الثانية أو أسلحة صيد وأسلحة بيضاء ولا تمثل في الواقع خطورة كبيرة لا من حيث كميتها ولا من حيث نوعيتها، ولا نملك إحصائيات إجمالية لما حجز في الفترة المدروسة لكن نورد كمثال ما حجز في الفترة الفاصلة بين 20 جانفي و 1 فيفري 1952.

مسدسات : 39، بندقيات: 79 منها 34 بندقية حربية، قرابينة 3 ، أسلحة بيضاء : 132، قذائف من صنع حرفي : 113 ، قذائف حربية : 75 ، ألغام : 95 ، ديناميت: 11 كلغ وخراطيش: 559 ([37]).

إن عمليات القمع وان خفّفت من نسق التحركات الجماهيرية الواسعة وأثّرت فعليا وسلبا في معنويات السكان ، فان تواصل النضال الوطني سوف يأخذ صبغة أكثر عمقا وخطورة خاصة بتزايد عدد الملتحقين بالمقاومة المسلّحة بالجبال وانتظام المقاومين فيما سمّي بـــ"جيش التحرير الوطني" في الأشهر اللاحقة من سنة 1952.

نأمل في خاتمة هذا البحث أننا أمطنا اللثام عن جوانب من تاريخ النضال التحرّري في تونس عند اندلاع "المعركة التحرّرية" وهدفنا من ذلك، تحديد معالم دقيقة وكمية حول معطيات بقيت في مجملها إلى حدّ الآن تغمرها العموميات والعواطف.

Premiers renseignements à déduire des opérations effectuées jusqu'à ce jour ; (S.369, p. 495).

([37]) S. 369, p. 486.

المبحث الثاني :

ضحايا الجانب الفرنسي نتيجة أعمال المقاومة في تونس

من جانفي 1952 إلى جوان 1953

ضحايا الجانب الفرنسي نتيجة أعمال المقاومة في تونس

من جانفي 1952 إلى جوان 1953

تمثّل الفترة الممتدة من بداية جانفي 1952 إلى صائفة 1953 في تاريخ الحركة الوطنية التونسية مرحلة حاسمة، إذ مثلت مرحلة "عنفوان الثورة" التي تميزت بموجة من العنف والحضور الشعبي العارم. ولئن تراجعت "الإلتهابات" الأولى فإن النضالات الشعبية تواصلت واتخذت طابعا أكثر عنفا وخاصة بتكوين عصابات تمارس الإرهاب الثوري في المدن والأرياف خاصة، وذلك للالتحاق المتزايد بالمقاومة بالجبال. وقد سقط في الثمانية عشر شهرا الأولى من الثورة عدد هامّ من الضحايا من الجانبين. وقد أردنا في هذا البحث الوقوف عند ضحايا الجانب الفرنسي كطرف في هذه الأحداث، إذ التشخيص الملموس في هذا المستوى يسمح لنا بالتقييم الأسلم لخاصيات العمل الوطني في تلك الفترة وإبراز جوانب منه ما زالت مخفية أو مسكوتا عنها (عن قصد أو صدفة) كمسألة المتعاملين مع الإستعمار والموقف منهم ومعاملتهم من قبل العناصر الثورية آنذاك. وقد أعطينا بحثنا هذا طابعا إحصائيا للخروج من العموميات التي تجانب عادة الحقيقة التاريخية. ونورد هذه الدراسة في أربعة محاور :

I- حجم وتطور عدد الضحايا في الجانب الفرنسي ؛

II- توزّع الضحايا حسب الجنسية ومسألة التعاون مع المستعمر؛

III- توزّع الضحايا حسب المهنة؛

IV- عمليات الاعتداء حسب نوعها وتوزّعها الجغرافي.

I - تطور عدد الضحايا في الجانب الفرنسي : حجمه وتطوّره

يبرز الجدول الأول الأهمية النسبية لضحايا الجانب الفرنسي مدّة الثمانية عشرة شهر المدروسة إذ يرتفع عدد القتلى إلى 55 وعدد الجرحى (الذين استدعت حالتهم دخول

المستشفى) إلى 187 شخصا[1]. وبالعودة إلى الاحصائيات التي تقدّمها مصالح الجيش في الوثيقتين المذكورتين نلاحظ أن الرقم المعطى هو أكبر إذ تحصي 72 قتيلا و 230 جريحا. وقد عدّلنا هذه الأرقام نحو التخفيظ وذلك لأنه تبيّن لنا أن عددا من المقتولين (وهم 17) ومن المجروحين (وعددهم 43) لم يكونوا بفعل "المتمرّدين" (المقاومة) وأحيانا ليسوا لا فرنسيين ولا تونسيين ولا يمكن للبعض منهم الجزم أنهم كانوا في صفّ فرنسا[2].

أمّا من حيث توزّع الضحايا على الأشهر وإن بيّنت الاحصائيات أن كل الأشهر كان لها نصيبها من القتلى فإن الستة أشهر الأولى من الإنتفاضة كان نصيبها أوفر (19 شخصا) من الستة أشهر الثّانية من جانفي 1953 (11 ضحية) على عكس الجرحى الذين عرف عددهم نسق ارتفاع كبير منذ صائفة 1952 وحتى النصف الأول من سنة 1953 كما بينه الرسم البياني المصاحب (الوثيقة الأولى). التي تقوم بها "عصابة اليد السوداء" أو المناضلين فرادى وخاصة عمليات "الفلاقة". وقد عرفت الفترة ككل 2201 عملية موجّهة ضد المصالح الإستعمارية وضد الفرنسيين وعملائهم[3].

---

[1]- نشير أولا إلى أن المعطيات المقدّمة في هذه الدراسة مستقاة أساسا من أرشيف المصلحة التاريخية لجيش البرّ الفرنسي بتونس (Service Historique de l'Armée de Terre) وذلك في السلسلة *Série 2H Tunisie* والبكرات: ,(S. 369, C. 2H 125, 127), (S. 372, C. 2H 129) (S. 389, C. 2H 154) والموجودة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتونس.

ثانيا : إن معطيات هذا الجدول بالذات والجداول اللاحقة وردت في وثيقتين بعنوان :

- ***Etat récapitulatif des Français et Tunisiens tués et blessés du fait de l'action des insurgés*** **(S. 389, p. 58).**
- ***Liste nominative des Français et Tunisiens tués du fait de l'action des insurgés*** **(S. 389, pp. 59-84).**

[2]- مثلا ضحايا تفجير محطة قطار قابس (1952/3/12) وهم ستة من التونسيين وكذلك ضحايا تفجير مكتب البريد المركزي بتونس العاصمة (1952/5/13) ومن بينهم خمسة تونسيين لا يمكن بحال حسبانهم في الجانب الفرنسي إذ وضعتهم الصدفة فقط في موضع الواقعة. وكذلك فإن مصالح الجيش تضع بعض الضحايا على حساب المقاومة بينما هم من فعل عصابة اليد الحمراء مثلما هو شأن الذين سقطوا في الإعتداء الذي وقع على مقهى بباب الخضراء بتونس (1/16/ 1953) أو عملية التفجير التي استهدفت حي الطرابلسية بالمتلوي (1952/9/30) كذلك أحصينا ستة أجانب من المفروض أن لا يشملهم الإحصاء.

[3]- انظر وثيقة القيادة العليا للجيوش بتونس .C.S.T.T بتاريخ 25 جوان 1953 بالبكرة بعنوان : ***Synthèse des événements tunisiens depuis le 10 janvier 1952*** **(S. 389, p. 23).**

لكن لو قارنّا ضحايا الجانب الفرنسي بالضحايا في الصف التونسي فإننا نلاحظ بالتالي البون الشاسع حيث لم يفقد الفرنسيون وعملائهم إلا 75 شخصا[4] طيلة السنتين الأولتين من الثورة فإن التونسيين استشهد منهم 198 شخصا أي أكثر من مرّتين ونصف في نفس الفترة[5] ويبرز الفارق أكبر إذ علمنا أن عدد القتلى التونسيين وصل في أسبوعي المظاهرات الأولين لشهر جانفي 1952 لوحدها 76 شخصا[6]. وان هذا التفاوت بديهي لأسباب معروفة إذ كانت المقاومة التونسية تجابه أجهزة قمع متنوّعة من بوليس وجندرمة وفرق الحرس الجمهوري وخاصة قوات عسكرية متزايدة ما فتئت تتدفّق على البلاد التونسية من الجزائر وفرنسا[7].

---

[4]- إضافة للخمس وخمسين قتيلا المذكورين يجب إضافة عشرون قتيلا سقطوا في النصف الثاني من عام 1953 (راجع تقارير المقيم العام الفرنسي لهذه الفترة والواردة بالبكرة (S. 372 , D. 2).

[5]- إحصاء قمنا به إنطلاقا من قوائم الشهداء التي وردت في كتاب *السجل القومي لشهداء الوطن*" الصادر عن *دار العمل*، تونس، 1978.

[6]- انظر البحث الأول بعنوان : "ستون يوما من النضال الشعبي بتونس من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952".

[7]- من باب الذكر لا الحصر نورد :

- في شهر جانفي 1952 : وصول تعزيزات عسكرية من الجزائر واستنفار الإحتياطيين من الفرنسيين في تونس للعمل بالجيش والجندرمة (S. 369, D. 1 , p. 298) .

- 28 جانفي 1952 : وضع 38 طائرة حربية تحت تصرّف القيادة العليا للجيوش (S. 369, D. 1, p. 296).

- خلال شهري أوت وسبتمبر 1954 أرسلت فرنسا إلى تونس ما بين 35 و 40 ألف مقاتل ذكره علي بن عامر في مقال له بعنوان "سيرة صالح بن يوسف" صدر بمجلّة *أطروحات (تونسية)* عدد 15، 1989، ص. 10.

الجدول I : قتلى وجرحى الجانب الفرنسي

من جانفي 1952 إلى جوان 1953

	القتلى			الجرحى		
	فرنسيون	تونسيون	المجموع	فرنسيون	تونسيون	المجموع
جانفي 1952	6	–	6	4	2	6
فيفري 1952	4	1	5	3	–	3
مارس 1952	4	–	4	3	–	3
أفريل 1952	1	1	2	1	3	4
ماي 1952	2	–	2	12	–	12
جوان 1952	–	–	–	1	–	1
جويلية 52	–	–	–	1	7	8
أوت 1952	2	2	4	2	3	5
سبتمبر 52	–	–	–	5	2	7
أكتوبر 1952	4	2	6	15	5	20
نوفمبر 52	4	3	7	27	7	34
ديسمبر 52	2	2	4	7	3	10
جانفي 1953	3	–	3	9	3	12
فيفري 1953	–	2	2	5	9	14
مارس 1953	–	1	1	8	7	15
أفريل 1953	–	1	1	9	5	14
ماي 1953	–	6	6	2	9	11
جوان 1953	1	1	2	2	6	8
مجموع القتلى والجرحى	33	22		116	71	
	55			187		

كما اتخذت السلط العسكرية عدة إجراءات للحدّ من أعمال المقاومة إذ أصبحت البلاد تعيش منذ بداية الأحداث حالة من حصار وتحت الأحكام العرفية ومنع الجولان وتحت رقابة الجيش وقد اتخذ الجنرال قاربي (Garbay) القائد الأعلى للجيش ووزير الدفاع قرارا في 26 مارس 1952 يقضي تحميل مسؤولية الأمن للأهالي ويقرّ المسؤولية الجماعية في حالة وقوع أضرار إذ وقع بعث ما سمّي بـــ "فرق أمن" (Groupements de Sûreté) يكوّنها لزوما كلّ التونسيين من الذكور الذين تفوق أعمارهم 18 سنة في مستوى كل مشيخة لغاية حماية كل المنشآت العمومية ووسائل النقل والإيصال وتحت إشراف أعيان المنطقة وكلف المراقبون المدنيون بتطبيق هذا القرار. وتحمّل كل فرقة أمن مسؤولية ما وقع من أضرار أو تخريب في المنطقة المنوطة بمراقبتها[8].

كما أن ارتفاع الضحايا في الجانب التونسي مقارنة بالجانب الفرنسي لم يكن من فعل أجهزة الدولة فحسب بل ساهمت فيه عصابة اليد الحمراء وهي منظمة إرهابية كوّنها الإستعماريون الفرنسيون بتونس وبعض المغالين من السياسيين والبوليس في إطار ما سمي بالدفاع الذاتي وكردّ فعل على إرهاب المنظمة الوطنية "اليد السوداء". وقد قامت اليد الحمراء حتى موفى ديسمبر 1952 بأكثر من 50 عملية إرهابية ضد الوطنيين من الحرق والتخريب والإغتيال[9]. وقد كانت مسؤولة على اغتيال عديد المناضلين منهم الزعيمين فرحات حشاد والهادي شاكر. وتبين أن أفرادا من عائلة بلقروي تورطوا معها في اغتيال هذا الأخير.

ويشير الجدول الأول أيضا إلى مسألة أخرى وهي أهمية عدد التونسيين المتضرّرين والذين تقدّمهم الإحصائيات الرسمية كـــ "أصدقاء لفرنسا" (des amis de la France).

II- توزّع الضحايا حسب الجنسية ومسألة التعاون مع المستعمر

إن المتأمّل في معطيات الجدول يلاحظ أهمية عدد التونسيين الذين قتلوا أو جرحوا وكانوا في صفّ فرنسا إذ على عدد 55 قتلوا نجد 22 تونسيا أي 40% من المجموع

[8]– راجع نص "القرار" *بالرائد الرسمي التونسي* رقم 25 بتاريخ 27 مارس 1952.

[9] - « Le Néo-Destour face à la troisième épreuve », *Dar El Amal*, Tunis, 1979, tome I, p. 400.

وجرح 71 أي 37.96% منهم. فعددهم مقارنة بالفرنسيين ليس بعيدا وليس كذلك تافها[10]. وتثير هذه الأرقام مسألة التعاون مع فرنسا أو الخيانة الوطنية في صفّ التونسيين. ومقارنة بحركات تحررية أخرى يبدو عدد الضحايا في صفّ المتعاونين (Les collaborateurs) مع الإستعمار في تونس هزيلا[11]. فمثلا في الثورة الجزائرية طال العقاب عشرات الآلاف من الخونة. وحسب رأينا تعود تفاهة عدد الضحايا من بين المتعاونين في الفترة المدروسة وفي الفترة اللاحقة من "الثورة" الوطنية لطبيعة العمل الوطني في تونس والايديولوجية السياسية التي قادت هذا العمل إذ كانت قيادات الحزب الحر الدستوري الجديد كأهمّ طرف فاعل وقائد للعمل الوطني تركّز على الوحدة الوطنية وتتلافى التحاليل والمواقف المتطرّفة ذات البعد الطبقي والتي كانت تتبناها التيارات والحركات اليسارية في مستعمرات أخرى والتي تشير بإصبع الإتهام مباشرة للطبقات الإجتماعية والقوى السياسية التي استفادت من الواقع الإستعماري والتي تلتقي مصالحها الموضوعية مع الإستعمار وتخدمه ويخدمها. ومثال ذلك في تونس الدعاية التي كان يقوم بها الشيوعيون ضد كبار الإقطاعيين وأعيان الدولة من قيّـاد ومشائخ وغيرهم[12].

كما أنّ الصراع السياسي والإجتماعي في تونس زمنذاك لم يبلغ درجة الحدّة حيث يقع الفرز الإجتماعي والإصطفاف الطبقي والوطني الواضح إذ كان يغلب على النضال الوطني الطابع السياسي السلمي وكان اللجوء إلى العمل المسلح والعنف الثوري محدودا يأتي أمّا للضغط على السلط الإستعمارية لتحقيق المطالب أو كردّ فعل فردي أو في إطار

---

[10]– نشير هنا أن 6 أجانب جرحوا جروحا خطيرة في الفترة المدروسة نتيجة تفجيرات لم يكونوا هم المقصودين منها حدثت كلها في تونس العاصمة وهم 3 إيطاليين وجزائري وحارسان مغربيان (*« Liste nominative des Français… »*, op. cit.).

[11]– من مفارقات التاريخ أن الذين قتلوا أثناء العمليات أو أعدموا بعد 1955 وكانوا في صفّ الثوّار وخاصة في صفّ اليوسفيين عددهم أضعاف من قتلوا وكانوا خونة للوطن. يذكر مثلا علي بن عامر في مقاله المذكور وفي الإحالة 43 من هذا البحث : "حسب الإحصائية التي أنجزتها إنطلاقا من الصحيفة اليومية لوبيتي ماتان أمكنني تسجيل 70 قتيلا في صفوف الفلاقة الجديدة (اليوسفيين) خلال شهر جانفي وفيفري 1956 و 56 قتيلا في أفريل و 200 على الأقل في شهر ماي و 50 في جوان 1956"، لزيادة التفاصيل انظر البحث السادس المنشور هنا.

[12]– يمكن مراجعة "الأدبيات السياسية للحزب الشيوعي التونسي" وخاصة ما ورد في جريدته *L'Avenir de la Tunisie* للفترة المدروسة.

مجموعات لكن دون بلورة لاستراتيجية واضحة، حيث لم يكن الحسم الثوري مع الإستعمار وعملائه موقفا مبدئيا وقطعيا عند قيادات الحزب الدستوري الجديد إذ كان هناك تلميح ليس أكثر لاستعمال العنف المسلّح كعنصر ضغط فقط[13].

ومن جانب آخر لم تعرف تونس تورّطا واضحا وفاعلا لفئات اجتماعية عريضة يفترض "معاقبتها" تاريخيا. لكن لا ينفي أن عديد الفئات الاجتماعية من كبار الملاكين والتجار وأرباب الأعمال ومن رجال الإدارة المركزية والمحلية وشيوخ الطرق وحتى من الفئات الشعبية، أمّا لحسابات مصلحية أو لجبن سياسي كانت تقف في صفّ الاستعمار وتستنكف من أعمال العنف و "الشغب" التي تقترفها عناصر المقاومة وتعبّر عن ولائها للسلط الاستعمارية ويكفي أن نراجع تقارير الإدارة الإستعمارية لفترة الخمسينات – وحتى بقيّة الحقبة التاريخية– لنجد عديد الشّواهد الملموسة على هذا التورّط مع المستعمر ونورد هنا بعض الأمثلة من هذه المواقف.

إثر الأحداث الإنتقامية وعمليات الإجرام التي اقترفها الجيش الفرنسي في الوطن القبلي في أواخر جانفي وبداية فيفري 1952 نجد قايد سليمان يصرّح لقائد العمليات العسكرية بالجهة أنه ذكر للجنة التحقيق بإشراف الوزير الأول أن عمليات "التنظيف" تمّت دون إطلاق أي رصاصة ولم تقع أي تعديات في حق المواطنين[14] (هكذا)! كذلك أحد أعيان نابل شهد لدى الوزير الأول في شـــأن الأحداث المذكورة "بـــاستقامة الجنود الذين تصرّفوا كجنتلمان (en gentlemen)"[15]. كما يذكر العقيد دفاري في تقريره ليوم 4 فيفري 1952 أن تجارا كبارا في مدينة سوسة توجّهوا لمركز القيادة ليندّدوا بالإستعمال التعسفي

---

[13]– في تقدير قيادات الحزب الحر الدستوري الجديد أن تحقيق الإستقلال لن يتم عن طريق الثورة المسلحة وذلك للخلفية الفكرية لهذه القيادات من ناحية وإيمانها بعدم إمكانية تحقيق تكافؤ للقوى في حالة صراع مسلّح لكن تضع في حسبانها إمكانية اللجوء إلى بعض العمليات "الإرهابية" أو استغلال ضربات "الفلاقة" إما للضغط والإستئثار باهتمام الرأي العام أو لترهيب المتعاملين مع الإستعمار. ويمكن العودة في هذا الشأن مثلا لخطابات الحبيب بورقيبة سنة 1952 في كل من المنستير والحامة وبنزرت ورسالتيه الشخصيتين نفسهما لعابد بوحافة في ماي وجويلية 1950 وذلك بـــ : .« Le Néo-Destour face… », *op. cit.*, pp. 69, 75, 382, 386.

[14] - *« Rapport du Colonel Schmuckel, Commandant la subdivision de Tunis »* du 4/2/1952 (S. 369, p. 500).

[15]– *نفس المصدر.*

للإضراب[16]. ونقرأ في نفس التقرير : "ما يجب ذكره هو أن قبائل القصرين التي هي عامة مشاغبة نرى شيوخها يُسعدون السلط الإدارية في القيام بدورهم" ودورهم هنا تهدئة الأهالي والقيام بدور الإستخبارات الضرورية لمتابعة "المشاغبين". كذلك توجّهت لجنة من أعيان رأس الجبل ورفراف يقودها بلحسن داود قائد بنزرت وكاهية رأس الجبل محمد مسعودي لتقابل المقيم العام دوهوتكلوك يوم 5 جانفي 1953 ولتعبّر له باسم الجهة عن أسفها لما وقع من أحداث بجهة بنزرت سنة 1952[17] وعن ولائها للقوّة الحامية والذي كرّسه أعيانها في تقديم "الخارجين عن القانون" للمحاكم[18]. وكان تأثير هؤلاء الأعيان واضحا في إخماد التمرّد بالجهة حيث حملوا مجموعة من المقاومين (عشرة) كانوا رفعوا السلاح على تسليم أنفسهم للمراقب المدني وكان يقودهم محمد الكوّاش[19].

لكن شهادات الولاء للمستعمر كانت تصدر خاصة من قدماء المحاربين التونسيين وذلك رغم خروج القليل، منهم عن الطاعة نتيجة وضعيتهم المادية المزرية والتمايز بينهم وبين رفاقهم الفرنسيين ومحاولة الأحزاب الوطنية جلبهم لصفّها، حيث أنّ أغلبيتهم ظلّت على وفائها لفرنسا[20]. ونقرأ مثلا في اللاّئحة التي صوتت عليها بالإجماع اللجان المديرة لجمعية قدماء المحاربين وضحايا الحرب في 23 جانفي 1952 ما يلي : "إن قدماء المحاربين وقدماء سجناء الحرب من فرنسيين وتونسيين الذين هم براء من الأحداث التي تمّت أخيرا، يؤكّدون مرّة أخرى عن ولائهم الثابت لفرنسا(...) ويشجبون الحوادث الدامية

[16] - « Synthèse de renseignements » du 4/12/1952 par le Colonel Divary, Colonel-Adjoint au Général C.S.T.T. (S. 369, p. 515).

[17] – تمثلت هذه الأحداث خاصة في مشادات ماطر بين المتظاهرين وقوات الأمن والجيش (19/ 1952/01) ومشادة بين أفراد من المتمرّدين وفرقة من الجيش (1952/01/20) واغتيال الجندرمي سيسرو (Cicero) ببرتوفرينة (1952/01/20). والملاحظ هنا أن أصيل المنطقة معاون الجندرمة بن عثمان هو الذي أوقف المتورّطين في هذا الإغتيال.

[18]- « Synthèse de renseignements par le Colonel Divary » du 6/02/1952, S. 369, p. 531. *Le Petit Matin* du 6/1/1953.

[19] – نفس المصدر

[20] – انظر "تقرير الجنرال قاربي" (1952/1/23) (S. 372, D. 2, p. 806) وكذلك :
BELAID Habib, « Un exemple d'association d'encadrement : Les Anciens Combattants de Tunisie (1950-1951) », in *Actes du VIe Colloque International sur la Tunisie de 1950-1951*, I.S.H.M.N., Tunis, 1993.

التي عكّرت العلاقات الطيبة التي يجب أن تكون بين الفرنسيين والتونسيين والتي هي عامل ازدهار وتقدّم ضروري"[21].

غير أنّ التعاون مع المستعمر لم يقف عند حدّ المواقف والمساندة الضمنية والصريحة والتنديد بـ "أعمال الشغب" وبـ "الفلاقة" بل تعدّاها إلى التعاون النشيط مع المستعمر من جمع المعلومات والإستخبار حول المقاومة الوطنية إلى رفع السلاح ضدّ رموزها وكانت العناصر التي تورّطت في هذا النشاط هي التي استهدفت أكثر لعمليات الانتقام والقتل. ونتناول هذه المسألة في المحور الموالي.

III- توزّع الضحايا حسب المهنة

إن الجدولين الثاني والثالث اللذين يبيّنان توزع قتلى وجرحى الجانب الفرنسي حسب المهن وموقعهم الاجتماعي يعكسان بوضوح ما هي الفئات التي كانت محطّ نقمة الوطنيين من ناحية ومن ناحية ثانية توحيان بطبيعة المصادمات مع المستعمر وأدواته ونوعيّة العمليات المنجزة.

إن المعطى الأساسي في الجدولين هو أن فئة المستخدمين في حفظ الأمن من بوليس وجندرمة وعساكر هي التي استقطبت انتقام الوطنيين إذ تحتل الرتبة الأولى في قائمة الفئات المتضرّرة إذ قتل منها 22 شخصا وجرح 57 أي نسبة 40% من مجموع القتلى و 30.48% من مجموع الجرحى. لكن عناصر الأمن (من جندرمة وبوليس وحرس جمهوري) قدّمت ضحايا أكثر من العسكر إذ نجد 15 عنصرا من البوليس مقابل 7 جنود في صفّ القتلى وكذلك في صفّ الجرحى إذ تضرّر من الأولين 36 فردا ومن الثانين 21 فقط. وإن تغلّب الضحايا في صفّ البوليس يفسّر بالطابع "الإرهابي" للمقاومة في تلك الفترة وكذلك للاستعمال الواسع لفرق البوليس والجندرمة في حملات "التنظيف" التي شملت كل الجهات تقريبا لإيقاف المشبوه فيهم وترهيب السكان والتفتيش عن الأسلحة. بينما ضعف عدد القتلى من بين العساكر (سبعة) وكذلك الجرحى (واحد وعشرين) يعود إلى أن المقاومة لم تتخذ شكل مجابهة مسلّحة وضعت جيشا نضاميا ضدّ جيش ثوري مسلّح بل كانت حرب عصابات إن كان في المدن أو خاصة في الأرياف وإن كانت مجموعة الثوار ("الفلاقة") تمتلك زمام المبادرة في الهجوم المباغت على العساكر في

---

[21]- *Le Petit Matin* du 25/1/1952.

تنقلاتهم في المرحلة الأولى أي حتى أواخر 1953 أصبحت في مستهلّ سنة 1954 وخاصة منذ ربيع هذا العام تخضع لعمليات تصفية من فرق عسكرية معزّزة بالطائرات حسب تخطيط وقيادة محكمتين لذلك فإن الضحايا في الجانب التونسي من المقاومين كانت فادحة وليس هنالك وجه مقارنة مع ضحايا الجيش الفرنسي. ونعطي هنا بعض الأمثلة تؤكد ما ذكرناه.

في واقعة كاف التوارق شرقي تطاوين يوم 14 ديسمبر 1952 تمكّن الجيش الفرنسي من قتل 11 فردا من "الفلاّقة" وجرح 1 (على 14 أعضاء المجموعة) بينما لم يخسر الفرنسيون إلاّ عسكريا من الأهالي وجرح جندرمي[22]. وفي كمين نصبه المقاومون في مدخل مدينة قابس لشاحنتين عسكريتين يوم 15 نوفمبر 1952 ليلا قتل 4 جنود فرنسيين و 3 مقاومين تونسيين[23] وفي كمين نصبه عنصران من "الفلاقة" في شهر ماي 1953 جنوب صفاقس لدورية من الحرس الجمهوري قتل فيه المجاهدان وجرح ضابط فرنسي[24]. لكن الفارق في الضحايا سوف يكون أكبر في السّنتين اللاّحقتين وخاصة سنة 1954 في معارك الجبال.

إن استهداف رجال الأمن والعساكر للاغتيالات والاعتداء أكثر من غيرهم يعود كذلك إلى أنهم رموز للسلطة الفرنسية وللقمع الاستعماري ولأنهم في خضم المصادمات التي عمّت البلاد في تلك الفترة. أمّا من حيث الرّتب تبيّن أنّ الذين استهدفوا للاعتداء جلّهم من الأعوان العاديين من الأمن أو جنود إذا إستثنينا التونسيين برتبة مفتّش أول في البوليس وهما محمد الشابي وبن عيسى نوّار[25] وخاصة الفرنسيين ديراند وفاشي.

---

[22] - *Journal de Marche du C.S.T.T.*, S. 369, D. 1, p. 369.

لمزيد التفاصيل والدقة راجع البحث المنشور هنا : "كمندوس فرحات حشاد".

La chronologie des événements par le C.S.T.T., S. 369, D. 5, p. 764.

23– "تقرير المقيم العام" لشهر ماي 1953 بـــ (S 372, p. 848).

[24]– يذكر شارل أندري جيليان أنه ما بين أوّل ماي و 1 نوفمبر 1954 قتل 34 من الجنود والبوليس وجرح 89 من قوات الأمن بينما قتل 147 من الفلاقة بـــ :

Charles-André JULIEN, *Et la Tunisie devint Indépendante…* (1951-1957), Les Editions J.A./ S.T.D., Paris, 1985, p. 170.

الجدول II : توزيع الجرحى حسب المهنة

الجنسية / الوظيفة	فرنسيون	تونسيون	المجموع	نسبة المهنة من المجموع
مستخدمون في حفظ الأمن:				
بوليس	13	7		
جندرمة	16 43	0 14	57	%30.48
عساكر	14	7		
موظفون ومستخدمون:	26	11	37	%19.78
حديديون	11	5	16	%8.55
سوّاق	1	2	3	%1.60
شيخ		3	3	%1.60
كاتب شيخ		1	1	%0.53
كاهية		1	1	%0.53
مراقب مدني مساعد	1		1	%0.53
مستشار بلدي	1		1	%0.53
مستشار مجلس قيادة		1	1	%0.53
فلاحون		1	1	%0.53
معمّرون	2		2	%1.06
تجّار	1		1	%0.53
أطباء	1		1	%0.53
محامون				
خبّازون		1	1	%0.53
مخبرو أمن		2	2	%1.06
دون تحديد للمهنة	29	29	58	%31.01
المجموع	116	71	187	%99.91

كان العقيد ديراند (Durand Norbert Philippe) قائدا لدائرة سوسة للأمن وقع اغتياله في مظاهرات جدّت بسوسة يوم 21 جانفي 1952 من طرف أحد الوطنيين إذ هوى عليه بهراوة ثم سدّد له طعنة بسكّين[26]. كان هذا العقيد عندما قتل يبلغ من العمر 55 سنة وكان متحصّلا على وسام الشرف لمشاركته "البطوليّة" في الحربين العالميتين وكذلك في الهند الصينية. كان حتى تلك الفترة من الضبّاط الأعلى رتبة الذين خسرهم الجيش الفرنسي في تونس[27].

وكان لاغتياله الأثر الكبير بتونس سلطة ورأيا عاما[28]. أمّا الملازم الأول في الجندرمة فشي (Jean Vaché) قائد فصيل قرمبالية سوف يغتال بالرّصاص يوم 23 جانفي 1952 ببني خلاد بينما كان يعبر هذه القرية التي كانت في حالة هيجان قصوى[29] وقد أصدرت المحكمة العسكرية بتونس في شهر مارس 1953 في قضيّة اغتياله ثلاثة أحكام بالإعدام منها إثنين غيابيا[30]. ويعتبر الرئيس مركز الجندرمة سيسرو (Cicero

[25]– الأول جرح بالرصاص من طرف مجهول بتونس العاصمة في 1952/7/4 والثاني استهدف لمحاولة اغتيال بإطلاق النار عليه في 1953/5/30 بسوسة ("Liste nominative…", op. cit.).

[26]– انظر بلاغ الإقامة العامة في *Le Petit Matin* (1952/1/22) وكذلك "تقرير الشرطة" الذي أورده محمد الصياح في *Le Néo-Destour face…* المصدر المذكور، ص. 158.

[27]– في 24 جويلية 1954 سوف يقع اغتيال المقدّم دولابايون (De la Paillonne) بتونس وكان مدير الإدارة المركزية للجيش بتونس.

[28]– "تقرير الجنرال قاربي" بتاريخ 23 جانفي 1952 (S. 369, D. 5, p. 400). نشير هنا أن الملازم أوّل مختار بن عبد القادر السعيدي، رئيس فرع قدماء المحاربين بمنزل تميم بعث باسمه الخاص وباسم كامل جهة الوطن القبلي (هكذا!) "بأصدق التعازي في الفقيد". نلاحظ أن هذا الضابط المتقاعد تعرّض هو نفسه لمحاولة اغتيال بمنزل تميم يوم 1953/4/19 (Liste nominative…, *op. cit.*).

[29]و[30]– سوف تصدر المحكمة العسكرية بتونس في هذه القضية في شهر ديسمبر 1953 على 37 شخصا أحكاما تتراوح بين الأشغال الشاقة وأحكام بالسّجن (تقرير المقيم العام لشهر ديسمبر 1953 بـ (S. 372, D. 2, p. 886) ويذكر *السجل القومي…*، المصدر المذكور ص. 104 أن صالح بن علي بن عبد الله بن سعد من الرقاب (سيدي بوزيد) أصدرت فيه المحكمة العسكرية بتونس حكما بالإعدام بتهمة اغتيال الكولونيل ديراند ونفّذ فيه في 26 ماي 1954 بالسيجومي.

(Antoine) أوّل من طالتهم الإغتيالات في مرحلة الانتفاضة إذ وقع قتله في الليلة الفاصلة بين 21 و22 جانفي 1952 ببرتوفرينة (غار الملح)[31].

الجدول III : توزيع القتلى حسب المهنة

	فرنسيون	تونسيون	المجموع	نسبة المهنة من المجموع
مستخدمون في حفظ الأمن:				
بوليس	9	1		
جندرمة	50	02	22	%40
عساكر	6	1		
موظفون ومستخدمون:	4	3	7	%12.72
حديديون	4	–	4	%7.27
شيخ		3	3	%5.45
تجار	–	2	2	%3.63
مستشار في مجلس القيادة		2	2	%3.63
فلاحون		1	1	%1.81
معمّرون	1		1	%1.81
محامون		1	1	%1.81
كاهية		1	1	%1.81
خليفة		1	1	%1.81
أمين التموين		1	1	%1.81
مستشار بلدي		1	1	%1.81
دون تحديد المهنة	4	4	8	%14.54
المجموع	33	22	55	%99.91

[31]– أصدرت المحكمة العسكرية بتونس في هذه القضية في 11 جوان 1952 ثلاثة أحكام بالإعدام نفّذت في 8 ديسمبر 1952 في الشهداء الثلاثة : البشير بن الهادي قصيبة (شهر نقرة) وأحمد بن مصطفى بن سليمان الورتاني وحمادي بن علي العطوي (شهر بلانكو) وثلاثتهم من غار الملح.

أمّا المجموعة الثانية من ضحايا الجانب الفرنسي –إن كانوا تونسيين أو فرنسيين– فهي مكوّنة من الموظفين والمستخدمين في الإدارات والمحلاّت الخاصة وجلّهم قتلوا أو جرحوا نتيجة انفجارات دبّرت ضد مواقع عملهم كمؤسّسات استعمارية يؤمّها خاصة الأوروبيون مثل تفجير محطة قابس (1952/3/12) وتفجير البريد المركزي بتونس (13/ 1952/5) أو تفجير البنك التعاضدي التونسي (1952/11/25). ونفس الملاحظة يمكن أن نسوقها فيما يخصّ المجموعة التي لم تحدّد مهنتها. كذلك أن فئة العاملين بالنقل وبالخصوص بالسكة الحديدية قد قدّمت بصفة خاصة عددا هامّا من الضحايا (4 قتلى و19 جريحا) وذلك لتعدّد عمليات تخريب السكة والهجوم على القطارات والشاحنات في الفترة المدروسة وذلك لما يمثّله النقل من دور رئيسي في الإقتصاد وضمان الأمن.

إن قوائم ضحايا الجانب الفرنسي تبرز كذلك بصورة عامة أهمية عدد المتعاونين من التونسيين من غير الفئات المذكورة والذين طالتهم الإغتيالات (13 شخصا) أو محاولات القتل (13 فردا) وجلّ المقتولين هم من المتورّطين النشيطين مع المستعمر كسلط محلية أو معاونين للإدارة الإستعمارية. وتذكر تقارير الأمن أن المتضرّرين وقع الاعتداء عليهم إثر تخطيط مسبق من مجموعات إرهابية وخاصة مجموعة "اليد السوداء". وكثيرا ما تعزى الإغتيالات السياسية إلى عناصر منتمية إلى الحزب الحر الدستوري الجديد أو بإيعاز منه خاصة في الفترة التي سبقت وتلت انتخابات مجالس القيادات والبلديات في أشهر مارس وأفريل وماي 1953. وقد أتى في تقرير المقيم العام لشهر مارس 1953، "أنّ اليد السوداء نادت باسم الحزب الدستوري الجديد بمقاطعة الانتخابات وأعلنت أن كل مترشح سوف يقتل بالرّصاص وأن جثته لن تدفن في المقابر الإسلامية ولن يسمح للمسلمين المشي وراء جثمانه"[32].

ومن المتعاملين مع الإستعمار الذين وقعت تصفيتهم في سلك الإدارة عمر بن محمد بوحديبة كاهية قصور الساف، وقع قتله من مجهول برشقات من رشـــاش في هذه البلدة في 1953/3/14 وهو يبدو من عائلة لها تقاليد في خدمة فرنسا إذ كان ابن أخت نصر بن سعيد، قائد شرفي وقائد قديم لصفاقس[33]. أمّا كاهية منزل تميم محمود التارزي فقد نجا من

[32]– "تقرير المقيم العام" لشهر مارس 1953 (S. 372, D. 2, p. 835).

[33] - *« Liste nominative... », op. cit.*, et *Le Petit Matin* du 17/3/1953.

محاولة اغتيال يوم 30 ماي 1953 إذ أطلقت عليه النار من خلف[34]. كما وقع اغتيال سليمان بن حمّودة، خليفة القطار في ساحة عسيلة مقابل دار العسكري بقفصة في 2/13/ 1952 من طرف أحد قياديّي المقاومة المسلحة من عصابة لزهر الشريطي[35].

ويمثّل شيوخ التراب أكبر عدد من "الخونة" الذين وقعت معاقبتهم من الإدارة المحلية المتعاونة مع الإستعمار إذ كان الشيوخ الأداة المباشرة في قمع الأهالي وابتزازهم ومراقبتهم والوشي بهم لدى السلط الأمنية كما كانوا يستغلّون نفوذهم للاستثراء على حساب السكان ويمارسون كل ما هو سبب للنقمة والتمرّد من الرشوة والمحسوبية خاصة في مناسبات جمع الضرائب والقرعة لخدمة الجيش وتوزيع المؤن والألبسة[36]. وقد أحصينا 6 شيوخ رموا برصاص الوطنيين : 3 قتلوا و3 جرحوا. وقد قتل شيخ منزل كامل البشير بن الحاج أحمد الوسلاتي السافي (1952/11/1) في هجوم عليه في مقر المشيخة وشيخ الشابة الهاشمي بن نصر بن الحاج عمر والمختار شيخ سيدي عبد الشاكر (المهدية) في 1953/5/19 [37]. أمّا الشيوخ الذين تعرّضوا لمحاولة اغتيال لكن نجوا وخرجوا بجروح بليغة هم : محمد زيان الشيخ القديم للبقالطة (1953/3/19) وشيخ قفصة بشير بن الطاهر بن تصيب (1953/6/11)[38]. وقد مثّل النصف الثاني من 1953

---

[34]– المصدر السابق (*Liste nominative...*). ويذكر المقيم العام في تقريره لشهر ماي 1953 أن هذا الكاهية "كان يقوم بدور قائد نابل وهو من ألمع أعوان سلك القياد وقد أثبت مدى ولائه لفرنسا في الفترة الإنتخابية" (S. 372, p. 848).

[35]– الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة**، الطبعة الثانية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (بدون تاريخ طبع)، ص. 180 وكذلك 13/2/1952 *Le Petit Matin* du.

[36]– ليس من باب الصدفة أن يقع اغتيال بعض أعضاء التموين الذين لهم علاقة بهذا الموضوع أيضا مثل عبد السلام بن يوسف العتري بحمّام سوسة 1952/4/27 ,« Liste nominative… » *op. cit.* وأمين التموين بمنزل تميم (1953/8/4) "تقرير المقيم العام" لشهر أوت 1953 (S. 372, D. 2, p. 865).

[37]– *نفس المصدر*.

[38]– أحصينا في الفترة الممتدّة من جويلية إلى ديسمبر 1953 : اغتيال 20 شخصا منهم فرنسي واحد ومن بين المقتولين 3 شيوخ وهم أحمد بلقروي (منطقة صفاقس) وشيخ السند (قفصة) وشيخ

وخاصة صائفة هذه السنة موسم الإغتيالات ذات الطابع السياسي وبالخصوص من الشيوخ[39].

أمّا المجموعة الأخرى فهي من المتعاونين الإداريين الذين تحدّوا أمر القوى الوطنية وخاصة الحزب الدستوري الجديد وقرّروا المشاركة أو شاركوا في انتخابات النوّاب لمجالس القيادات والبلديات لأفريل وماي 1953[40]. وقد استهدف 5 منهم للقتل وهم امحمّد بن الحاج خليفة بن امحمّد المطماطي كان انتخب نائبا معوّضا في مجلس قيادة الحامة ووقع اغتياله بخنقة عيشة رميا بالرّصاص في منزله (1953/5/21)[41]. ومحمد بن نصر بن عمر الميداسي نائب في القيادة من زركين (جهة مارث) اغتيل في بيت نومه من مجموعة مكوّنة من خمسة أشخاص (1953/5/27) وكذلك علي بن الحاج محمد بن رجب وهو نائب في القيادة أيضا، اغتيل في الحامة في 10 جوان 1953[42].

وقد طالت يد المقاومة شخصيات سياسية هامّة حيث تعرّض الدكتور بن رايس وزير التجارة في حكومة صلاح الدين البكوش لمحاولة اغتيال في شهر ماي 1953 بسكناه بمنوبة[43]. كما تمّ اغتيال شخصيتين أخريين كان لقتلهما صدى كبير وهما الطيب الغشام والشاذلي القسطلي. وقد تم اغتيال المحامي الطيب الغشّام رميا بالرّصاص عند خروجه من المحكمة في وضح النهار يوم 22 أفريل 1953[44]، وهو أخ للدكتور الغشام وزير الصحة العمومية آنذاك. ونظرا لمكانته الاجتماعية إذ هو من عائلة برجوازية في خدمة

بوفيشة ونجا شيخ مدينة تونس من محاولة اغتيال. (تقارير المقيم العام للنصف الثاني من سنة 1953 بـ (S. 372, D. 2).

[39]– نادي الدستوريون الجدد بمقاطعة هذه الإنتخابات وتوعّدوا المشاركين فيها بالعقاب. كما نادى بمقاطعتها كل من الشيوعيين والإشتراكيين. (تقرير المقيم العام لشهر أفريل 1953 بـ (S. 372, D. 2, p. 841).

[40]– "تقرير المقيم العام" لشهري ماي و جوان 1953 (S. 372, D. 2, p. 848, 855) و « Liste nominative… », *op. cit*.

[41]– *المصدر نفسه*.

[42]– "تقرير المقيم العام" لشهر جوان 1953 (S. 372, D. 2, p. 848).

[43]– *Le Petit Matin* du 23/4/1953.

[44]– تقرير المقيم العام لشهر ماي 1953، م.م.

الدولة وهو شخصيا من المترشحين للإنتخابات البلدية فإن رئيس الدولة الفرنسية ذاتيا ووزير خارجيتها بعثا بتعازيهما لأخ القتيل. وقد شيّع في موكب رسمي حضره جلّ ممثلي الوزارات والمديرين الفرنسيين[45] وقد تم بتهمة اغتيال الغشام إعدام كل من محمد بن الحاج مهنّى من صيّادة سنة 1953 وعامر بن حسين بن علي الجلاصي من قصر هلال سنة 1954[46].

أمّا الشخصية الثانية التي تمّ اغتيالها فهو الشاذلي القسطلي وكان ذلك رميا بالرصاص في تونس العاصمة صبيحة 2 ماي 1953[47]. وهو من عائلة برجوازية تونسية من أصل مملوكي وأحد مؤسّسي الحزب الإصلاحي في تونس وكانت مواقفه التي تدافع عنها جريدة "النهضة" التي يديرها، مناهضة للقطيعة مع فرنسا ومعادية للأفكار والمواقف التي يتبنّاها الحزب الحر الدستوري الجديد. وكان عندما اغتيل رغم تهديدات وتوعّدات الدساترة رشّح نفسه كرئيس قائمة في الإنتخابات للمجلس البلدي لتونس العاصمة حيث كان مستشارا منذ 1946 ونائب الرئيس الثاني لهذا المجلس منذ 1950. وكان اغتياله في 2 ماي، يوما فقط من موعد الإقتراع ذا دلالة خاصة[48]. وقد كان لاغتيال هذه الشخصية الوقع الكبير لدى السلط الإستعمارية حيث كانت تعتبره ممثلا "لتيار وطني" ومنافسا "للمغالين" لذلك وجّه جورج بيدو وزير الخارجية نفسه "تعازيه الحارة" في الفقيد للمين باي وكانت مراسم دفنه يوم 5 ماي بالجلاّز تعكس المكانة التي يحظى بها القسطلي حيث حضر تأبينه كل المسؤولين السياسيين من فرنسيين وتونسيين علـــى رأسهم الوزيـــر المعتمد لدى الإقـــامة العامة دوبواسّســـون (De Boissesson) ومدير ديوان الوزير الأول المهيولي وممثلي كل الوزارات. كما نشير لحضور زعيم الحزب الاستعماري بتونس أنطوان كلنّا (Antoine

---

45- "تقرير المقيم العام" لشهر أفريل 1953 (S. 372, D. 2, p. 841). يشير التقرير أن الباي لم يكلّف نفسه ببعث ممثل عنه لموكب الدّفن. ربّما يفهم من ذلك أن الباي قصد عدم تورّطه في مساندة سياسة حكومة مفروضة عليه.

46- *"السجل القومي..."، المصدر المذكور*، ص 96 و101.

47 - *Le Petit Matin* du 3/5/1953.

48- يتحدث تقرير الإقامة العامة لشهر ماي 1953 (S. 372, D. 2, p. 484) عن اكتشاف منظمة إرهابية وراء اغتيال هذه الشخصية وكذلك قائمة للمحكوم عليهم بالإعدام في حوزتها. لمزيد التفاصيل حول اغتيال القسطلي انظر : الحبيب قرار، **لتحيى تونس**، تونس دار بوسلامة، 1996، ص 100.

(Colonna) والدكتور ترمسال (Tremsal) نائب رئيس بلدية تونس وكذلك الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكي[49].

وكانت موجة الإغتيالات هذه وخاصة الاغتيالين الأخيرين بعثت الهلع في أوساط البرجوازية التونسية والمتعاملين مع الإستعمار عامة لأن التهديدات تعدّت مستوى الكلام والكتابة في المناشير وعلى الحيطان إلى مستوى القتل حيث نقرأ مثلا في تقرير للمقيم العام لشهر أفريل 1953 إثر اغتيال الغشّام : "ان مخاوف البرجوازية تحولّت إلى هلع عندما وقع اغتيال الطبيب الغشّام"[50]. وعلى إثر اغتيال القسطلي يشير المقيم العام إلى "أن موجة الإغتيالات التي استهدفت شخصيات إسلامية بعثت الرّعب والتأثر الشديد لدى البرجوازية وفي الأوساط المعتدلة"[51].

بقي أن نتناول الآن موضوعا آخر وهو كيفيّة إنجاز هذه الإغتيالات والاعتداءات في الجانب الفرنسي وتوزّعها الجغرافي على أنحاء البلاد.

IV- عمليّات الاعتداء في الجانب الفرنسي حسب نوعها وتوزعها الجغرافي

إن الجدول الرابع يبيّن بوضوح أن العمليات التي استهدفت الجانب الفرنسي كأفراد ومنشآت استعمل فيها أساسا الرّصاص والقنابل أي في 90 عملية على 166 وبنسبة تفوق النصف (54.21%) وفي الواقع إنّ تتبّع هذه العمليات واحدة بواحدة يبيّن –على عكس الإنطباع الأولي- أنّ الأسلحة الرائجة كانت بسيطة وهي عادة مسدّسات تستعمل خاصة في الإغتيالات الشخصية وفي المظاهرات ونادرا ما تستعمل الرشاشات ويكون ذلك بالخصوص في عمليات المقاومة المسلّحة ("الفلاقة") وهي أسلحة موروثة عن الحرب

49- *Tunis Matin* du 3/5/1953 . نشير أيضا أن دو بواسّون أشاد في تأبينه بخصال الفقيد واصفا إياه بـــ "المنظر لوطنية رصينة وبالشخصية المستقلة التي لم تجرفها عواطف الإنتماء وأن موته هو بمثابة استشهاد وإدانة ليس فقط لقاتليه بل لكل مظاهر التعصّب التي تريد أن تجرّ تونس نحو الإنقسام والصّراعات بين الأخوة" (*المصدر السابق*).

50 - S. 372, D. 2, p. 844.

51- تقرير المقيم العام" لشهر ماي 1953 (S. 372, D. 2, p. 848).

العالمية الثانية أو مغنومة عن الجيش الفرنسي وأحيانا أسلحة تقليدية تستعمل للصيّد[52]. وكذلك فإنّ القنابل المستعملة نادرا ما تكون قنابل حربية فهي مصنوعات حرفية.

كما إلتجأ الوطنيّون في محاربة المستعمر وعملائه إلى عمليات التفجير التي مثّلت 27.10% من مجموع العمليات التي تضرّرت فيها أرواح بشرية وتستعمل في هذه العمليات خاصة مادة الديناميت الذي يسرق من المناجم والمقاطع أو يتحصل عليه من البحارة وربّما في أواخر المرحلة النضالية سرّب من ليبيا[53]. ومن أكبر عمليّات التفجير التي جدّت في الفترة المدروسة عمليات محطة القطار بقابس والبريد المركزي بتونس والبنك التعاضدي التي سبقت الإشارة لها. نذكر كذلك الإنفجار الذي وقع في ممشى شارع جيل فريّ بتونس (1952/11/19) وتفجير مركز الشرطة بباب سعدون (1953/2/12) وتفجير مبنى للأشغال العمومية (1952/5/14)[54] وعديد العمليات التي استهدفت عمارات ومنازل مسكونة من فرنسيين أو تونسيين تقرّر معاقبتهم كما كانت "ديار العسكري"، كملتقى لقدماء المحاربين عرضة لاعتداءات عديدة.

وقد كانت عمليات تخريب السكة والتصدّي للقطارات والترام بالرّشق بالأجسام المشتعلة من العمليات التي التجأت إليها المقاومة بصورة كبيرة[55] حيث أحصينا في الستين يوما الأولى فقط من الإنتفاضة 58 عملية خرّبت فيها السكة الحديدية أو القناطر[56].

---

[52]– نشير كذلك تأكيدا لما ذكرناه أنه عندما وقع تسليم سلاح "الفلاقة" في أواخر 1954 على 2105 قطعة سلاح سلّمت أغلبها كان قديما حتى وإن خبّأ الثوار بعض الأسلحة الفعالة. راجع : « Le Néo-Destour face… », *op. cit.*, p. 380.

[53]– يتحدّث تقرير القيادة العامة للجيوش بتونس بتاريخ 25 جوان 1953 عن بعث مركز لتدريب المقاومين بليبيا قرب طرابلس بمكان يعرف بالمزرعة (Mezra) أو يشرف عليه صالح بن يوسف من القاهرة ويسرّب المقاومين المدرّبين والمحمّلين بالأسلحة لجهة قابس وقفصة (S. 369, D. 154, p. 29) غير أنّ المؤرّخ شارل أندري جوليان يستبعد وصول هذه الأسلحة من ليبيا. *المصدر المذكور*، ص. 168. انظر كذلك : "كمندوس فرحات حشاد"، في هذا الكتاب.

[54] - « Liste nominative… », *op. cit.*

[55]– إنّ العدد الوارد في الجدول IV يشمل فقط العمليات التي سقط فيها ضحايا من الجانب الفرنسي.

[56]– راجع بحثنا *المذكور*، ص. 160.

أمّا السلاح الأبيض فقد كان استعماله خاصة في المظاهرات ومشادات الشوارع ومثلت هذه الطرق 17.46% من العمليات التي أدّت إلى ضحايا في الصفّ الفرنسي. وكانت هذه الأسلحة متمثلة خاصة في السكاكين وشفرات الحلاقة والقوارير لرشق قوّات الأمن خاصة أو القطارات والتراموای والسيارات عند مرورها.

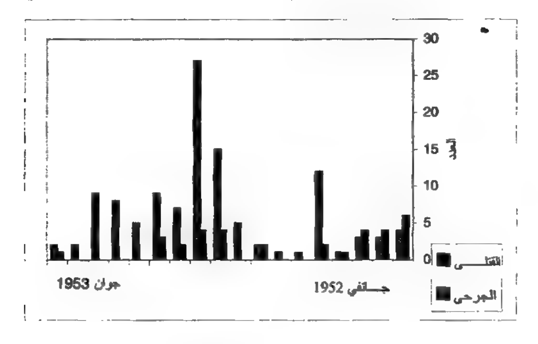
أمّا تنظيم العمليات بشريا فالعديد منها وخاصة الاغتيالات السياسية قام بها أشخاص فرادى أو مجموعات قليلة تنتمي خاصة لليد السوداء التي تردّد ذكرها كثيرا في تقارير الأمن وعادة ما تقع الاغتيالات بعد دراسة دقيقة للعادات اليومية للضحية وتحركاتها[57]. أمّا توقيت هذه العمليات خاصة الاغتيالات فجلّها وقع في وضح النهار وفي أماكن عمومية (شوارع، ساحات...) ممّا يدلّ على جرأة وشجاعة كبيرة لمنفّذيها. لكن العمليات التي نفذتها مجموعات "الفلاّقة"[58] خاصة بالجنوب والتي ذهب ضحيّتها عساكر تمّت تحت جناح الظلام لأنّ موازين القوى لا تسمح -بديهيّا- بالمجابهة المكشوفة.

الجدول IV : توزيع العمليات حسب نوع الاعتداء

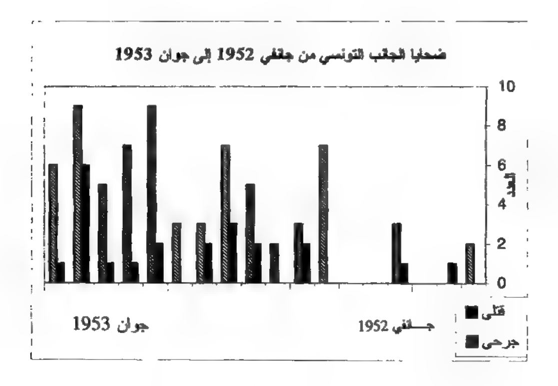
نـوع الإعتـداء	العدد والنسبة	
	النسبة	النسبة
- رمي بالرصاص أو القنابل	90	%51.21
- عملية تفجير	45	%27.10
- استعمال السلاح الأبيض	29	%17.46
- عمليات تخريب السكة الحديدية	2	%1.20
المجموع	156	%99.97

57- "تقرير المقيم العام" لشهر ماي 1953 (S. 372, p. 848).

58- أهمّها عملية ضدّ مركز البث الإذاعي بالجديدة (1952/10/10) وعملية كمين مدخل قابس (1952/11/16) وعملية واد بياش في مدخل قفصة (1952/12/3) وعملية طريق أمّ العرائس – قفصة 1952/12/13 وعملية كاف التوارق (1952/12/14).



قتلى وجرحى الجانب الفرنسي (جانفي 1952 – جوان 1953)



الجدول V : توزيع القتلى والجرحى حسب موقع الإعتداء

المــوقع	الضحــايــا	
	القتلــى	الجرحـــى
– جهة الساحل	10	101
– جهة تونس	19	25
– جهة قابس	8	17
– جهة قفصة	7	10
– جهة بنزرت	6	4
– جهة الوطن القبلي	1	8
– جهة القيروان	1	15
– جهة الكاف	1	2
– قعفور	1	
– أقصى الجنوب	1	3
– جهة سيدي بوزيد		2
المجموع	55	187

يبقى الوقوف عند توزّع هذه العمليات التي أدّت إلى ضحايا في الجانب الفرنسي والتي يلخّصها الجدول الخامس. حيث تأتي جهة الساحل في الرّتبة الأولى بـــ 10 قتلى و 101 جريحا ولا غرو في ذلك إذ كانت هذه المنطقة طيلة الفترة المدروسة في حالة غليان كبرى وكان الوعي السياسي شديد الإنتشار فيها وعرفت المقاومة المسلّحة ("فلاّقة" زرامدين) مبكّرا. وأشهر العمليات التي وقعت بـــالمنطقة مقتل العقيد ديرلند ومهاجمة مركز البوليس بـــالمكنين (1952/12/23) حيث قتل رئيس المركز وعونا شرطة واغتيل الغشّام وبعض مشائخ التراب. تليها جهة تونس بـــ 19 قتيلا و 25 جريحا، مع الملاحظ أن جلّ القتلى بتونس كانوا نتيجة انفجارات . ثم جهة قابس بـــ 8 قتلى و 17 جريحا وكانت أغلب العمليات من تنفيذ المقاومة المسلحة المنتمية إلى فرقة الطاهر الأسود[59]. تأتي بعدها جهة الوطن القبلي وخاصة منطقة منزل تميم وبني خيار حيث نفذ فيها عدد

[59]– راجع بحث عروسيّة التركي، **المــقاومة المسلّحة بجهة الأعراض (1952-1954)**، (مرقون)، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس 1، 88-1989.

كبير من التحركات والعمليات الخطيرة ذهب ضحيتها 9 في صفّ فرنسا. كذلك بقية جهات البلاد كان لها نصيبها من الضحايا إذا استثنينا جهات الجنوب الشرقي الساحلي والجنوب الغربي (الجريد ونفزاوة) وأقصى الشمال الغربي وربّما يعود هذا أوّلا لقلة الجاليات الأوروبية بهذه المناطق والتنظيم السياسي الوطني المتأخر فيها ولأن جل أراضي الجنوب كان شملها الحكم العسكري منذ بداية الإحتلال. كذلك جلب انتباهنا عدم سقوط ضحايا واغتيالات في شق فرنسا في صفاقس -باستثناء بلقروي- رغم كثافة النضالات وتنوّعها خاصة في المرحلة الأولى من الإنتفاضة (مظاهرات، مسيرات، إضرابات، تخريب السكة الحديدية وخاصة مولّدات الكهرباء...)[60].

في خاتمة هذا البحث تأمل أننا ساهمنا في تسليط أضواء ضرورية حول جانب من تاريخ تونس في الخمسينات يتعلّق بالجانب الفرنسي إن كانوا فرنسيي الجنسية، أو من التونسيين الذين وقفوا في صفّ فرنسا لأن مصالحهم اقتضت ذلك، أو عن قناعة سياسية واختيار واع، أو لأن ظروفهم المادية الصعبة جعلتهم يبيعون ضمائرهم ويتحوّلون إلى أدوات من بوليس وعساكر (خاصة من المخازنية والقومية) أو مخبرين لفائدة المستعمر ومهما يكن من أمر فإن تاريخ التعامل مع المستعمر (La collaboration) حقيقة تاريخية عرفتها كل الشعوب التي عاشت الإستعمار ومن الضروريات أن يقتحمها البحث التاريخي.

---

[60]- انظر البحث الأول في هذا الكتاب.

البحـــث الثالث :

أوروبيو تونس

والمقاومة المسلّـــحة في الخمسينات

أوروبيو تونس والمقاومة المسلّحة في الخمسينات

مثلت المقاومة المسلحة التي شبّت في تونس بداية الخمسينات خطرا حقيقيّا بالنسبة للجاليات الأوروبية وخاصّة للأقلية الفرنسية منها فلم يعد مستقبلها بالبلاد مهدّدا فقط بل أضحى أمنها وحياتها في خطر يومي. وتهدف هذه الدّراسة لمحاولة الكشف عن كيفيّة تعامل الأوروبيين والفرنسيين بالذات مع ذلك الوضع كهدف للعنف المسلح وردود فعلهم التي لم تبق في مستوى الإستغاثة بالسّلطة والتنديد بل انتقلت من موقع الضحية إلى موقع الهجوم لتقابل الإرهاب بالإرهاب. وقد تناولنا هذا الموضوع في المحاور التالية :

I- الوجود الأوربي ودواعي مقاومته ؛

II- الأوربيون هدف العنف المسلّح ؛

III- انعكاسات العنف على حياة الأوربيين وردود فعلهم.

I- الوجود الأوربي ودواعي مقاومته

تمثل الجالية الأوروبية في تونس رغم اختلاف جنسيّاتها وتنوّع شرائحها المهنية والإجتماعية أقليّة استعمارية متضامنة موضوعيا في الدّفاع عن مصيرها وضمان ديمومة سيطرتها وتميّزها في إطار النظام الكولونيالي. ونورد هنا كتدليل على ذلك الوضع المتميّز والمهيمن بعض المعطيات الكاشفة عن الوجود الأوربي في تونس في الخمسينات والتي تفسّر استماتة تلك الجالية في الدّفاع عن بقائها وتصادمها مع المجتمع التونسي.

وتفيد التقديرات الرّسمية بأن عدد الأوروبيين بتونس سنة 1948 بلغ ما مجموعه 248326 فردا مقابل 3.050.000 تونسي أي 8.14 % من مجموع السكان[1] وتتوزع

---

[1] إحصائيات أوردتها الإقامة العامة بتونس في 29 ماي 1950 في وثيقة بعنوان La colonie française en Tunisie موجودة بـ

QO. Série : Corresp. Pol.t. Et com. Tunisie 1944-1955, V. 728, ff. 12-25.

الجالية الأوربية حسب الجنسيات كالتالي : 160808 فرنسي، 76918 إيطالي و 10600 جنسيات أخرى (منهم 6400 مالطي)[2]. أمّا من حيث الأنشطة الإقتصادية فإننا نجد 8.5 % من الأوروبيين (بما فيهم أفراد عائلاتهم) في القطاع الفلاحي و 46 % في الأنشطة التجارية والصناعية والنقل و30 % في الأعمال الإداريّة و 15.5 % في المهن الحرّة وأنشطة أخرى[3].

وتجدر الإشارة هنا أنّ الجالية الإيطالية التي تأتي في الرّتبة الثانية بعد الفرنسيين ورغم إلغاء اتفاقيات 28 سبتمبر 1896 وذلك في 22 جوان 1944 وطرد حوالي 2900 إيطالي من تونس إثر الحرب فإنّ عددها بالبلاد عاد للإرتفاع ليبلغ 85000 في بداية 1955 [4] لكنّ وزنها الإقتصادي تراجع[5] كذلك وزنها السّياسي الذي كان في الواقع محجّما بفعل نظام الحماية ذاته ولصالح طبعا الجالية الفرنسية، هذه الجالية المتنفذة والتي كانت لا تفوق نسبتها 4.8 % من مجموع السكان سنة 1948 كانت تحتكر لوحدها 700000 هكتار من أخصب الأراضي وتمتلك 1/3 المباني والعقارات في المراكز الحضرية[6] وتقدّر سلط الحماية قيمة مجموع ممتلكات الفرنسيين بالبلاد التونسية سنة 1950 بمائة مليار فرنك[7]. لقد كانت الثروة الحقيقيّة في البلاد من حيث الإنتاج والإمتلاك والتمتع بيد الجالية الأوربية وأساسا الفرنسية[8].

---

[2] ن. م.

[3] « Réalités Tunisiennes » du 15 avril 1956.

[4] Note de Roger Seydoux du 10/1/1955. QO. Série Tunisie : 1950-1955, C. 419, f. 12.

[5] من ذلك أن الأراضي الفلاحية المملوكة من الإيطاليين كانت سنة 1939 مساحته 71000 هكتار تقلصت سنة 1948 إلى حدود 55000 هكتار. إضافة لفقدان عديد العقارات « La colonie française en Tunisie », op. cit. ff. 20-21.

[6] ن. م. ص. 22.

[7] م. م. ص. 23.

[8] من ذلك مثلا أنّ المعمّرين الأوربيين (حوالي 5 آلاف معمّر) أنتجوا سنة 1950 نسبة 52% من صابة الحبوب بينما لم يساهم الفلاحون التونسيون (حوالي نصف مليون) إلا بـــ 48% من مجموع الإنتاج، راجع

« Le peuple tunisien veut vivre libre et indépendant ». Mémoire présenté par le parti communiste tunisien à la 6 ème session de l'O.N.U. In Archives du QO. Série Tunisie 1944-1955, C. 362. f. 22.

وتسيطر الأقلية الأوربية على أهمّ الأنشطة الإقتصادية الأخرى صناعيّة ومنجميّة وتجارية وتحتكر الشركات الكبرى في تداخل مع الرأسمال العالمي أهمّ قسط منها وتحقق أرباحا طائلة في تناقض صارخ مع تأزم موازين الدّولة وبؤس المجتمع من ذلك أنّ شركة قفصة للفسفاط ربحت سنة 1950 ما قيمته 247.000.000 فرنك وشركة الجريصة (استخراج الحديد) 238.000.000 فرنك وشركة الضيعات الفرنسية 256.000.000 فرنك[9].

ويقوم نظام الحماية على سلب التونسيين سيادتهم على وطنهم إذ كانت السّلطة السياسية بيد الفرنسيين حيث يسيطر 10 آلاف موظف فرنسي على كلّ مقاليد الحكم والإدارة بالبلاد تاركين للتونسيين الوظائف الهامشية أو البطالة.

إنّ الأقلية الأوروبية بتونس كمجموعة استعمارية كانت تتمتّــع بامتيازات شتى وفي موقع مكّنها من السّلطة والثروة على حساب المجتمع الأهلي لذلك عملت على الدّفاع عن مكانتها وتبرير وجودها مفرزة خطابا استعماريا يقوم على الإدّعاء بحمل الحضارة إلى مجتمع "بدائي" "بدون تاريخ ولا لحمة" مكرّسة قيم التعالي وعلوّ العنصر ومحقرة لهويّة الأهالي وقيمهم لذلك كانت العلاقات بين الأوروبيين والتونسيين -كما هو الشأن في كلّ المستعمرات- تقوم على الإستغلال والإحتقار والنبذ والعنصريّة فلا وجود للمستعمر إلاّ بامتهان المستعمَر ولا تحرّر للمستعمَر إلاّ بنفي مستعبده. فالصّدام بين الطّرفين كامن أصلا في طبيعة النظام الإستعماري ذاته لذلك عملت الجالية الأوربية في كلّ الفترات التي هدّد فيها الأهالي وجودها على مجابهة الخطر بكلّ قوّة ومثلت الخمسينات أخطر تلك الفترات إذ كانت بمثابة نهاية المطاف حيث كان الطّرفان وجه لوجه وأضحى بقاء الأوربيين في تونس محلّ تساؤل فعلي. لذا رفضت الجالية الأوربية وبكلّ قوّة منح البلاد استقلالها غير أنّ درجات معارضة المسار التحرّري كانت أوضح وأعنف عند الفرنسيين من بقيّة الجاليات التي كانت ترى أنّ مصيرها مرتبط بالوجود الفرنسي فلم تعبّر عن معارضة قطعيّة بل كان موقفها يتميّز بالإستسلام للأمر الواقع وكان هاجسها الأساسي هو كيف سيكون مصيرها في النظام الجديد الذي سوف تفرزه المفاوضات التونسية الفرنسية آنذاك وهذا كان شأن الجالية الإيطالية مثلا[10].

---

[9] ن. م. ص. 13.

[10] لمزيد التفاصيل حول مواقف القوى السياسية الفرنسية في الخمسينات [illegible]

لذلك كان غضب التونسيين ونقمتهم أكثر حدّة على الفرنسيين من غيرهم واستهدفوا هم بالذات لعنف المقاومة المسلّحة بغية تحرير البلاد.

II- الأوربيون هدف العنف المسلّح ؟

في البدء سؤال يطرح نفسه :

1) هل كانت هنالك إيديولوجية للمقاومة المسلّحة ؟

إنّ المتتبّع لأدبيات الحركة الوطنية التونسية كتنظيمات وقيادات طيلة الفترة الإستعمارية للبلاد يلاحظ غياب إيديولوجيّة تحرّر تقوم على العنف المسلّح في تشابه مع مسار الأحزاب الوطنيّة بالمغرب الأقصى وحتى في الجزائر لأنّ جبهة التحرير الوطني فيها رفعت شعار الثورة المسلحة رغم الأحزاب وخارجها[11]. لقد كان تحرّر تونس حسب النخب القيادية الوطنيّة خارج حزب الدّستور (الجديد أو القديم) أو من ضمنه يمرّ عبر المقاومة الشرعية والقانونية واعتماد الطرق السّلمية لبلوغ الهدف دون استنكاف من استغلال مصادمات الشوارع أو بعض العمليات المسلحة المحدودة للضغط على الخصم وإعطاء إشهار أكثر للقضية. كانت القيادات الوطنية تعي نضالها ليس كمقاومة لفرنسا بل للنظام الإستعماري وتعي التحرّر ليس كنفي للآخر (الوجود الأوربي في تونس)، وطرد الأجانب منها بل كتغيّر في العلاقات القانونية والدّولية بين فرنسا وتونس حيث تسترجع هذه الأخيرة سيادتها دون قلب جذري للواقع القائم وتهجير للمستوطنين فيها[12]. لذا كانت فرنسا لا ترد في الخطاب التحرّري على أنها "العدو" بل كانت دائما توضع في مرتبة

« Les groupements politiques français de droite en Tunisie et la décolonisation, 1954-1956 »

وذلك ضمن أعمال الندوة العلميّة التاسعة التي نظمها المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية أيّام 8 و 9 و 10 ماي 1998 بتونس نشر معهد الحركة الوطنية، 1999. كذلك ضمن نفس الأعمال دراسة لحبيب كزدغلي :

« Minorités et communautés de Tunisie face à la décolonisation, 1955-1962 ».

[11] ليس هدف هذه الدّراسة القيام بمقارنة تفصيليّة للمقاومة الوطنية في المغرب العربي لكن لإبراز خصوصيات المقاومة في تونس وحدودها سوف نورد إشارات آنية للمقاومة المسلحة في المغرب وخاصّة الأقصى منه.

[12] إنّ جلاء الأوروبيين عن البلاد بعد 1956 أتى لأسباب وظروف أخرى لم تكن في الحسبان قبل ذلك.

الصّديق أو الخصم في الأسوء[13]. كما يغيب من ذلك الخطاب التحريضي العنصري ضدّ الأوربيين أو المناداة باضطهادهم أو تقتيلهم على عكس ما كانت تدّعيه تقارير البوليس ومحاضر الإتهام في محاكمات الوطنيّين. لم يكن التحرّر إذا في تصوّر القيادات الوطنية قضاء على الآخر وانتصارا عليه بل الوصول معه إلى وضع يرضي الطرفين تستعيد في إطاره تونس سيادتها وتحافظ فرنسا على مصالحها فيه. ثم بحكم تكوّن تلك النخب الوطنية وثقافتها القانونية (جلّ القياديين من الحقوقيّين) واقتناعها أن لا مستقبل لتونس خارج "الحضن" الفرنسي (عند الدّستوريين الجدد على الأقل) وإيمانها باستحالة مجابهة متوازنة للقوّة بالقوّة كان اختيارها للطرق السّلمية في التحرّر. كذلك وعيها بضرورة التأمين على مستقبلها السّياسي الذي سوف تهدّده لا محالة النخب الثورية المسلّحة التي لو انبثقت من الفئات الكادحة لنافستها في السّلطة بعد الإنتصار وربّما أدى ذلك إلى قلب للتركيبة الطبقيّة للمجتمع وفرض اختياراتها الإقتصادية وهذا ما كاد يحصل في تونس سنوات 1954-1962 [14]. لتلك الأسباب لم يقع رفع شعار المقاومة المسلّحة من القيادات الوطنيّة بل كان التأكيد دائما على القناعة بنجاعة الطّرق السّلمية وتجاهل مقاومي الجبال أو "إرهابيّي" المدن وحتى التبرّء منهم[15]. رغم ركوب المقاومة المسلّحة فيما بعد واستثمار تضحياتها.

إنّ الجماهير الكادحة هي التي تبنّت العنف والمقاومة المسلّحة كطريق للتحرّر وبعفويّة ودون استئذان من القيادات رفعت السّلاح في وجه الإحتلال مدفوعة بروح وطنيّة

---

[13] راجع مثلا في هذا الشأن.

DE COCK Laurence, « *La France et Bourguiba : 1945-1956* », in Actes du VIIIe colloque international sur : Histoire orale et relations tuniso-françaises de 1945 à 1962, la parole aux témoins, Pub. De l'ISHMN., 1989, pp. 75-84.

كذلك الكم الهائل من الخطب والوثائق الصّادرة عن دار العمل والمتعلّقة بالحركة الوطنيّة.

[14] كانت محاولة الإنقلاب العسكري في ديسمبر 1962 ضدّ نظام بورقيبة في اعتقادنا آخر محاولات التيار الشعبوي المنبثق عن حركة الفلاقة في فرض بديله.

[15] نذكّر مثلا بخذلان الحزب الدستوري الجديد لفلاّقة زرمدين (1948) وتبرئه من الهادي جاب الله الذي اغتال عز الدين باي (1953/7/1). (راجع تاريخ الحركة الوطنيّة، نشر دار العمل، الوثائق X ص 513 و الوثائق XIV ص 75 (النسخة الفرنسية).

غذتها سنوات طويلة من القهر والإستغلال والعنصريّة والغبن والشعور بامتهان الذات والهويّة والدّين[16].

لقد كان فقراء الأرياف خاصّة هم الذين جابهوا الإستعمار بالقوّة في البوادي التونسية أو التحموا معه في مصادمات المدن كفئات كادحة ومهمّشة أو حديثة العهد بالمدينة إذ كانت هذه الشرائح الإجتماعية تعيش الإضطهاد وعنف السّلطة في كلّ لحظة من حياتها فلم يكن لديها ما تخسر عندما تثور إلاّ أغلالها. فالعنف الثوري عندها هو ثأر للكرامة المهدورة وإثبات لرجولة انتقصت واستشفاء من عقد النقص وارتفاع بالذات إلى مستوى القيادة حسب عبارة فرانتز فانون[17].

إنّ وصول النضال السّياسي إلى طريق مسدود وفشل الطّرق السّلمية لإقناع فرنسا بضرورة منح تونس استقلالها وضع المقاومة المسلّحة كبديل وحيد للنصر وذلك خاصّة بعد مذكّرة الحكومة الفرنسيّة لـــ 15 ديسمبر 1951 الرّافضة لمطالب الحركة الوطنيّة والمقرّة للسّيادة المزدوجة والتي أتت في ظرفيّة تميّزت باحتداد الأزمة الإقتصاديّة وتدهور الوضع المعيشي لعامّة الناس في المدن وخاصّة في الأرياف نتيجة الجفاف وإجحاف الضرائب وغلاء الأسعار واستشراء البطالة. لقد عمّت البلاد خاصّة بعد اعتقال الزعماء في 18 جانفي 1952موجة من التمرّد والإصطدامات العنيفة مع القوّات الإستعمارية في جوّ من الإعتقالات الواسعة وعمليات التمشيط والزجّ بالآلاف في السّجون والمعتقلات[18].

---

[16] راجع مثلا شهادات الطاهر لسود والساسي لسود والساسي بو يحيى وغيرهم من المقاومين (مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة) كذلك الرّسالة الممضاة من 29 مقاوم والمؤرّخة في 21 جانفي 1954 والمرسلة للباي. أوردها الصياح بتاريخ الحركة الوطنية، الوثائق XIV، ص93. حيث يؤكد جل المقاومين أنهم رفعوا السلاح ليأسهم من الطرق السّلمية ولاقتناعهم "أنّ فرنسا لا تفهم إلا منطق القوّة" وإن لا ردّ على موجة الإضطهاد والإعتقالات وملاحقة المقاومين إلاّ السّلاح.

[17] FANON Frantz, **Les damnés de la terre**, Maspero, 1974, p. 52.

[18] من جانفي 1952 إلى 10 أكتوبر 1952 كانت حصيلة القمع حسب سلط الحماية : الحكم على 2306 شخص وإيقاف 2963 آخرين وأصدرت المحكمة العسكرية بتونس مجموعة 5075 سنة عقوبة بالأشغال الشاقة و13207 سنة سجن أو منع إقامة و9 أحكام بالإعدام. المصدر : مستند

وبتضييق الخناق على المدن إنكفأت المقاومة المسلّحة لتشتعل في الأرياف وخاصّة في الجنوب والوسط وتكوّنت عصابات المجاهدين بالجبال وتعززت صفوفهم بمرور الزمن واشتداد حملات الإيقافات ومطاردة الوطنيين[19]. ولم تخفت جذوة المقاومة إلاّ في أواخر نوفمبر 1954 بعد اتفاق الحكومتين الفرنسيّة والتونسية على نزع سلاح المقاومين. وقد استهدف الأوربيّون وعملاء الإستعمار طيلة هذه الفترة إلى عمليّات مسلّحة أضرّت بهم وبمصالحهم.

2) واقع العنف على الأوربيّين :

ليست غاية هذا العمل عرض كلّ العمليّات المسلحة التي استهدفت الجاليات الأوربية طيلة فترة المقاومة المسلّحة في الخمسينات بل فقط الوقوف عند خصائصها العامّة وأهمّ أحداثها كما أنّنا نسقط هنا من اهتمامنا المصادمات التي طرأت بين قوّات الجيش الفرنسي والمقاومين[20] لنحصر البحث في المدنيّين من الأوربيّين. وفي الواقع في الجالية الفرنسيّة لأنه نادرا ما استهدف غيرهم من الأوربيين لاعتداء إلاّ عرضا.

في حصيلة أوّلية استقيناها من أرشيف الجيش الفرنسي (القيادة العليا بتونس)[21].

وطيلة الفترة الممتدّة منذ اندلاع المقاومة المسلحة من جانفي 1952 إلى موفى سبتمبر 1954 (أي قبل توقف عمليات المقاومة بشهرين) تبيّن أنّ الجاليات الأوربية أو بالأحرى الفرنسية –لأنّ الأغلبية السّاحقة من الضحايا منها– خسرت 31 قتيلا و 120 جريحا من

تقدّمت به مصالح الإقامة العامة بتونس في 26 جانفي 1953 للجنة العالمية ضدّ نظام المحتشدات بـ :

« Livre blanc sur la détention en Tunisie », C.I.C.R.C., Les Editions du Pavois, 1953, p. 159.

[19] تقدّر مصالح وزارة الخارجية الفرنسية عدد المقاومين بالجبال في جوان 1954 بـ 1200 رجل. (Q.O. Série : Tunisie 1944-1955, C. 375. Note su 17/6/1954, f. 134).

[20] لمعرفة تفاصيل هذه الأحداث يمكن العودة لأطروحتي التركي وناصري المذكورتين.

[21] خاصّة من الوثيقتين :

- « Etat récapitulatif des français et Tunisiens tués et blessés du fait de l'action des insurgés », in S.H.A.T., Série : 2H Tunisie, C 2H. 154 et
- « Etat des attaques à main armée, actions terroristes, sabotages. Du 19 mars au 30 septembre 1954 », in Q.O., Série : Tunisie 1944-1955, deuxième partie : 1950-1955, carton 374.

المدنيّين[22]. وكان جلّ ضحايا سنتي 1952 و 1953 من سكّان المدن قتلوا أو جرحوا في انفجارات حدثت في منشآت أو عمليّات تخريب لوسائل النقل. بينما تميّزت سنة 1954 باغتيالات عديدة (عشرين)، إذ وقع اغتيال 8 معمّرين منهم خمسة في يوم واحد بجهة الكاف يوم 26 ماي 1954 وهم : الأخوين بسّاد (Bessède) وثلاثة من عائلة المعمّر بلمبيري (Polombiéri) [23] وكان لهذه الإغتيالات الأثر الكبير في وسط الجالية الفرنسيّة. أمّا أهمّ العمليّات بالمدن فكانت عمليّة إطلاق الرّصاص على زبناء مقهى "بون أكّاي" بطبربة (1954/6/29) حيث قتل فرنسي وجرح 5 آخرين وكذلك الهجوم يوم 10 جويلية من نفس السّنة على مقهى بفرّي فيل (منزل بورقيبة) وعلى حافلة وإطلاق الرّصاص على من فيهما وكانت الحصيلة مقتل 4 أوربيين وجرح 15. والواقع أنّ نقمة المقاومين كانت تنصبّ أكثر على أعوان الأمن من جندرمة وبوليس أمّا استهداف المعمّرين للإعتداء خاصّة في الفترة الممتدّة بين ماي وجويلية 1954 فكان لوعي المقاومين بأنّ هذه الفئة من الإستعماريّين هي الأكثر عداء لمطالب التونسيين وأنه يوجد من بينها عديد النشطين في صلب "اليد الحمراء" إضافة لأنّ ضيعات المعمّرين كانت معزولة نسبيّا وأقلّ حماية على عكس كثافة دوريات الأمن والمراقبة بالمدن والمراكز الحضريّة.

وفي الفترة الممتدّة بين 19 مارس (مع استئناف المقاومة المسلحة بعد ركود دام منذ قدوم فوازار في سبتمبر 1953) و 30 سبتمبر 1954 سجّلت المصالح الأمنية 35 اعتداء على حافظي الأمن و 16 اعتداء على عساكر فرادى و 36 مصادمة مع قوّات الجيش و 114 اعتداء على أشخاص و 16 اختطافا و 21 عمليّة ابتزاز[24].

غير أنّ عمليّات المقاومة كانت تهدف أيضا لجعل "الحياة مستحيلة" بالنسبة للإستعماريين في تونس بترعيبهم وبث الإضطراب وانعدام الأمن في نفوسهم بالإغتيالات

---

[22] لنفس الفترة كانت الحصيلة من الضحايا في صف قوات الأمن والجيش : 48 قتيلا و 104 جريحا.

[23] وقع اغتيال هؤلاء المعمّرين كردّ فعل على اغتيال الأخوين علي والطاهر حفوز بسيدي علي بن نصر الله من اليد الحمراء. ونفذت العملية عصابة الساسي لسود (انظر شهادته بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة).

[24] تقرير القيادة العليا المشتركة للقوّات الفرنسية بتونس (1 أكتوبر 1954)، و.خ.ف.، سلسلة تونس 1944-1954 (ج. 2) صندوق 774، الورقة 72.

والتهديد المكتوب والشفوي وخاصّة بشلّ الحركة الإقتصادية بالبلاد وذلك بتخريب وسائل النقل والإيصال خاصّة بقطع خطوط وأعمدة الهاتف وتخريب السكّة الحديدية[25]. ورغم الحراسة فإنّ طيلة الفترة المدروسة ويوميّا تقريبا كانت تحدث عمليات تخريب الهاتف في كامل تراب البلاد. كما سجّلنا أكثر من 70 عمليّة تخريب و 4 هجومات خطيرة على قطارات أوّلها في 12 مارس 1952 حيث وقع تفجير محطّة القطار بقابس في وضح النهار وقتل رئيس المحطّة و 7 آخرين في الحادث. كما تعرّض يوم 20 مارس 1954 القطار الرّابط بين سبيطلة والقصرين إلى هجوم أسفر عن 3 جرحى وهاجم الثوّار قطار الرديّف–المتلوي بالثالجة في 9 ماي 1954 (جرح عسكريّان) ثم في 30 ماي وقعت مهاجمة قطار قفصة بقنطرة القويفة. كذلك وقع تفجير عديد القناطر خاصّة بجهة الأعراض كما لم تسلم وسائل النقل الأخرى بالمدن إذ كثيرا ما تعرّضت القطارات وعربات الترامواي والحافلات للحرق والرّشق بالحجارة والرّصاص خاصّة في الأشهر الأولى من سنة 1952 [26].

وللإضرار بالمصالح الإقتصادية الأوربية بالبلاد وإخضاع الجانب الفرنسي تعرّضت المنشآت والمباني العمومية والخاصّة إلى أكثر من 40 عمليّة تخريب كانت أهمّها عملية بالمتفجّرات ضد بنك الجزائر بسوسة (1952/2/19) وتفجير البريد المركزي بتونس (4 قتلى و 9 جرحى) وتفجير مبنى الأشغال العموميّة بالعاصمة (1952/5/14) كما تعرّضت مراكز البريد في عديد الجهات إلى هجومات مماثلة واستهدفت مولّدات الكهرباء بصفاقس وقابس وسوسة لعديد عمليات تخريب.

كما جدّت في سنة 1954 خمسة هجومات على مناجم خاصّة بجهة الكاف تمّ الإستيلاء فيها على بعض الأسلحة وتخريب بعض المنشآت وكان أهمّها الهجوم على منجم قرن الحلفاية (جهة الكاف) (1954/9/24) الذي نفذته عصابة يقودها الساسي لسود[27] وقتل في هذا الهجوم رئيس الحامية. إضافة لهجومات عديدة على مراكز الحراسة في الغابات ومراكز البوليس والجندرمة وثكنات الجيش.

---

[25] لمزيد من التفاصيل راجع البحث "ضحايا الجانب الفرنسي نتيجة أعمال المقاومة في تونس من جانفي 1952 إلى جوان 1953" المنشور هنا.

[26] راجع البحث : "ستون يوما من النضال الشعبي بتونس من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952".

[27] شهادة السيّد الساسي لسود بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

كما ذكرنا سابقا كان المعمّرون محلّ نقمة المقاومين أكثر من غيرهم لأنهم يجسّدون في نظرهم استعمار الأرض واغتصاب الحق خاصّة وأنّ المجاهدين جلّهم كانوا من الفلاحين الفقراء أو المبلترين الذين ذاقوا الأمرّين من عنجهيّة واستغلال هؤلاء السّالبين للوطن[28] لذلك تعرّضت ضيعاتهم منذ بداية المقاومة المسلّحة إلى هجومات المقاومين وإن لم نسجّل طيلة سنتي 1952 و 1953 إلاّ 6 عمليّات فإنّ ربيع وصيف 1954 وخاصّة أشهر الحصاد منها شهدت 39 هجوما[29] على ضيعات المعمّرين خصوصا بالشمال (جهة الكاف، سليانة، مجاز الباب، بنزرت...) تمّت في أغلبها عمليات إتلاف للمنشآت من آلات فلاحيّة وحرق المحاصيل. وتورد إحصائيات 1954 أنه وقعت 16 عملية حرق محاصيل فلاحية من إشعال النار في الزرع إلى حرق المنادر وقطع الأشجار وإتلاف مخزونات العلف نذكر هنا عمليّة حرق 21 هكتارا من الزرع بضيعة معمّر بسيدي مطير (1954/6/20) وحرق 600 بالة قرط قرب طبرقة (1954/6/21)، وحرق 21 هكتارا من القمح بضيعة بلفيزي (Belvisi) بالمحمدية (1954/6/22) وفي نفس اليوم حرق 8 هكتارات من الحبوب في ضيعة قرب قنطرة الفحص وفي نعسان حرق 300 قنطار من القرط على ملك المعمّر بنتو (Bontoux) وفي كرتفيل (قرب تونس) تمّ حرق 500 قنطار من القرط وفي آبّة قصور تمّ قلع مغروسات للمعمّر رونو (Renaud) (3/8/ 1954)...[30].

---

[28] للتأكيد على طبيعة العلاقة بين المعمّرين والمقاومين راجع مثلا شهادات كلّ من القائد محمّد جليلة وعمر الصغير البرقاوي وبلقاسم قرف بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية وما هو دال أيضا أنّ الثوّار علقوا على جثث معمّري جهة الكاف أوراقا تحمل شعارات ضدّ الإستعمار الزراعي الذي حرم التونسيين من أراضيهم (تلغرام من الإقامة العامّة في 1954/5/27. Q.O.S. Tunis 1944-1955 C. 729)

[29] الوثيقة المذكورة : ' « Etat des attaques à main armée… » أهم هذه الهجومات كانت على ضيعات بسّاد (Bessède) وبلمبيري (Palombiéri) (1954/5/26)، ضيعة هورون (Horn) (1/ 1954/6)، ضيــــعة ميزارت (Muzart) (1954/6/3)، ضيعة دسكالا (Discala) (1954/6/9)، ضيعة السويسري ليجون (Lugeon) (1954/6/13)، ضيعة بنتو (Bontoux) بنعســـان (29 /1954/6)، ضيعة جردوك (Giradoc) (1954/7/16)، ضيعة ديدون (Didone) بباجة (7/23/ 1954)، ضيعة كسطا (Costa) (1954/8/12) ...

[30] ن. م.

وفي الواقع لو قيّمنا حجم الخسائر في الأرواح والممتلكات في الجانب الأوربي نتيجة أعمال المقاومة لتبيّنت لنا طفافتها بصورة عامّة وضعفها مقارنة بأضرار الجانب التونسي ففي حصيلة أوّلية نقدّمها ورغم النقص في المصادر المتعلّقة بنتائج الأحداث لبعض الأشهر (من جويلية 1953 إلى فيفري 1954 وهي فترة ركود للمقاومة) وشهريْ أكتوبر ونوفمبر 1954 (حيث تمّت معاركة عنيفة بين المقاومين والجيش الفرنسي) أحصينا 86 قتيلا و 224 جريحا من بين الفرنسيين مدنيّين وعسكريّين لكامل الفترة من جانفي 1952 إلى نوفمبر 1954 (لم يقتل من غيرهم إلاّ إيطالي وسويسري) نضيف إلى ذلك التونسيين الذين كانوا في صف فرنسا كقوّات أمن وعساكر أو عملاء توردهم التقارير الرّسمية "كأصدقاء لفرنسا" حيث قتل منهم مجموع 92 وجرح 133[31] لكامل الفترة أيضا وهي لعمري خسائر طفيفة حتى لو أضفنا لها بعض العشرات التي سكتت عنها التقارير.

فما نستنتجه من هذه الحصيلة هو ضعف المقاومة المسلّحة في تونس تنظيما وعدّة وممارسة كذلك الطابع السّلمي الذي ميّز المقاومة الوطنيّة عامّة ثم أنّ العمل المسلح أوقف في مرحلة بداية انتشاره وعنفوانه لحسابات سياسيّة واستراتيجيّة تخصّ فرنسا. فلو قاربنا حالة المقاومة المسلّحة التونسية ومثيلتها بالمغرب الأقصى للاحظنا تميّز هذه الأخيرة بالشمولية إذ عمّ نشاطها كامل التراب المغربي وبالقدرة التنظيمية والنضج التنفيذي حيث تعدّدت التنظيمات "الإرهابية" في كامل المدن تقريبا وانبنى جيش تحرير وطني فعلي وسجّلت حركة المقاومة المسلّحة معارك كبيرة نذكر هنا منها أحداث وادي زم التي جدّت في 20 أوت 1955 والتي كانت انتفاضة عارمة على الأوربيين بالمدينة ومحيطها وأدّت إلى مقتل 49 من الأربيّين واستشهاد ما بين 200 و 300 من المغاربة كذلك أحداث خريبقة (21 أوت) والتي أحرقت فيها منشآت تابعة للمكتب الشريف للفسفاط قدّرت خسائره بحوالي مليار فرنك[32] وهذا لم يحدث مثلا في الحوض المنجمي بقفصة رغم تركّز عصابات المقاومين هنالك.

---

[31] - « Synthèse des événements tunisiens depuis le 10 janvier 1952 » du 25/6/1953. C.S.T.T., In S.H.A.T. 2HT., C. 154, D1 et « Etat des attaques à main armée… » op. cit.

[32] حول هذه الأحداث راجع مقال : "انتفاضة 20 غشت 1955 بوادي زم : الجذور والواقع" لخالد بن الصغير ضمن ندوة المقاومة المغربية ضد الإستعمار (1904–1955)، نشر المندوبية

ما يبرز أيضا من حصيلة المقاومة المسلّحة التونسية إضافة لضعف الخسائر الملحقة بالطرف الآخر هو أهمّية عدد التونسيين الذين تضرّروا وكانوا في صفّ فرنسا وخاصّة من المدنيّين الذين تعرّضوا لمحاولات القتل أو الإغتيال وقد أحصينا طيلة الفترة المدروسة مقتل 92 تونسيّا وجرح 133 [33] كان أكبر عدد منهم من أعوان الأمن والإداريين المتورّطين مع السّياسة الإستعمارية والمخبرين[34]. كما أنّ أكبر نسبة من الذين قتلوا في صفّ الجيش الفرنسي كانت من عناصر القومية والمخازنية التونسيّين. إنّ اغتيال "الخونة" أكثر من العناصر الأوروبية كان سمة للمقاومة المغربية كذلك[35]. وكان ينظر للعناصر التي صفيت "كخونة للوطن والدّين" إضافة لممارسات الإبتزاز والإستغلال والإرتشاء لهؤلاء المتعاونين فقتلهم كان ثأرا طبقيّا ووطنيّا. لقد كانت الغاية من القضاء عليهم أيضا هي خلق فراغ حول الإدارة الإستعمارية وتعطيل قدرتها في السّيطرة على الوضع وتصريف الشؤون العامّة وهو ما كان له فعلا الأثر الكبير على الإدارة الإستعمارية وفي نفوس الأوروبيّين.

السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 1991، ص.ص. 374 - 336، ص. 369 وحول المقاومة المغربية المسلّحة عامّة عن نفس المؤسّسة سلسلة الندوات :

- تاريخ المقاومة المسلّحة والحركة الوطنيّة في المنطقة الوسطى الجنوبيّة 1908-1955، الرّباط، 1992.
- دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب، الرباط، 1995.
- المقاومة بإقليم خريبكة 1912-1956، الرّباط، 1993.
- المقاومة في المغرب الشرقي، الرّباط، 1994.
- المقاومة المسلحة والحركة الوطنيّة بالمنطقة الوسطى الشمالية ما بين 1911-1956 ، الرّباط، 1997.

[33] Synthèse des évènements…op. cit. et Etat des attaques…op. cit.

[34] لمزيد التفاصيل حول تصفية هؤلاء المتعاملين مع الإستعمار راجع مقالنا المذكور : "ضحايا الجانب الفرنسي…".

[35] Charles-André JULIEN, **Le Maroc face aux impérialismes, 1415-1956**, Editions J. A., Paris 1978, p. 337.

III- انعكاسات العنف على حياة الأوروبيين وردود فعلهم

1) أقليّة في خطر :

يقول تلغرام من الإقامة العامّة بتاريخ 9 جويلية 1954 : "إنّ الإعتداءات الأخيرة[36] ثبتت أكثر هوس الخوف لدى الأوروبيين الذين أضحوا لا يجسرون على التوغل في الأحياء الإسلاميّة وأنّ الأسواق مهجورة والطرق في الأرياف قليلة الإستعمال وأنّ موسم الحصاد قد انتهى في ظروف طيّبة تحت حماية الجيش. ويتساءل قسم من معمّرينا هل أنّهم سيعودون في الخريف القادم أم لا. إنّ بعض الملكيات معروضة للبيع على صفحات الجرائد وإنّه يخيّم جوّ ثقيل من الترقب عند الفرنسيين"[37].

تلخص هذه الفقرة في الواقع الحالة النفسية التي كانت عليها الجالية الأوربية في تونس منذ اندلاع الأحداث في جانفي 1952 والتي ما فتئت تتدهور على وقع العمليات الإرهابية التي كانت تنفذها عصابات المقاومين في الأرياف والمدن والتي كان ضحاياها مثل ما ذكرنا آنفا من الفرنسيّين والمتعاونين معهم من التونسيّين. فموجة الإضطرابات التي عمّت المدن في الأشهر الأولى[38] والجرأة التي أبداها المقاومون في عمليّاتهم ومصادماتهم مع قوّات الأمن والجيش حطمت كابوس الخوف عند المناضلين وغرسته في الجانب المقابل وتفيد التقارير الأمنية كلّها حالة الفزع والغليان التي أصبح عليها الفرنسيّون بالخصوص. إنّ الشعور بانعدام الأمن خاصّة منذ مارس 1954 أصبح السّمة الرئيسيّة لدى الأوربيّين وتخوّفهم على مستقبلهم ومصالحهم في البلاد ما فتئ يتزايد لا سيّما وأنّ الأوضاع الإقتصاديّة زادت تردّيا. نقرأ في لائحة ممضاة من الأحزاب الفرنسية ببنزرت بتاريخ 4 نوفمبر 1952 : "إنّ حالة انعدام الأمن والرّجة النفسية تلقيان باطّراد

---

[36] إغتيالات معمّري جهة الكاف 1954/5/26، اغتيال عونيْ جندرمة بالعاصمة (1954/6/24)، إطلاق النار على زبناء مقهى روّادها من الفرنسيّين بطبربة (1954/6/29)...

[37] تلغرام من المقيم العام بتاريخ 1954/7/19.
Q.O. Série : Tunisie 1944-1955. Deuxième Partie, C. 375, f. 175.

[38] سجّلنا من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952 : 60 مظاهرة مع مشادات مع البوليس، 9 إضرابات عمّالية ذات طابع سياسي، 111 يوم إضراب من المهنيّين والتجّار وطلبة الزيتونة، 140 اعتداء بالسّلاح والأجهزة المحرقة على وسائل النقل ومراكـــز الأمن والإدارات الرّسمية، و209 عمليّة تخريب للسّكك الحديدية وخطوط الهاتف والقناطر... راجع البحث "ستون يوما ...".

بدمارهما على الإقتصاد : ركود الأعمال، توقف المبادلات والإستثمار وبرامج الأشغال الجديدة واستشراء البطالة"[39]. كما أنّ عمليّات التخريب أضرّت مباشرة بمصالح الأوربيين إذ تعدّدت الإعتداءات على عربات النقل والقطارات والمغازات والمقاهي والضيعات... وتعطّل العمل في عديد المناجم والأراضي الفلاحيّة. وتضرّر عديد التجّار وأصحاب المطاعم والمقاهي لانعدام الأمن ولأنّ المقاومين رفعوا منذ جوان 1954 شعار مقاطعة وسائل النقل العموميّة وقاعات السّنما والمقاهي الأوربية والإمتناع عن التدخين وشرب القهوة والشاي ومقاطعة السّلع الأوربية ورفض الخدمة في ديار الأوربيّين[40].

إنّ موجة الإغتيالات التي استهدفت المتعاملين مع الإستعمار (6 شيوخ تراب وكاهية وخليفة ومستشار بلدي ومحامي ومستشارين في مجلس القيادة...) ومحاولة اغتيال وزير التجارة الدكتور بن رايس في وزارة صلاح الدين البكوش وكذلك محاولة قتل الوزير الأكبر محمّد الصالح مزالي وغيرهم كلّها عمليّات بثّت الرّعب في نفوس المتعاونين الذين يعتبرون ركيزة الإستعمار في البلاد وأداته للسّيطرة على المجتمع الأهلي فانشلـّت بذلك الإدارة الأهليّة على مستوى الحكومة والسّلط المحليّة وأحجم عديد القيّاد والكاهوات والشيوخ على القيام بدورهم إمّا خوفا من أسلحة "الفلاّقة" أو تأمينا على المصير القادم[41] ممّا خلق فراغا حول الإدارة الإستعمارية والجالية الأوربية. وكانت الإغتيالات في صف عناصر البوليس من التونسيّين والمخبرين والتهديدات التي تصلهم ضربة أخرى لأمن الأوربيّين ونجاعة الإدارة الإستعمارية إذ تفيد التقارير المختلفة أنه أصبح من الصعب التحصّل على وشايات ومعلومات تخصّ المقاومين وأنّ أعوان الأمن من التونسيين أصبحوا يتذرّعون للقيام بالواجب. نقرأ مثلا في تقرير مصلحة مراقبة التراب إثر زيارة تفقد إلى سوسة ما يلي : "إنّ المفتّشين التونسيين متأثرون شديد التأثر نتيجة رسائل التهديد

---

[39] لائحة ممضاة من التجمّع الفرنسي والحزب الراديكالي والحركة الشعبية الجمهوريّة والحزب الإشتراكي والحجرة التجارية والنقابات... Q.O. Série, Tunisie 1944-1955. Deuxième partie, C. 729, f. 235.

[40] Télég. Voizard, 9/6/1954. Q. O. Série Tunisie 1944-1955, Deuxième Partie, C. 375, f. 121 et Note de la Direction d'Afrique-Levant du 17 juin 1954, même source, f. 134.

[41] A. Souyris, « Le Mouvement Fellaga tunisien. Expression d'une révolution sociale », (30 novembre 1955) , Etude publiée par la Revue « **Rawafid** », n°2, 1996, p. 162.

بالقتل التي وصلتهم وأنّ تكرار وصولها نمىّ أكثر فيهم الرّعب الذي سكنهم منذ اغتيال اثنين من زملائهم وعديد المخبرين. وشعر كلّ مفتش تونسي أنه سوف يكون الضحيّة القادمة للمتمرّدين. إنّ هذا الخوف يشلّه ويرهقه فهو يغادر منزله عند طلوع النهار ويمكث طيلة اليوم بالمكتب ولا يغادره إلاّ في المساء مخفورا بزملائه الفرنسيين في سيّارة العمل وذلك قبل اللّيل[...] إنّهم يطالبون كلّهم بنقلهم من سوسة والبعض يفكّر في الإستقالة إن لم يلبّ "طلبه"[42]. وقد عبّرت "فدرالية النقابات المستقلّة للبوليس التونسي" عن نفس التخوّفات في عريضة رفعتها إلى المقيم العام بتاريخ 4 سبتمبر 1953 وتطالب فيها بوضع حدّ لعمليات الإغتيال وتشديد العقاب على "المتمرّدين" والتسريع بتنفيذ الإعدام في المحكوم عليهم[43].

وحتى العمّال الفلاحيّين انفضوا من حول مؤجّريهم من المعمّرين خوفا من تهديدات "الفلاّقة" [44] أو قناعة بالعمل الوطني.

إنّ التهديدات والإغتيالات وانعدام الأمن عامّة زاد من عزلة الأوربيّين وأشعرهم أنهم محاطون بعالم يبغضهم فأثر ذلك في حياتهم النفسية والمادية وفرض الحدّ من حريّة الحركة والتنقل خاصّة بالنسبة للمعمّرين وأجبرهم إمّا على ترك ضيعاتهم (صائفة 1954) وتهريب زوجاتهم وأبنائهم إلى المدن[45] أو العيش تحت حماية الدبابات وفرق القومية[46] أو مغادرة البلاد نهائيّا. لكن رغم رعب الأوربيين وسيف الإرهاب المسلّط على رؤوسهم

[42] Rapport du Commissaire Divisionnaire, Chef du Service de Surveillance du Territoire Elbling du mois d'août 1953. Q.O. Série Corresp. Pol. Et com. C. 353, f. 316.

[43] Q.O. Série : Tunisie 1944-1955. Deuxième Partie, C. 356, f. 30.

[44] Note du 17/6/1954. In Archives du Q. O. Série Tunisie : 1944-1955, Deuxième Partie, C. 356, f. 141.

[45] ACHOUR Habib, **Ma vie politique et syndicale 1944-1981**, Alif, 1989, p. 37.

[46] على إثر اغتيالات ماي 1954 كثفت السّلط الإستعماريّة من المراقبة في الأرياف والطرقات والإستطلاعات الجويّة وبعثت "مجموعات الدّفاع" وعززت من "الوحدات الترابيّة" وأسكنت كلّ ضيعة معمّر فرقة مسلحة من القوميّة والجيش للحماية وحمت موسم الحصاد بالدبابات بتنظيم عمليّة ...« Opération moissonneuse-batteuse ».

فإنّهم ما انفكّوا طيلة الخمسينات يصارعون لمجابهة الواقع ووضع حدّ للخطر الذي يتهدّدهم.

2) من فرض سياسة القمع إلى الإرهاب المضاد :

تحركت الجاليات الأوربية وهنا خاصّة الفرنسيون للدفاع عن مصالحها ومجابهة الوضع المتأزم وكان ردّهم الوحيد المطالبة "بالقمع والمزيد من القمع" وتجنّدت التنظيمات المهنية والسياسية لإفشال كل سياسات التفاهم مع الوطنيّين ورفض الخضوع لسياسة التخلّي عن الإستعمار التي دشنها عمليّا رئيس الحكومة الفرنسية منداس فرانس منذ جويلية 1954 واعتبارها "خيانة وطنية" وجبنا يجب مجابهته[47].

لقد انبرت الصّحف الإستعمارية والتنظيمات الفرنسيّة وخاصّة "التجمع الفرنسي" الممثل الفعلي لأغلب فرنسيي تونس لمباركة موجة القمع التي جابه بها المقيم العام دو هوتكلوك المقاومة الوطنية من جانفي 1952 إلى أوت 1953 بمساعدة الجنرال قرباي (حملات الإعتقالات الجماعية، سجن الآلاف وإبعاد المئات، المحتشدات، المحاكمات العسكرية،عمليات التمشيط والترعيب، الإعدامات...). وكانت حجّة الناطقين باسم الفرنسيّين إن "دعاة الفوضى" يمثلون قلّة وأنّ أغلب الأهليّين موالون لفرنسا ومسالمون ثم أنّ "نفسيّة العربي لا ترهب إلاّ القوّة" أمّا الأقلية من القيادات فهم "ناكرو جميل" و "انتهازيّون" وشرذمة من "الفاشيّين"[48].

لكن سياسة المقيم العام الجديد بيار فوازار (عوّض دو هوتكلوك) الليبراليّة نسبيّا[49] لم ترض الجالية الفرنسية وثارت ثائرة تنظيماتها السّياسية خاصّة بعد الإفراج على عديد المسجونين وصدور عفو على 19 شخص محكوم عليهم بالإعدام. إنّ فشل إصلاحات فوازار لـــ 4 مارس 1954 وعودة الإضطرابات من جديد بعدما هدأ الوضع نسبيّا نتيجة

---

[47] حول مواقف التنظيمات الفرنسيّة من سياسات حكومات المتروبول راجع مقالنا المذكور : « Les groupements politiques »...

[48] يكفي لأن نعود لأي صحيفة استعماريّة في الخمسينات لنجد هذا الخطاب.

[49] بالفعل اتخذت عدة إجراءات للتهدئة أهمّها : رفع الرّقابة على الصّحف، إعادة مهمّة الأمن من الجيش للسّلط المدنية، السماح لـــ 120 مبعد بالعودة وإطلاق سراح 227 مسجون والتخفيظ من العقوبات لـــ 1333 آخرين وخاصّة صدور عفو رئاسي على 19 شخص محكوم عليهم بالإعدام.
(Télég. Voizard du 31/3/1954. Q.O. Série T. 1944-1955. Deuxième partie, C. 374, f. 57).

الإعتقالات وضربات قوّات الأمن والجيش للمقاومة عزّز القناعة عند الفرنسيّين أن لا حلّ إلاّ القوّة وأنّ الضعف "لا يخدم إلاّ مصالح الأعداء" نقرأ مثلا في إحدى منشورات أحد التنظيمات الفرنسية المتطرّفة الفرنسية هذه الفقرة : "عند مغادرة دو هوتكلوك البلاد كان حزب الدّستور عمليّا محطّما ولم يبق من الفلاّقة إلاّ 150 في أقصى الجنوب، كان يجب القضاء عليهم مباشرة لكن ذلك لم يحدث لأنّ سياسة التهدئة تقتضي ذلك. لكنّهم في الأثناء أصبحوا 1500 على الأقل وتهيكلت من جديد الخلايا الدّستورية وجمّعت مخازن من الأسلحة [...] لقد أجاد فعلا أعداء فرنسا! . لا برنامج إلاّ محق الفلاقة ومنع شركائهم من الأذى مهما كانت مراتبهم"[50]. إنّ حدّة المعارضة لكلّ إجراءات التهدئة زادت بعد ميلان الحكومة الفرنسية للتفاهم مع الحركة الوطنية وخاصّة إثر عمليات الإغتيال والإرهاب التي جدّت بداية من ماي 1954 ووصل تمرّد الجالية الفرنسية وغضبها إلى تعنيف المقيم العام فوازار وشتمه[51] إثر اغتيال معمّري الكاف وعند حضوره جنازة الأربعة فرنسيّين الذين وقع اغتيالهم بفري فيل، وذلك في 12 جويلية 1954، شيّعته جموع الحاضرين بالسّب والصّفير[52]. وقد تتالت على الإقامة العامة لجان الفئات المهنيّة من معمّرين وموظفين وقدماء المحاربين وتجّار ومختلف التنظيمات السّياسية اليمينية تطالب بتغيير اتجاه السّياسة المتبعة والضرب بقوّة على "رؤوس الفتنة" من القيادات الدّستورية والتسريع بتنفيذ أحكام الإعدام، وتشديد القبضة على "الفلاقة"[53].

لقد استجابت في الواقع السّلطة السياسية للمطالب الأمنية للجالية الفرنسية وكثّفت من جهاز الأمن وعمليّات ملاحقة "الفلاقة" وحوّلت إلى تونس تعزيزات كبيرة من الجزائر

---

[50] Document daté du 17/6/1954, In Q.O. Série t. 1944-1955, c. 375, f. 141.

[51] كان ذلك عند عودته من باريس في 29 ماي 1954.

[52] Télég. Voizard du 13/7/1954. Q.O. Série T. 1944-1955. C. 375. f. 189.

[53] راجع مثلا فقرات من العريضة التي أمضاها فرنسيون في 7 جوان 1954 بجريدة « Le Monde » لـ 1954/6/8 كذلك العريضة التي صوتت عليها "جمعية قدماء المحاربين وضحايا الحرب" والتي تهدّد فيها بأن يأخذ فرنسيو تونس على عاتقهم مسؤولية أمنهم (Q.O. Série T. 1944-1955. C. 375, f. 110.) ولائحة فدرالية الكافات التعاضدية بتونس (La Féd. Des Caves coopératives de Tunisie) الممثلة لـ 360 عائلة فرنسية والتي تعبّر عن غضب وتأثر منضويها وتطالب بتشديد العقاب على مقترفي الإغتيالات (Q.O. Série T. 1944-1955. C. 375, f.111.)

وفرنسا فارتفع عدد أفراد الجيش بين جوان وجويلية 1954 من 17 ألف رجل إلى 26 ألف[54] وتمكّنت بالفعل هذه الإجراءات من الإضرار بالمقاومين[55] وتواصلت محاولة تصفيتهم حتى بعد خطاب قرطاج لمنداس فرانس إذ رفضت الحكومة الفرنسيّة التفاوض تحت الضغط. كذلك تمادت بالمدن الإيقافات وإجراءات المراقبة.

إنّ الأصوات الخارجة على نداء الثأر والقوّة من بين الفرنسيّين كانت قليلة إضافة للأقليّة المنضوية إلى الحزب الشيوعي والفدرالية الإشتراكية وبعض أفراد الحركة الجمهورية الشعبية تجرأت شخصيات مستقلـّة على معارضة منطق القوّة ونادت بالتعقل والحوار[56] كما تكوّنت سنة 1954 لنفس الغرض لجنتـــــان وهما : "حركة التعاون الحر الفرنسي التونسي"(Mouvement pour une libre coopération franco-tunisienne) و"لجنة العمل الفرنسي–التونسي من أجل الصّداقة والتعاون" (Comité d'action franco-tunisienne pour l'amitié et la coopération) تنشطهما مجموعة من الشخصيات الليبرالية لم تتعدّ المائة فرد[57] وكانتا محلّ سخرية واستشناع من بقيّة التنظيمات اليمينيّة الفرنسيّة[58].

إنّ مجابهة المقاومة المسلّـحة من طرف فرنسيّي تونس لم يقتصر على المواقف السياسية بل تعدّاه إلى مجابهة الإرهاب بالإرهاب.

بالفعل تكوّنت مع بداية الأحداث سنة 1952 وحدات تعرف بمجموعات "الدفاع – الذاتي" هدفها حماية الفرنسيين والردّ على ضربات المقاومة خاصّة وأنّ الإدارة

---

[54] Note du Quai d'Orsay datée du 20/7/1954. In Q.O. Série T. 1944-1955, C. 375, f. 241.

[55] قتل من الفلاقة "من مارس إلى بداية جويلية 1954 عدد 58 وأسر 12 (ن.م.).

[56] من ذلك رسالة ممضاة من 39 شخصية أرسلت لرئيس الحكومة في 9 جويلية 1954 تناشده بوضع حدّ للقمع والتتبعات البوليسية واعتماد الحوار مع الوطنيّين وقد لاقت تلك الرّسالة الرفض والتشنيع من أغلب القوى السّياسية اليمينية بتونس.

[57] انظر مقالنا المذكور :« Les groupement politiques… » .

[58] هل هنالك من تعاون من الفرنسيّين مع "الفلاقة" ؟ نسوق وباحتراز من شهادة السّاسي لسود أنّ أحد المعمّرين بجهة ساقية سيدي يوسف كان يعين "الفلاقة" كذلك نائب رئيس بلدية قفصة الذي يبدو أنه كان يتدخل لمساعدة مناضلي المنطقة. (راجع شهادته بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية).

الإستعمارية تساهلت في منح رخص حمل السلاح بالنسبة للأوربيين أفرادا ومنظمات وخاصّة "جمعيات ألعاب القوى والتهيئة العسكرية (Sociétés de Gymnastique et Préparation militaire) التي كان عددها يربو على 110 قبل الحرب العالمية الثانية[59] كما سمحت بتسليح المعمّرين ومكّنتهم من ترسانة من الأسلحة المتنوّعة تحت تصرّفهم[60] وبإشراف رؤساء جمعيّات المعمّرين في كلّ جهة. لقد برزت في سنوات 1952-1954 التي تميّزت بالعنف والعنف المضاد المنظمة الإرهابية الفرنسية "اليد الحمراء" كرد على إرهاب "اليد السّوداء" من التونسيين. وكان نشيطو تلك المنظمة من البوليس والموظفين الصّغار ومستخدمي المكاتب وقدماء المحاربين ولقد كشفت الأحداث أنها تحظى بتسامح السّلطة السّياسية في أعلى مستوى[61] وخاصّة بتواطؤ مسؤولين كبار في جهاز الأمن مثل حفّاظ الشرطة Piérangeli و Natali و Santoni[62].

ولقد أكّد البحث في قضيّة "اليد الحمراء"، في ماي 1956 تورّط مسؤولي شرطة في جرائمها مثل الضابط سارج جلّي (Serge Gillet)[63] كما أنّ جهاز القضاء كان يتعامى على ما يقترفه أعضاء ذلك التنظيم الإرهابي فلم تؤد التحريّات إلاّ نادرا إلى القبض على مرتكبي الجرائم على عكس ما عومل به التونسيون من قسوة.

ففي ظلّ حماية البوليس والقضاء وبتعاطف فرنسيي البلاد كانت تتحرّك "اليد الحمراء" تدعمها التنظيمات السّياسية اليمينية الفرنسيّة بالبلاد وخاصّة "الحضور الفرنسي"

---

[59] راجع مقالنا :

« *Contribution à l'étude des associations françaises non-politiques, en Tunisie entre 1881 et 1939* », in **R.H.M.** n° 75-76, mai 1994, p. 272.

[60] يقول السّاسي لسود في شهادته المذكورة أنّ المقاومين غنموا من ضيعات معمّري الكاف الذين وقع اغتيالهم في ماي 1954 أسلحة متنوعة من خراطيش وقنابل يدوية ومسدّسات وأسلحة حربية.

[61] يذكر المؤرّخ شارل أندري جوليان أنّ المقيم العام دو هوتكلوك لم يكن فحسب على علم بمخطط اغتيال فرحات حشاد بل أنه بارك ذلك أيضا.

Charles-André JULIEN, **Et la Tunisie devint indépendante (1951-1957)**, les Editions J.A. /S.T.D., 1985, p. 89.

راجع كذلك ملف "حشاد" بـ روافد، 8، 2003.

[62] **تاريخ الحركة الوطنية**، نشر دار العمل، **الوثائق XIII**، ص 400 (النسخة الفرنسية).

[63] **Le Nouvel Etat**, dans la série Hist. Du M. N. T., Dar El Amal, Tunis, 1982, p. 380.

(Présence française) التي أسّسها سنة 1954 المغالون من الإستعماريّين وضمّت قدماء محاربين في الجيش وكلّ العناصر المقتنعة بضرورة مجابهة الحركة الوطنيّة التونسيّة بالقوّة وإيقاف مسار تحوّل البلاد نحو الإستقلال[64] وكانت التنظيمات اليمينيّة المتطرّفة تهدّد بتحويل الوضع في البلاد إلى حرب أهليّة[65] وتشعلها نارا من تونس إلى المغرب الأقصى لا سيّما وأن التنسيق بين تلك المنظمات في كلا البلدان الثلاث كان قائما وأنّ التزامن المذهل في العمليّات التي استهدفت الزعماء الوطنيّين وخاصّة في المغرب وتونس وتشابه تنفيذها يرفع كل شكّ في أنّ الإرهاب المضاد كانت تحرّكه نفس الأيدي وتدفعه نفس الفكرة ولا غرو في ذلك إذ كانت الإتصالات دائمة بين "الحضور الفرنسي" التونسي بزعامة الجنرال ريم برينو و "الحضور الفرنسي" المغربي بقيادة الدكتور كوس (Causse) وأنّ إرهاب "اليد الحمراء" في تونس لا يقلّ حدّة عن أعمال "كوفاك" بالمغرب. (Covac : Comité de vigilance et d'action pour la sauvegarde et la défense du Maroc)

إنه من الصّعب الخروج بحصيلة نهائية للإرهاب المضاد في تونس والذي كانت وراءه "اليد الحمراء" خاصّة وأنه يتعذر حاليا الإطلاع على التقارير الأمنية التي تخصّه – إن وجدت– لكن نوعيّة الأعمال المقترفة واختيار أهدافها وتوقيتها –إذ كثيرا ما تحدث مباشرة كردّ فعل وانتقام لعمليّة نفذها الوطنيّون– تجعلنا نزعم أنّ ذلك التنظيم كان مسؤولا على أكثر من 70 عمليّة إرهابيّة من مارس 1952 إلى ماي 1956 جدّت أغلبها سنتي 1952 و 1954[66].

يبدو أنّ تسارع الأحداث بعد جويلية 1954 ومنح البلاد استقلالها الدّاخلي في جوان 1955 وما جدّ في الأثناء من وضع حدّ للمقاومة العنيفة ونزع سلاح "الفلاّقة" وعدم تحمّس السّلط السّياسية والعسكرية الفرنسية لخوض مغامرة العنف التي كانت تنادي بها التنظيمات اليمينية المتطرّفة ("الحضور الفرنسي" و "قدماء المحاربين") وكذلك ما احتوته اتفاقيّات الإستقلال الدّاخلي من ضمان لمصالح الفئات الفرنسيّة المختلفة بالبلاد و "كأنّ

---

[64] راجع مقالنا المذكور : « Les groupements politiques ».

[65] راجع مثلا خطاب الجنرال ريم برينو (Rime Bruneau) رئيس « Présence Fr. » في 30/ 1955/4 والرّسالة التي بعث بها تنظيم يسمّي نفسه « Maquis Franco-Tunisien » إلى ادقارد فور في ماي 1955 في (Q.O. Série Tunisie 1944-1955 C. 729)

[66] Histoire du Mouvement Nat. Tunisien, Dar El Amal, **Documents XII**, p. 400 et **Le Nouvel Etat**, Dar El Amal, Tome1, p.p. 379-382 et autres sources archivistiques.

الأمر لم يتغيّر"[67] كلّها أسباب جعلت المجموعة الفرنسيّة بتونس تؤخذ "عن غرّة" ويفرض عليها بديل هو أقلّ ضررا ولم تتمكّن بالتالي من تنظيم صفوفها ومجابهة الأوضاع بأكثر التزام وقوّة وقد تعلّمت من درس تونس الجالية الفرنسية بالمغرب حيث كانت أكثر اندفاعا في مجابهة المقاومة المسلّحة هناك.

خـاتمة :

في الواقع أنّ ضعف المقاومة المسلّحة في تونس في الخمسينات لم يؤدّ إلى قلب جذري في أوضاع الجالية الأوربية وخاصّة الفرنسيّة حتى وإن كان أزعجها الإرهاب الوطني وجعل عناصرها النشطة تتصدى بعنف لما تراه اعتداء على حقها وأنّ هجرة الفرنسيّين والأوربيّين عامة من البلاد كانت متأخرة إذ امتدّت على حوالي عشر سنوات من 1954 إلى 1964 نتيجة عدّة عوامل منها خاصّة تونسة الأمن والقضاء وإجلاء الجيش الفرنسي بداية من 1957 وحرب الجزائر وانعكاساتها الأمنيّة الخطيرة بالخصوص في الجهة الغربيّة للبلاد وكذلك التغيّرات الإقتصادية التي تلت 1956 وقرار استرجاع أراضي المعمّرين سنة 1964.

---

[67] هذه الإتفاقيات ضمنت للموظفين الفرنسيين حق البقاء ومختلف امتيازاتهم بالبلاد وكذلك حق المعمّرين بالإحتفاظ بالأرض وللشركات الإستعمارية نفس الوضع (لمزيد التفاصيل راجع نص اتفاقيات 3 جوان 1955 وخاصّة الفصول من 1 إلى 6 حول وضع الأشخاص (S.H.A.T., Série 2H. T., C. 2H 136, ff. 77-82).

المبحــث الرابع :

كمندوس "فرحات حشاد"

كمندوس "فرحات حشاد"

عرفت البلاد التونسية منذ 18 جانفي 1952 خاصة، تاريخ اعتقال الزعماء الوطنيين، موجة من المقاومة العنيفة في المدن ثم في الأرياف، غذتها حملات القمع الاستعماري التي شملت كامل جهات البلاد واستهدفت الوطنيين بالزج بالآلاف منهم في السجون والمعتقلات وترعيب السكان وضرب الحصار عليهم وفي الآن ذاته ارتقت معارضة الاستعماريين من الفرنسيين لكل إمكانية تحول في السياسة الاستعمارية الفرنسية نحو الاستجابة للمطالب الوطنية إلى درجة اعتماد الإرهاب[1] الذي ذهب ضحيته من مارس إلى ديسمبر 1952 عديد الوطنيين في أكثر من خمسين عملية إرهابية كانت وراءها خاصة منظمة المتطرفين "اليد الحمراء". وفي 5 ديسمبر 1952 كان ضحيتها الزعيم النقابي والوطني فرحات حشاد وكان اغتياله في حساب منفذي قتله، إجهاض العمل الوطني بضرب زعيمه الفعلي آنذاك. لكن قتل حشاد أجج أكثر المشاعر الوطنية وازدادت بذلك عمليات المقاومة جرأة وانتشارا وفي هذا الإطار أتت عملية "كمندوس فرحات حشاد" وهي – كما سنبين لاحقا – رمزية أكثر من أنها كانت فاعلة في مجرى الأحداث.

لكن قبل أن نتناول موضوع هذا الكمندوس نذكر أولا بالظرفية العامة التي كانت جادة بالبلاد وخاصة بالجنوب التونسي سنة 1952، إذ وقعت مئات العمليات "الإرهابية" في المدن والأرياف من طرف الوطنيين استهدفت قوات الأمن والجيش الفرنسية وعملاء الاستعمار وتخريب وسائل النقل وإتلاف أرزاق المعمرين[2] وذهب ضحيتها في الصف

1- حول مواقف القوى الفرنسية في تلك الفترة يمكن العودة إلى مقالنا :

« *Les groupements politiques français de droite en Tunisie et la décolonisation (1954-1956)* » in **Actes du IX colloque international sur processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, pub de l'ISHMN, Tunis, 1999, pp. 205-236.

2- راجع مثلا للفترة من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952 البحث : "ستون يوما من النضال الشعبي بتونس من 14 جانفي إلى 15 مارس 1952".

الفرنسي 54 قتيلا و139 جريحا[3] وقد وقعت أكبر العمليات المسلحة حتى تلك الفترة (أواخر 1952) بالجنوب خاصة للبروز المبكر لمجموعات المقاومة بجبال هذه الجهة من مطماطة إلى قفصة وكانت أبرزها عصابتا الطاهر لسود ولزهر الشرايطي. ونذكر هنا بأهم العمليات التي نفذها المقاومون في هذه المنطقة :

– 13 فيفري 1952: على الطريق الرابطة بين قفصة وأم العرائس مهاجمة سيارة جندرمة، قتل فيها ضابط وعون جندرمة.

– 12 مارس: عملية محطة القطار بقابس، قتل فيها 7 وجرح 15 شخصا.

– 4 افريل : على طريق الحامة – قبلي، حرق حافلة نقل و قتل سائقها.

– 14 اكتوبر : جرح شرطيين قرب محطة القطار بقفصة بإطلاق الرصاص عليهما.

– 16 اكتوبر : مهاجمة القطار بجهة الثالجة حيث قتل شخص وجرح خمسة.

– 13 نوفمبر : إطلاق النار على سيارة جندرمة وجرح أحد ركابها.

– 15 نوفمبر : نصب كمين لشاحنة عسكرية بمدخل قابس أسفر عن قتل 4 جنود وجرح 7. ويبدو أن حشاد كان على علاقة مع منفّذي هذه العملية وكان زوّدهم شخصيا بالمال ممّا شدّ من عزم الإستعماريين على إغتياله.

– 3 ديسمبر : بقصر قفصة كمين لسيارة حرس جمهوري قتل فيه حرسان وجرح اثنان، تلته عملية انتقامية من أهالي القصر وأعدم ستة منهم...

في هذا الإطار سوف نقرر عملية الكمندوس موضوع هذه الورقة.

قلنا آنفا أن مقتل حشاد شحذ من عزيمة الوطنيين وحفزهم على الانتقام وهذا ما أسر به عديد من الذين رفعوا السلاح والتحقوا بالمقاومة في الجبال كما تأسست مجموعات إرهابية[4] أخرى منها المجموعة التي تكونت حول صالح بودربالة ورضا بن عمار والهادي الورتاني ونور الدين بن جميع وعبد الحميد بالقاضي وناصر فارح وحمادي

3– **S.H.A.T., S/S. 2H Tunisie, C. 154, D 1,** Document : Français et Tunisiens tués ou blessés du fait de l'action des insurgés, f. 56.

4– نشير هنا أننا نستعمل عبارة إرهاب في دلالتها التاريخية أي استعمال العنف لترهيب الخصم أو للقضاء عليه دون السقوط في معيارية السلبية أو الإيجابية لذلك الفعل.

غرس بتونس العاصمة كردة فعل مباشرة على اغتيال حشاد[5]. وكان قرار بعث مجموعة من طرابلس تحمل اسم الشهيد في 12 ديسمبر 1952 عملا آخر من ذاك القبيل.

تحولت طرابلس في الخمسينات إلى قاعدة أساسية إلى جانب القاهرة للمعارضة الوطنية التونسية وملجإ رئيسي لها بعد تشديد القبضة الاستعمارية على البلاد وملاحقة الوطنيين[6] وذلك لأسباب حضارية (نفس الانتماء القومي والديني) وسياسية (ليبيا مستقلة منذ ديسمبر 1951 وبها قوى وطنية مساندة لحركة التحرر في المغرب) وتاريخية (عراقة الروابط النضالية بين الشعبين التونسي والليبي) وجغرافية (اتساع الحدود بين ليبيا وطرابلس وصعوبة السيطرة عليها) على عكس الجزائر التي كانت تحت النفوذ الفرنسي – كما هو معلوم – لذلك تحولت أفواج المعارضين والفارين من الاضطهاد إلى طرابلس وكان المناضلان الدستوريان محمد مراد بوخريص وعلي الزليطني[7] من الأوائل الذين وصلوا طرابلس وتكلفا بتهريب المناضلين الملاحقين إلى هذا البلد[8] وتنظيم صفوفهم وخاصة محاولة بعث نواة مقاومة مسلحة بطرابلس.

5- الحبيب قرار، لتحي تونس، تونس، مطبعة بوسلامة، 1996، ص 97.

6- حسب تقديرات الإقامة العامة بتونس وقع بين جانفي 1952 و 10 اكتوبر 1952 القبض على 5269 شخص وحكم على 2306 منهم، وصلت العقوبة إلى حد الإعدام (9)، راجع :

C.I.C.R.C : **Livre sur la détention politique en Tunisie**, les éditions du Pavois, 1953, p. 159.

7- ولد علي الزليطي سنة 1914. كان رئيس جامعة تونس والأحواز للحزب الدستوري الجديد. فر إلى طرابلس في مارس 1952 وأصبح ممثل الحزب فيها وأشرف مع مراد بوخريص على تدريب عدد من المهاجرين التونسيين على السلاح. وقف إلى جانب صالح بن يوسف ضد بورقيبة وحكم عليه سنة 1957 بعشرين عاما أشغالا شاقة بتهمة التآمر على أمن الدولة. وكان رفيقه مراد بوخريص كذلك أحد العناصر الدستورية النشطة بالقاهرة وطرابلس بعد فراره من تونس. وكان ضمن هذه القيادة الدستورية بطرابلس المناضل الطاهر عميرة الذي التحق بليبيا لضلوعه في العمل المسلح هروبا من التتبعات.

8حول كيفية لجوء المناضلين وتهريبهم إلى طرابلس يمكن الرجوع إلى كتاب الحبيب قرار المذكور، ص 167–172 وكذلك شهادة المناضل محمد صالح البراطلي المحفوظة بالمعهد الأعلى للحركة الوطنية. هذا وقد لعب المناضل الدستوري بقابس العيساوي الشكاي دورا رئيسيا في ذلك.

لعبت طرابلس اذن في هذه الفترة القاعدة الخلفية للمناضلين التونسيين وذلك بمساندة ودعم السلط الليبية الرسمية او على الاقل سكوتها المقصود. وقد كانت القيادة الدستورية (الزليطني، بوخريص، عميرة) اتخذت قرقيرش طرابلس مقرا لها.يتمثل نشاطها في استقبال الفارين من الاضطهاد الاستعماري في تونس وبعد الاستخبار على حقيقتهم يتم تأطيرهم وتدريب بعض العناصر منهم على السلاح. وتصل الامدادات المالية لهذا التنظيم من خلايا الحزب الحر الدستوري بتونس عن طريق شبكة سرية شارك فيها مناضلون أمثال القائد الكشفي محمود القابسي (من تونس) وبن رمضان بالرايس (ينقل الاموال بحرا من جربة) والعيساوي الشكاي (سائق "لواج" بين قابس وطرابلس) وفي الحدود الجنوبية كانت الاعانات تجمع عند أبناء الحاج سعد شندول[9] ويبدو ان اعانات مالية أخرى أتت عن طريق الجامعة العربية حسب شهادة بعض المناضلين.

وحسب تقرير الاستعلامات العسكرية في أواخر 1952 كان عدد التنظيم الدستوري بطرابلس حوالي 48 شخصا منهم 39 مستقرون بمركز التدريب ببني غشير، جلهم اتى طرابلس هروبا من التتبعات العدلية في تونس لتورطهم في أعمال تخريب في اطار حركة المقاومة. كان مركز تدريب التونسيين بطرابلس بمزرعة تبعد حوالي 7 كيلومترات على كستال بنيتو وهي على ملك أحد المستثمرين الاثرياء الجربيين الحاج الشاذلي بن عياد ربانة وشريكه محمد المشاط (من تونس) وهي عبارة عن ضيعة شاسعة (125 هكتارا) يتوسطها برج قديم مكون من 8 غرف يستعمله المقاومون للاقامة و التدريب ويذكر تقريرالجيش الفرنسي ان التدريب على السلاح كان يتم على يدي شخصين أساسا وهما علي بن مسعود وفي مرحلة ثانية تحت اشراف "عبد القادر الشريف". كان الاول أي علي بن سعد بن مسعود من مواليد مدنين يشتغل "قطايري" قبل التحاقه بالمقاومة. شارك في حرب فلسطين ضمن الجيش السوري. وكان ضمن كمندوس فرحات حشاد وسنعود اليه في الصفحات اللاحقة. أما الثاني الذي نابه في تدريب المتطوعين التونسيين بالمزرعة كعنصر أساسي فهو الطيب بن الطاهر بن أحمد بن الشيخ ينادى ب "عبد القادر بن الشيخ"

9- كل المعلومات حول التنظيم الدستوري بطرابلس مأخوذة من تقرير استعلاماتي عسكري فرنسي قدم له ونشره الزميل محمد لطفي الشايبي بمجلة روافد عدد 2002/6 بعنوان Rapport de Synthèse sur l'organisation Néo-Destourienne en Libye (fin 1952), in Archives du S.H.A.T.C.S.T.T., série 2h., c.2h.373. كذلك من شهادة السيد حميدة الجواني أحد أفراد كمندوس فرحات حشاد في لقاء معه تم بتونس في 2001/11/3.

أو "أولاد سيدي بلقاسم" و"عبد القادر الشريف" وهو تونسي مولود بالعاصمة سنة 1923 كان تطوع في صفوف الجيش الالماني عند وجوده بتونس (نوفمبر 1942–ماي1943) واقترف جريمة قتل حكم عليه فيها بالاشغال الشاقة المؤبدة وفر من السجن وحوكم ثانية بتهمة "الخيانة" لتعامله مع الالمان سنة 1945 بخمس سنوات أشغال شاقة وتمكن كذلك من الفرار والالتحاق بطرابلس أين اشتغل كمدرب بمدرسة مهنية قال عنه عز الدين عزوز (وكان ضمن مجموعة مناضلي طرابلس آنذاك) انه "جندي ألماني" لجأ الى ليبيا بعد قتله تاجرا تونسيا[10] .

ويبدو أن عمليات التدريب العسكري الفعلية لهؤلاء الشبان التونسيين بدأت في أول نوفمبر 1952 حسب التقرير العسكري المذكور وليس بعد مقتل فرحات حشاد (5 ديسمبر 1952) كما يدعي عز الدين عزوز بالنسبة للمجموعة التي سوف يطلق عليها اسم كمندوس فرحات حشاد[11]. وكانت الاسلحة المستعملة من بقايا الحرب العالمية الثانية (بنادق، ذخيرة من القذائف و المتفجرات) تمكن علي الزليطني ومراد بوخريص من شرائها من بعض العروش ومهربي الاسلحة بالجهة الحدودية وخاصة من شخصين وهما الحاج خالد ومبروك الزناتي بطرابلس [12] .

اذا اثر اغتيال فرحات حشاد قرر الزليطني و بوخريص تكوين كمندوس يرسل لتونس ليثأر لاغتيال الزعيم النقابي ووقع اختيار 16 مقاوما تطوعوا للقيام بتلك المهمة.

قسم أفراد المجموعة الى فرقتين الاولى من سبعة مقاومين يقودهم علي بن مسعود ويساعده في القيادة عبد الله الجليدي والثانية من 9 أفراد يرأسها علي القلعي[13]ويساعده

10– AZZOUZ Ezzeddine, **l'Histoire ne pardonne pas, Tunisie : 1938-1949**, Paris, l'Harmattan-Dar Ashraf Editions, 1988, p .175.

11– **المصدر نفسه**. بينما السيد حميدة الجواني في شهادته المذكورة يؤكد أن تدريبهم على السلاح كان منذ صائفة 1952.

12– **تقرير القيادة العليا للجيوش الفرنسية بتونس،م.م.**

13 -علي القلعي هو أصيل القلعة الكبرى بالساحل التونسي كان عمره 37 سنة 1952. لم يشارك رفاقه الاصطدام مع الجيش الفرنسي داخل الأراضي التونسية وعاد قبل اجتيازه الحدود لمرض أصابه أو لخوف ألم به؟ ويرجح السيد حميدة الجواني أن علي القلعي والعنصر السابع عشر وهو علي نحاسة كانا تخليا عن المجموعة خوفا.

المنجي الشايب. وقد كلف كل من المخازني القديم أصيل مدنين المنتصر وعلي نحاسة أصيل بن قردان بمهمة كعنصري ربط وارشاد للكمندوس.

وحسب ما أتى في تقرير استعلامات الجيش الفرنسي فإنه بعد تزويد عناصر الكمندوس بضروريات المهمة (سلاح، ملابس، أدوية) وشحذ عزائمهم من علي الزليطني الذي اجتمع بهم حددت مأمورية كل فريق من الكمندوس كالتالي :

الفريق الاول (فريق علي بن سعد بن مسعود) : كلف بمهمة اقتحام واحتلال فرع مكتب الشؤون الاهلية ببني خداش والسيطرة على المنطقة المحيطة به وكلف عبد الله الجليدي باثارة الاهالي لنصرة الثائرين على أن تصل الفرقة تعليمات لاحقة من علي الزليطني عن طريق علي نحاسة أصيل بنقرادان والناشط ضمن المجموعة بطرابلس.

الفريق الثاني (فريق علي القلعي قد عوضه المنجي الشايب) أعطيت له مهمة الالتحاق بجبال مطماطة بمكمن يعرف بالزيتونة والالتحام بمجموعة "فلاقة" هنالك وهي مجموعة مصباح الحويوي (الجربوع) ومنها الاقدام على القيام بعمليات تخريب بجهة مطماطة ومارث والحامة خاصة احتلال برج مصلحة الشؤون الاهلية بمطماطة. على ان يواصل أفراد الفريق سيرهم في اتجاه الشمال نحو جبال القيروان (سيدي علي بن نصر الله) لنشر المقاومة[14] .

وفي الواقع عكس ما ادعاه عزالدين عزوز في كتابه المذكور لم تكن عملية الكمندوس من حيث التحضير وتدقيق المهام والسير عبر الحدود والاستكشاف والربط بالعناصر الوطنية الموالية داخل التراب التونسي من التسرع وعدم المهنية حتى وان فشلت [15] وان كان مصيبا في جوانب تخص درجة ضبط سرية المأمورية. وكان علي الزليطني بعث بالزيتوني بوجلغة (أصيل مدنين) ليعلم رئيس الخلية الدستورية بمدنين الحاج عمار بن

14- **تقرير القيادة العليا للجيش.**م.م.

15- **"التاريخ لايرحم"** م.م.ص.174-175. ولعل هذا الموقف من عز الدين عزوز يفسر حسب ما اسر لنا به مناضل آخر فر لطرابلس هو الآخر وعرف المجموعة هناك وهو السيد حمادي غرس (لقاء بالمرسى في 2001/9/29) أن علي الزليطني ومراد بوخريص كانا محترزان من عزوز لأنه لا ينتمي للحزب الدستوري وانه مناضل مستقل وقد رفضا تكليفه هو بالاشراف على التدريب العسكري للتونسيين رغم كفاءته وتكونه في الجيش السوري مما حز في نفسه وروى مارواه. وقد أكد السيد حميدة الجواني لنا صحة موقف الزليطني وبوخريص من عزوز.

ضو بخبر وصول الكمندوس والحاج عمار بدوره مكلف باعلام رئيس شعبة الحوايا (بني خداش) بالمهمة. ولعل تعدد الأشخاص الذين شاركوا في التحضير لتلك العملية كان من أسباب فشي سرها وفشلها كما سنبينه.

تكوّن الكمندوس إذن وأعطيت له مهمة التسلل عبر الحدود بداية من 9 ديسمبر بعد أن زود بالأسلحة (17 بندقية، 136 قنبلة يدوية، 5100 خرطوشة و4 مسدسات) والملابس الضرورية وبتخطيط للسير حتى الهدف. وبالفعل يوم 12 ديسمبر 1952 وقع أول اشتباك بين هذه المجموعة ودورية من القومية يقودها النقيب اسكلانقن (Esclangon) قرب سيدي الطوي بالحدود الجنوبية لكن نظرا لتفاوت القوى انسحبت الدورية الفرنسية ليقع استنفار تعزيزات عسكرية استأنفت مطاردة الثوار يوم 13 حتى سقوط الظلام ومن الغد كانت المعركة الفاصلة بجبل الرهاش قرب كاف التوارف (40 كلومترا جنوب غرب بنقردان)[16]. وقد قادها من الجانب الفرنسي القائد العام للعساكر الفرنسية بالجنوب (T.S.T) العقيد قيبون (Guillebon) بنفسه وتدخلت فيها تعزيزات من الجندرمة هبت من قابس ومدنين و بنقردان وسرية كاملة من BIL الثالثة وكل ضباط الشؤون الأهلية بالمنطقة إضافة إلى فصيل المخازنية ببن قردان[17]. وقد تمت عملية تطويق كامل للجبل من جميع الجهات ووضعت بعض الكتائب العسكرية في مؤخرة الثوار لتقطع عليهم طريق الفرار. وكانت الحملة الأولى بعد الظهر يقودها ميدانيا النقيب لو (Lo) استشهد فيها 6 من الكمندوس تلتها حملة ثانية يبدو أنها كانت عنيفة استبسل فيها المقاومون "والتحمت فيها الأجساد" واستعملت فيها القنابل اليدوية والحراب (baillonettes) انتهت بقتل خمسة آخرين من الثوار.

وهكذا أسفرت المعركة على تصفية جل عناصر الكمندوس بعد مقاومة شبه انتحارية حيث استشهد منهم إحدى عشر مقاوما و اسر ثلاثة وفر آخر بينما عاد أحد قيادي الفرقتين

16- أنظر تقرير القيادة العامة للجيش الفرنسي بتونس بتاريخ 25 جوان 1953 حول "ملخص الأحداث التونسية منذ 10 جانفي 1952" بـ : **S.H.A.T., S/S, 2H, Tunisie,** C 154, D 1, f. 31

17- هذه التفاصيل استقيناها من جرائد "البتي متان" **"Le Petit Matin"** (16 و18 ديسمبر 1952) و"تونـــزي-فرانس" **"Tunisie-France"** (15 و16 ديسمبر 1952) وجريدة الزهرة (16 و17 و18 ديسمبر 1952).

علي القلعي قبل اجتياز الحدود. ويوضح الجدول الموالي بعض البيانات حول هؤلاء الرجال والتي أوردتها المصادر وخاصة العسكرية منها [18]:

الأشخاص	العمر	أصيل	المهنة	سوابقه النضالية	مصيره في العملية
حسن بن عتيق جبو	39 سنة	جرجيس	–	متطوع سابق في فلسطين	أسر
حميدة الجواني	19 سنة	تونس	نجار	فر من تونس لمشاركته في التخريب	أسر
علي بن مسعود (أو المسعودي)	32 سنة	مدنين	فطايري	متطوع سابق في فلسطين	أسر
عبد الله الجليدي	45 سنة	بني خداش	–	–	فر قبل معركة الرهاش
علي القلعي	37 سنة	القلعة الكبرى	–	–	عاد قبل اجتياز الحدود

18- **السجل القومي للشهداء** الذي نشره الحزب الدستوري سنة 1978 عن دار العمل ذكر أسماء كل الشهداء ما عدى صالح بن ابراهيم بينما تقرير الجيش الفرنسي المذكور وجرائد " **Le Petit Matin** " و"**France Soir** " و"الزهرة" التي استقت معلوماتها من المصادر الرسمية أهملت ذكر الأخضر الفولي.

عبد الله التونكتي	21 سنة	تطاوين	–	فر من تونس لمشاركته في التخريب	استشهد
علي التونكتي	24 سنة	تطاوين	–	–	استشهد
البشير بن عبد الله الملكات(صلموك)	؟	أم التمر	كان مخازني	التخريب	استشهد
ابراهيم التمزرطي	20 سنة	تمزرط	صانع حلويات	فر من تونس لمشاركته في التخريب	استشهد
ضو بن عبد المؤمن العبدلي	37 سنة	مدنين	–	–	استشهد
حمادي بن الصادق اللومي	20 سنة	تونس	صانع نجار	–	استشهد
الناصر الغربي	؟	قصر هلال	–	–	استشهد
منصور بن فرج الملكات	35 سنة	مدنين	–	–	استشهد
المنجي الشايب	25 سنة	قصر هلال	–	–	استشهد
صالح بن إبراهيم	26 سنة	سوسة	–	–	استشهد
الأزهر بن الأخضر القولي	؟	قفصة	–	–	استشهد

يتبين من المعطيات التي حصلنا عليها أن الذين تطوعوا في كمندوس فرحات حشاد كانوا جلهم من الشباب الناضجين ومعدل عمرهم 29 سنة بينما أكبرهم كان عبد الله الجليدي (54 سنة) وأصغرهم حميدة الجواني (19 سنة). كذلك وان لم تذكر المصادر تفاصيل عن ماضي كل متطوع فان تقرير الاستعلامات العسكرية تقر ان هؤلاء كانوا مناضلين سياسيين وفروا في أغلبهم حديثا من تونس خوفا من التتبعات نظرا لمشاركتهم في أعمال تخريب في اطار المقاومة العنيفة التي عرفتها تونس منذ جانفي 1952 كما ان شخصين وهما حسن بن عتيق جبو وعلي بن مسعود (أو المسعودي) كانا من قدماء المحاربين في فلسطين (وربما آخرين) وهذا المعطى تؤكده دراسات أخرى وفحواه أن قدماء المتطوعين للجهاد في فلسطين كانوا من الأوائل الذين رفعوا السلاح في وجه الاستعمار في الخمسينات [19] وقادوا عصابات المقاومة لعل أشهرهم لزهر الشرايطي. أما من حيث الأصول الاجتماعية فكل عناصر كمندوس فرحات حشاد كانوا من الوسط الشعبي والشغيل ولا نجد من بينهم كذلك أصحاب شهادات أو تكوين علمي كبير وهي حقيقة سوسيولوجية أخرى تتعلق بمن هانت عليهم أرواحهم وانخرطوا في أسمى أشكال مقاومة الاستعمار أي الانخراط في العمل المسلح إذ بحكم ممارستهم للحياة وتمرسهم بشدائد الواقع كانوا مهيئين نفسانيا وأخلاقيا للتضحية بأرواحهم بحثا عن "الشهادة" وتجسيدا للوطنية الحقة. أما من حيث الأصول الجهوية للمقاومين فإن اغلبهم كان من الجنوب الشرقي و4 من الساحل و2 من تونس ولعل التراث النضالي المسلح لعروش ورغمة ضد الاستعمار وللبدو عامة إضافة لسهولة التنقل من الجنوب نحو طرابلس وبقدم العلاقات في التعامل بين عروش القطرين الليبي والتونسي يفسر هذا العدد الكبير من الجنوبيين ضمن من تطوعوا للقتال والثأر لفرحات حشاد.

أما في الجانب الفرنسي فقد جرح الجندرمي (Flosse) فلوس وقتل المخازني محمد بن سالم من مرازيق دوز شهر "البي" غير أن السيد حميدة الجواني يؤكد أن خسائر الفرنسيين كانت أكبر بما انه شاهد عند إنزاله من الجبل كدسا من "شيشان" المخازنية الذين قتلوا. هذا وغنمت القوات الفرنسية بعض الأسلحة والذخيرة. وغني التعليق عن

---

19 – في خصوص المتطوعين من التونسيين يفيد تقرير من المقيم العام الفرنسي جون مونس في جويلية 1948 (R.198,D.1) أن عددهم راوح 2676 تونسيا.

التفاوت الكبير في خسائر الجانبين بين قوات ممتهنة الخدمة العسكرية وتفوق الثوار قيادة وتنظيما وشباب سلاحه اندفاعه.

ومهما كانت نتيجة هذه العملية الفدائية فإن الثوار باستبسالهم القتالي لمدة يوم كامل رغم تفاوت ميزان القوى قد برهنوا على روح قتالية عالية[20] وإيمان بقضيتهم لكن رغم ذلك يرجح مسار تطور فعاليات هذا الكمندوس الاعتقاد في ما ذهب إليه عز الدين عزوز بأن العملية كانت غايتها في ذهن مديريها (علي الزليطني ومراد بوخريص) هي "للدعاية والتغطية على سوء التصرف المالي لهذين الشخصين"[21] (ولما لا رغبة حقيقية في المقاومة) وهي كذلك تدل على عدم حرفية لا من حيث تدريب عناصر المقاتلين و لا من حيث ضمان نجاح شروط التنفيذ بما أن الاستعلامات الفرنسية كانت على علم بهذه المجموعة و تتبعت تحركاتها مذ هي في طرابلس. كما أن إجهاض عمل كمندوس فرحات حشاد بتلك السهولة يعود كذلك في نظرنا إلى أن قبائل ورغمة ما زالت حتى أواخر 1952 لم تلتحق فعليا بالمقاومة المسلحة لتحتضن المقاومين ولن يقع ذلك إلا في غضون سنة 1954[22]. كذلك لا زال في أواخر سنة 1952 أعيان المنطقة في أغلبهم على ولائهم للسلط العسكرية الفرنسية الحاكمة بالجهة والذين جندتهم مثلا وبنجاح للكشف والقبض على الثائرين الفارين[23].

20- يبدو من رواية الأسير حميدة الجواني في لقائي المذكور معه أن القوات الفرنسية أجهزت بالقتل على بعض الجرحى من المقاومين رغم استسلامهم وإلقائهم للسلاح وهم الشهداء: حمادي بن الصادق اللومي والناصر الغربي والمنجي الشايب وعبد الله التونكتي. ولم يشفع للجواني في القتل غير ان القائد العسكري الفرنسي أراد الاحتفاظ به عندما علم منه انه يتكلم الفرنسية ورغب في الاستعلام اكثر منه.

21- **عز الدين عزوز**، م.م.، ص 175.

22- هذا إذا استثنينا وجود مجموعتين صغيرتين دون نشاط فعلي كانتا تتحركان بجبال بني خداش ومطماطة. انظر في هذا الموضوع:

Capitaine Henri de Bort : « *Notes sur la naissance et le développement du nationalisme dans les territoires du Sud tunisien, 1955* », in **M.A.E.**, Recueils, Etudes et Conférences, R. 2, V. 17, p. 1.

23- **"البتي متان"**، 1952/12/16، ص 2. علي بن مسعود وحسن جبو قبض عليهما بعد يومين أما عبد الله الجليدي فقد نجا من الملاحقة وكان الاسرى الثلاثة حميدة الجواني وعلي بن مسعود وحسن جبو وقع الاحتفاظ بهم في السجن بتهمة المشاركة في عصابة مفسدين والقتل ومحاولة

ومهما كان الأمر فإن اغتيال حشاد الذي أرادته القوى الاستعمارية ضربة قاسمة للمقاومة الوطنية لم يزد الوعي الوطني إلا انتشارا وإصرارا على مجابهة العنف بالعنف بما أن المقاومة المسلحة في تونس سوف تشمل في السنتين اللاحقتين كامل البلاد من جنوبها إلى شمالها.

القتل وحمل السلاح دون رخصة وحدد موعد محاكمتهم ل 24 أكتوبر 1954 ولحسن حظهم جد في 3 جوان 1955 امضاء اتفاقية الاستقلال الداخلية فتم اطلاق سراحهم في جملة بقية المعتقلين بالسجون.

البحــث الخامس :

نفزاوة والمقاومة المسلّحة

في الخمسينات

نفزاوة والمقاومة المسلّحة في الخمسينات

وصل العمل الوطني السّلمي في بداية الخمسينات إلى طريق مسدود وكانت مذكّرة الحكومة الفرنسيّة (15 ديسمبر 1951) الرّافضة للمطالب الوطنيّة والمصرّة على تثبيت الوجود الفرنسي بالبلاد نقطة تحوّل في تصعيد المقاومة للاستعمار واتخاذها صبغة عنيفة تقوّت مع موجة الاعتقالات والقمع التي شملت الوطنيّين في كامل جهات البلاد تقريبا. فتكوّنت عصابات مقاومة بالمدن تغتال وتخرّب. وبتشديد القبضة الاستعماريّة على المدن تحوّل مركز المقاومة إلى الأرياف وانبعثت فرق مسلّحة ما فتئت تتعزّز تغذّيها حملات التّفتيش والايقافات حيث بلغت أوجها صائفة 1954 بانخراط حوالي 2700 مقاوم في صفوفها يتزعّمهم قياديون مثل لزهر الشرايطي (جهة قفصة خاصّة) الطّاهر لسود (جهة بني زيد ثم الهمامة فأولاد عيّار وماجر)، السّاسي لسود (جهة قفصة ثم الكاف)، الطيّب الزّلاّق (الشمال الغربي)، حسن بن عبد العزيز (جهة السّاحل) محجوب بن علي (جهة بنزرت وخمير)، لعجيمي بن مبروك (جهة جلاص) مصباح الجربوع (جبال مطماطة والجنوب)... لتنتهي المرحلة الأولى من المقاومة بتسليم السّلاح في ديسمبر 1954 لكن لتشتعل من جديد في أواخر 1955 حتى صائفة 1956 تقريبا في إطار الحركة اليوسفيّة والثّورة الجزائريّة. فما هو موقع نفزاوة في هذه الأحداث؟ ورقتنا هذه تطمح للإجابة عن هذا التّساؤل بقدر ما تسمح به مصادرنا وهي أساسا عسكريّة فرنسيّة ونحن نقرّ سلفا بأنّها غير كافية.

نذكّر أوّلا أنّ نفزاوة كانت سنة 1952 تخضع كبقيّة الجنوب التونسي الصّحراوي للإدارة العسكريّة منذ احتلالها في مارس 1882. وتمتدّ قيادة نفزاوة (مركزها قبلي) على سدس مساحة البلاد. وكانت تعدّ في هذا التاريخ حوالي 47 ألف نسمة[1] يعيش أغلبهم

---

[1] – دراسة النّقيب بيار فوري : "حول تمرّد 1952–1954 بنفزاوة" (أفريل 1955).
FAURIE (Cap.), **La dissidence au Nefzaoua (1952-1954), (18 avril 1955),** Archives diplomatiques, in Rapports, Etudes Conférences, en microfilm à l'I.R.M.C. (Tunis).

على فلاحة الواحات وقلّة من البدو وانصاف البدو على الرّعي. ورغم موقعها الطّرفي وانحصارها بين الشّط والصّحراء لم تكن الجهة في معزل عن بقيّة البلاد لا من حيث حركة السكان (خاصة انتجاع الفرق البدوية في اتجاه الشمال أو الجنوب (المرازيق) ولا من حيث الحركة السّياسيّة الوطنيّة. اذ مثّل أبناء نفزاوة خاصة من طلبة الزيتونة منذ الثلاثينات نقطة وصل بين الحزب الدستوري وسكان الجهة[2] ويقدّر النّقيب هنري دو بورت (Henri de Bort) عدد المنخرطين من نفزاوة في هذا الحزب في أواخر 1950 بـ 1610 فرد منظّمين في 17 خليّة أي تقريبا 4 % من مجموع السكان[3] . ليتضخّم هذا العدد بعد سبتمبر 1954 اثر التّحوّلات التي جدّت منذ الصّائفة : خطاب منداس فرانس في جويلية 1954 المقر للاستقلال الداخلي، تكوين حكومة الطاهر بن عمّار التّفاوضيّة في أوت وخاصة الاعتراف بالنّشاط القانوني للحزب الدّستوري في سبتمبر من نفس السّنة وهي تحوّلات كما سنبيّنه كانت هامّة في حثّ نسق الالتحاق بالمقاومة.

*** مسار الخروج للمقاومة في نفزاوة: أو اليقظة المتأخّرة.**

نظرا للطابع العسكري للوجود الفرنسي بنفزاوة والخاصيّة القرويّة للسّكن والسكان لم تحدث أعمال كبرى في المرحلة الأولى من انتفاضة الخمسينات في ما اصطلح عليه بثورة المدن ما عدا بعض عمليات تخريب صغيرة قام بها بعض الشباب وأوقفوا من أجلها[4] وحتى ربيع 1954 بقي أهل نفزاوة خارج التمرّد العام التي كانت تعرفه البلاد ما عدا التحاق مجموعة قليلة بالمقاومة منذ انطلاقها في بداية 1952. هذه المجموعة نجد فيها

---

[2]– يبدو أنّ أوّل شعبة للحزب الدّستوري الجديد تكوّنت سنة 1937 بدوز وكان يحركها سالم بن عبد الرّحيم ومثلها محمد المرزوقي في مؤتمر الحزب بنهج التريبنال (1937). (راجع محمد المرزوقي وعلي المرزوقي، ثورة المرازيق، تونس، دار بوسلامة، 1979 ص ص . 42-44) ولمزيد التفاصيل حول دور هذه النّخبة المتعلّمة في بعث الوعي الوطني بالجهة انظر مقال محمد ضيف الله: *"التراب العسكري من الخضوع إلى الرّفض: مثال نفزاوة (1881-1956)" بالمجلّة التّاريخيّة المغاربيّة*، عدد 97-80، ماي 1995، ص ص 521-538.

[3] –

BORT (Capit de H.), **"Notes sur la naissance et le développement du nationalisme dans les territoires du sud tunisien"** (avril 1955), Archives du M.A.E. in Recueils, Etudes et Conférences, à l'I.R.M.C. (Tunis), p 10.

[4] وهم مصطفى الصغيرون والأمجد بن أحمد بن الكيلاني وعبد المجيد بالحاج الصغيّر والبشير بنقي وعلي بالعبيدي وعبد السلام بالعبيدي. راجع مقال ضيف الله م.م. ص. 538.

ثلاثة من ثوّار المرازيق الذين لم يستسلموا سنة 1944 والتحقوا بالثّورة[5] منهم علي الصيّد وخاصّة بلقاسم البازمي الذي سنعود إليه لاحقا والذي تمكّن من إقناع أربعة آخرين بضرورة امتشاق السّلاح[6]. وطيلة هذه الفترة أي من نوفمبر 1952 حتى فيفري 1954 لم يسجّل أي خروج للمقاومة بل على عكس ذلك سجّلت القوات الفرنسيّة إقبالا كبيرا على التطوّع في صفوفها حيث وقع مثلا في سبتمبر 1953 انتداب 84 قوميّا معينا من بين 300 متطوّع للعمل في هذا السّلك من فرق العذارة والمرازيق وأولاد يعقوب (عمل المرازيق وأولاد يعقوب في سلك القومية كان قديما ولعلّ وضع البؤس والخصاصة في الخمسينات يفسّر هذا الإقبال المتزايد في هذه الفترة) كذلك عاد "متمرّدان" إلى موطنهما في فيفري وأفريل 1953 ليعلنا استسلامهما[7]. لماذا هذا الخضوع؟ يبدو انّه يعود لأسباب منها إحكام السيطرة والمراقبة من الإدارة العسكريّة على الجهة ومراقبة وتعطيل حركة انتجاع السّكان وبالتالي تمّ نسبيّا عزل المنطقة عن العدوى الثوريّة التي كانت تطل عليها من جبال مطماطة وجبال قفصة. كذلك شدّة العقوبات التي سلّطت على ثوّار المرازيق 1943-1944 ومن تلاهم[8] ثبّط من عزيمة المترشّحين على محاربة الاستعمار. كما لعبت الأطر الأهليّة من شيوخ وأعيان حتى صائفة 1954 دورا كبيرا في تهدئة المتحمّسين للمقاومة والحدّ من غلوائهم[9]. غير أنّه في الواقع لم يكن كلّ سكان نفزاوة في هذه الفترة غير مكترثين بأحداث المقاومة. فالسّلط الاستعماريّة تعترف أنّ الفرق البدويّة النّفزاويّة والتي كانت تعيش على التّخوم وفي اتّصال بالمجال المتمرّد (المهاملة، بن زيد...) مثل الهمامة والغياليف وأولاد يعقوب وعوين فطناسة كانت على اتّصال مع "الفلاّقة" تأويهم وتمدّهم بالمعلومات والمؤونة وتتأثّر بدعايتهم. لكن لم يحدث تمرّد شامل في صفّ هذه العروش[10].

لكن بداية من خريف 1954 تغيّرت المعطيات نسبيّا ممّا سيجعل عديد المقاومين من نفزاوة يلتحقون بالثّورة. في خريف هذه السنة ونتيجة رداءة صابة التّمور من ناحية

---

[5]- فوري، م.م. ص. 6.

[6]- المصدر نفسه، ص. 7.

[7] – المصدر نفسه.

[8] – من ذلك اعدام الثائر عبد الله الغول (من عوينة دوز) في بداية 1950.

[9] – فوري، م.م. ص.8.

[10] – المصدر ذاته.

ولهطول الأمطار في الوسط وشمال البلاد تحوّل من جهة نفزاوة حوالي 3 آلاف شخص إلى مراقبات الكاف وتالة والقصرين ومكثر[11]. (في إطار حركة الانتجاع والهطاية...) أين كانت تحديدا بؤر المقاومة نشطة ويقودها "أبطال" يردّد النّاس أسماءهم مثل الطّاهر لسود والسّاسي لسود وبلقاسم البازمي وهم من أبناء الجنوب. فالتحق تسعة من هؤلاء النّفزاويّين بالعصابات العاملة بالجهات تلك. وكان للالتحاق ثلاثة من غياليف قبلي بالمقاومة في جوان 1954 أثر كبير في الجهة خاصة بوصول أخبار بطولات "الفلاّقة" التي كانت يحملها الحصّادون الموسميون العائدون من "فريقا" وقوّالوا الملزومات المتغنّون بمعارك "المجاهدين". ومع التّحوّلات السّياسيّة التي جدّت في صائفة 1954 والتي أشرنا إليها آنفا وخاصة الاعتراف بتمثيلية الحزب الدّستوري الجديد والاقرار بشرعيته (سبتمبر 1954) وعى أهل نفزاوة –حسب تقرير فوري– بأهميّة التغيّر وشموليّة المقاومة المسلّحة وهنا يبدو أن الأطر التّقليديّة من مشائخ وأعيان وقع تعدّيها خاصة بالمد الكبير الذي عرفه الانخراط في الحزب الدّستوري بداية من ذلك التاريخ حيث أصبح قياديوه وأعضاء الشّعب فيه يحرّضون النّاس علنيّة على "الخروج للجبل" ويجمعون التّبرّعات لفائدة المقاومين[12] ويبدو كذلك أنّه التحق في الأشهر الأخيرة هذه أي من سبتمبر إلى نوفمبر عدد آخر "بالفلاّقة"[13]. في تواز مع الخروج للحرث بالشّارب والسّقي حيث كانت تنشط في الجبال المحيطة بعض الفرق مثل فرقة حسين بن لخضر (من بوزيّان) وميلود بوسعادي (من لقطار) وعبد الحميد العكرمي (من العكارمة) والشيخ العربي العكرمي وعمّار بنيّ البوعمراني وعبد الوهّاب السّندي (من السّند) وفريق لزهر الشّرايطي[14]. وكان مجموع الذين سلّموا السّلاح من أصول نفزاويّة في ديسمبر 1954 اثر قرار الأمان 41 مقاوما[15].

لكن هل كلّ المقاومين النفزاويّين قد وقع احصاؤهم؟ وهل كلّهم سلّموا سلاحهم للجان القبول؟ نشكّ في ذلك خاصة وأنّ معلومات أخرى تذكر أنّ عديد النّفزاويّين شاركوا في ما اصطلح على تسميته من الثوّار بـ "الثورة الثانية" أي المقاومة في صف اليّوسفيّين وإلى

---

[11] – المصدر ذاته.

[12] – فوري، م.م. ص. 9.

[13] – التحق 11 نفزاوي بفرقة لزهر الشّرايطي و 5 بالعصابات الأخرى. (فوري، م.م. ص.10).

[14] – راجع شهادة المقاوم عبد الوهّاب السّندي المسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة.

[15] – فوري، م.م. ص.10.

جانب الجزائريّين في ما بين أواخر 1955 وصائفة 1956 [16]. يذكر تقرير نائب الوالي بتبسّة بتاريخ 16 جوان 1956 أنّ القائد سعيد من عرش الحرارزة بمدنين التحق في بداية جوان مع فرقته بالجزائر وكانت تعدّ 200 مقاوم من نفزاوة ومدنين ومارث وبن قردان[17] كما لعب مقاومو الجهة دورا رئيسيّا في تهريب الأسلحة للثوّار اليوسفيّين والمجاهدين الجزائريّين عبر جبال مطماطة مرورا باستفتيمي وجبال الشّارب والسّقي. ومن العناصر النّشطة التي تذكرها الاستعلامات العسكريّة بلقاسم بن المبروك الصليعي وابن عمّه أحمد بن عمّار القاطنين أنذاك بالقطاعيّة واللّذين كانا يعملان ضمن مجموعة تموين المقاومة بالأسلحة كان مركزها حامّة قابس وتابعة للطّاهر لسود[18]. ويبدو أنّ البعض من المقاومين النّفزاويّين شاركوا اخوانهم القتال في الجزائر مثل ما صرّح به أحدهم وهو من أولاد يعقوب كان قد قضّى شهرين بالجبل الأبيض بالجزائر وعاد ليسلّم نفسه للسّلط في جويلية 1956[19]. ونذكر أخيرا أنّ الهادي قدورة وهو من مواليد دوز شارك في المقاومة مع مصباح الجربوع وانضوى إلى صف اليوسفيّين مع مصطفى المرزوقي ومحمد قرفة وحكم عليه سنة 1957 بالإعدام بتهمة التّآمر على أمن الدولة. ومن هنا أيضا أتت صعوبة الإحصاء الفعلي لعدد المقاومين بنفزاوة إضافة إلى أنّهم نشطوا خارج مجالهم وفي فرق مقاومة متنوّعة. على كلّ من يكن هؤلاء المقاومين؟

* **سوسيولوجيّة المقاومين:**

حتّى تكشف المصادر عن أسمائهم كاملة[20] نذكر هنا أنّ مجموع الذين سلّموا أسلحتهم في ديسمبر 1954 كانوا 41 شخصا واستشهد في ساحات القتال ثلاثة وهم الصغيّر بن محمد

16- حول هذا الموضوع والتحام اليوسفيّين بمجاهدي جبهة التحرير الجزائريّة يمكن العودة إلى دراستنا الصّادرة بأعمال المؤتمر الأوّل حول "**منهجيّة كتابة تاريخ الحركات الوطنيّة في المغرب العربي**" الصّادر عن مؤسّسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، 1998 بعنوان: "*التّونسيّون والثّورة الجزائريّة (1954-1958)*" ص ص. 109-141.

17- SHAT., S.2H., C. 2H313. D.1

18- المصدر ذاته.

19- SHAT., S.2H. C.2H313, D1. R. du Colonel Quillichini du 28/7/1956.

20- المصادر المتوفرة تونسيّة أو فرنسيّة حاليا لا تبوح بمعطيات مفصّلة عن مقاومي الخمسينات وخاصة الذين واصلوا مقاومة الاحتلال ضمن ما كان يسمى "بجيش التحرير الوطني" تحت إمرة الطّاهر لسود ثم صالح بن يوسف ذاته والذين تتجاهل السّلط الرّسمية حتى شهداتهم فلا

بن بلقاسم[21] وابراهيم بن المبروك بن جابر[22] وبلقاسم البازمي وهو أشهر مقاومي نفزاوة في فترة الخمسينات ونتوقّف هنا ، عند هذا المجاهد كنموذج للثوّار المعدمين.

ولد بلقاسم بن محمد بن بلقاسم البازمي سنة 1923 ببازمة (قبلي) في وسط فقير حتى بمقاييس الجهة آنذاك وكان أبوه لا يمتلك إلا خمس نخلات وحمار[23] وتصفه التّقارير الأمنيّة على أنه كان زعيم الدّستوريّين بالمنطقة وأوّل من رفع السّلاح في بداية 1952 في نفزاوة والتحق بالطّاهر بوزعيمة والحاج سويدان وقامت هذه المجموعة بعدّة عمليات منها مهاجمة ثكنة سيدي بولبابة بقابس (31 جانفي 1952) وعمليّة خنقة عيشة (فيفري 1952) وعمليّات ساقية حفصيّة (مارس 1952) وخشم ربيب (مارس 1952) ووادي الزّاس (أفريل 1952)[24] وكانت أكبر المعارك التي شارك فيها بلقاسم البازمي قبل ان يهاجر مع رفيقه الطّاهر لسود نحو الشمال هي معركة العيدودي في 14 أوت 1953 شمال الحامّة والتي دامت من السّادسة صباحا إلى الخامسة مساء واستشهد فيها أربعة مقاومين رمت بجثّتهم القوّات الفرنسيّة بسوق الحامّة[25] تنكيلا بهم وترهيبا للأهالي. وبانتقاله نحو الشمال انفصل بلقاسم البازمي عن الطّاهر لسود ليقود فرقة خاصّة واصلت المقاومة بجهة الكاف حتى أكتوبر 1954 حيث حاصرته قوات من الجيش الفرنسي في جبل بزعفران (شرق الكاف) أين قتل وأسّر 11 من مجموعته[26].

ولا يختلف بقيّة من انخرطوا في المقاومة المسلّحة من نفزاوة عن بلقاسم البازمي من حيث أصولهم الاجتماعيّة ومستواهم المعيشي وهم أيضا كبقيّة عناصر "الفلاّقة" في

ذكر لهم مثلا في "السّجل القومي لشهداء الوطن" الذي أصدره الحزب الاشتراكي الدستوري، سنة 1978.

[21]- ولد ببو عبد الله (سوق الأحد) سنة 1916 واستشهد سنة 1952.

[22]- ولد ببازمة (قبلي) سنة 1929 استشهد باحد جبال قفصة سنة 1954.

[23] - فوري، م.م. ص14.

[24]- راجع شاهدة الطّاهر لسود مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة.

[25]- المصدر ذاته.

[26]- ورد خبر قتل بلقاسم البازمي ببرقية هاتفية من جندرمة الكاف بتاريخ 1954/10/27 وذلك بـــ:

SHAT., S/S 2H 158, D.2, f. 915.

الجهات الأخرى من الفقراء والمعدمين[27]. اذ يفيد تحقيق أجري حول موارد عيش المقاومين الـــ 41 الذين سلّموا سلاحهم في ديسمبر 1954 أنّ 24 منهم كانوا لا يمتلكون شيئا لا هم ولا عائلتهم وأنّهم من الخدم والرّعاة والعملة اليوميّين دون دخل محدّد ولا عمل قار ولا نجد من بين البقية من يمتلك الحدّ المتوسّط الضروري لعيش عائلة آنذاك بنفزاوة أي ما تقدّره سلط الحماية بـــ 49 نخلة و 6 زياتين و 6 أشجار مثمرة وحيوانات بما قدره 28.400 فرنك. ويقدّم التّحقيق المذكور كشفا عن ثروة الأكثر غناء من هذه المجموعة الثانية كالتّالي:

- فلان: 3 دقيلات + نخلتين خلط + حمار (متزوّج وأب لستّة أطفال).

- فلان: 6 دقليات + 6 نخلات عليق + 31 نخلة خلط + حمار ملك مشترك مع أخوين.

- فلان: 20 نخلة خلط (ملكية مشتركة مع أخوين).

- فلان: أبوه يمتلك حيوانات بما قيمته 53.300 فرنك ونخلتين خلط.

- فلان: 6 نخلات خلط وحيوانات قيمتها 27.500 فرنك (ملكية مشتركة مع أختين)[28].

أمّا من حيث انتماءاتهم السّياسيّة تفيد الدّراسة المذكورة أنّ خمسة فقط منهم كانوا منتمين للحزب الدّستوري الجديد قبل خروجهم للمقاومة والبقية دون انتماء واضح ما عدا وعيهم بالانتماء إلى الوطن[29]. وهذا يؤكّد أيضا ما نعرفه عن خاصيّة أخرى من خصوصيات المقاومة المسلّحة في الخمسينات وهي أنّ الذين رفعوا السّلاح لم يكونوا من الأطر المسيّرة في التّنظيمات السّياسيّة ولم يكونوا منضوين في أغلبهم للدّستور رغم أنّهم يتقاسمون معه نفس الوعي الوطني كذلك لم يكونوا من الفئات المتعلّمة إلاّ القلّة. فمن بين هؤلاء الثوّار لا نجد إلاّ واحدا كان طالبا بالزّيتونة بينما كان عدد طلبة نفزاوة بفروع هذه

---

[27] – حول هذا الموضوع يمكن العودة للدّراسة التي انجزها النّقيب أندري سوريس في 30 نوفمبر 1955 . منشورة بمجلة روافد عدد 2، 1996.

[28] – فوري، م.م. ص.12.

[29] – فوري، م.م. ص.13.

المؤسّسة سنة 1954 حوالي 300 فرد[30]. هل يعني هذا أنّ بقيّة الفئات من المتعلّمين والميسورين لم تقف إلى جانب الكفاح المسلّح ؟ يصعب الجزم بذلك عندما نعرف أنّ بعض الوجهاء والأثرياء ساندوا الثوّار ماديّا[31] مدفوعين -ومن يدري- هل كان ذلك بحميّة وطنيّة أو برغبة للتّأمين على مستقبل تفلت ناصيته من أيديهم لتتحول بأيدي الأطر الصّاعدة من الحزب الدستوري الجديد والتّعتيم بذلك على ماض ليس دائما "مشرق".

* خصوصيات المقاومة بنفزاوة:

على كل كانت مساهمة نفزواة في المقاومة المسلّحة في الخمسينات متناسبة مع حجمها السّكاني أي بمعدّل 9 ثوّار لكلّ 10 آلاف ساكن تقريبا. ومقارنة بما جدّ في التّراب العسكري لم تفت نفزاوة إلاّ مدنين بـــ 12 ثائرا على 10 آلاف ساكن بينما كانت النسبة 7 في مطماطة و 3 في تطاوين. لكن مقارنة بعدد الثوّار في بني زيد أو الهمامّة ببوزيد وقفصة أو مناطق جلاص وماجر يبدو عدد 41 أو حتى 50- إذ افترضنا أنّ عدد الذين لم يصرّحوا بهويّتهم كمقاومين كان أكثر- يبدو هذا الرّقم لا محالة ضعيفا. عندما نعرف أنّ تلك المناطق جنّدت مئات من القاتلين في الخمسينات. وفي اعتقادنا يعود هذا الضعف في انخراط أهل نفزاوة في المقاومة المسلّحة لعوامل مختلفة:

- طبيعة السّلطة العسكريّة المتحكّمة في نفزاوة ونجاعة سيطرتها.

- قساوة القمع الذي جوبه به ثوّار المنطقة في 1882 و 1915 (ضمن ثورة الودارنة) و 1943-1944 (انتفاضة المرازيق) ربّما أثنى المتجرّئين على تحدّي الاستعمار.

- سكان نفزاوة في غالبيتهم فلاّحون مستقرّون تربّوا على الطّاعة والرّضوخ عكس العروش البدويّة المحاربة التي كانت مستعدّة للتمرّد وقليلة الصّبر على الضّيم لكنّ أكثر من سبعين سنة من الحكم العسكري خضّد شوكة البدو أو وظّفهم لخدمته (أولاد يعقوب والمرازيق في سلك القوميّة والمخازنيّة).

---

[30]- فوري، م.م. ص.16.

[31] - فوري، م.م. ص. 21.

– انعدام الحضور الكلنيالي بالمنطقة باستثناء الجيش الفرنسي أو هنشير الواد المالح بيد شركة استعماريّة (La Société Commerciale et Agricole du Sud Tunisien)منع سكان نفزاوة على غرار جهات أخرى من الشعور بوطأة الاستعمار واستغلاله المباشر.

– نقص الأطر الحضرية (فئات متعلّمة، أصحاب حرف، برجوازية ليبرالية...) التي من شأنها قيادة وعي السكان والارتقاء به.

–بعد المنطقة عن دوائر التّأثير المباشر للحركة الوطنيّة وكذلك الحركة النّقابيّة وتمركزهما المتأخّر نسبيا بالجهة ممّا أضعف العنصر الذاتي في الانتفاضة على الاستعمار وأخّره.

ومهما كان الأمر تبقى مساهمة نفزاوة في مقاومة الاستعمار متميّزة عبر تاريخه بتونس وحتى إجلاء عساكره كاملة من البلاد[32].

[32]– في اصطدامات مع الجيش الفرنسي بقبلي في نوفمبر 1956 استشهد ثلاثة وهم الصّادق بن علي التّردوري وبلقاسم بن محمود بن اسماعيل ومحمد بن الأمين الطّنباري كما استشهد آخرون بمواقع اخرى حتى حرب الجلاء عن بنزرت. (راجع قائمة الشّهداء بـــ **"السّجل القومي لشهداء الوطن"** م.م.

المبحث السادس :

جيش التّحرير الوطني التّونسي:

حقيقته ومصيره

جيش التّحرير الوطني التّونسي:

حقيقته ومصيره*

لا زالت فترة الخمسينات من تاريخ تونس رغم المساهمات العديدة من الباحثين لم تتوضّح أحداثها بما فيه الكفاية لأنّها حتى فترة قريبة كانت من "الطّابوات" التاريخيّة بما أنها تتعلّق بالماضي القريب والمؤسّس للنّظام البورقيبي ولأنّها خاصة ولا زالت مصادرها الأرشيفيّة شحيحة رغم انفتاح جزء هام من أرشيف الجيش والإدارة الاستعماريين بتونس أمام الباحثين والانغلاق المستمر للأرشيف الأمني والقضائي المتعلّق بتلك الفترة. غير أنّ الحيّز الأرشيفي المتاح والكم المعتبر من الشّهادات الشفويّة التي سجّلها المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتونس تسمح نسبيّا بالمجازفة والخوض في أحداث فترة الخمسينات. وقد حاولنا أن نتصدّى في هذه المداخلة إلى موضوع "جيش التّحرير الوطني التّونسي" في ما بين جانفي وصائفة 1956 رغم إيماننا سلفا بحدود هذه المساهمة. **وسنثير فيها مجموعة من النّقاط أهمّها: تحوّل المعارضة اليوسفيّة من المعارضة السّياسيّة إلى القناعة برفع السّلاح ومسألة الاختيار المسلّح في ذهن قادة وجنود جيش التّحرير وحقيقة هذا الجيش تمويلا وتنظيما وعلى ميدان القتال وفي الختام نقف عند نهاية هذه المغامرة المسلّحة وعند مصير "أبطالها".**

نذكّر أوّلا أنّ الدّولة النّاشئة في تونس ورغم ما أقرّته اتفاقيات 3 جوان 1955 من استقلال داخلي للبلاد وما أتى به بروتوكول 20 مارس 1956 من استقلال تام كانت دولة ضعيفة لا تمتلك مقوّمات القوّة الضّروريّة لضمان أمنها الدّاخلي أو الخارجي فالجيش التونسي الذي تكوّن في 18 جوان 1956 كان لا يضمّ في الأوّل سوى 1400 فرد وتسليحه ضعيف كذلك على مستوى قوات الأمن يجب أن نترقّب 18 أفريل 1956 ليقع

---

* نص المساهمة في الملتقى الذي نظّمته " مؤسّسة محمد بوضياف" بالجزائر يومي 11 و 12 ماي 2001 بالجزائر العاصمة. تحت عنوان "محاولات التّنسيق بين جيوش التّحرير المغاربيّة".

تحويل سلط الأمن الداخلي لوزارة الدّاخليّة التونسيّة بمقتضى اتّفاق 7 أفريل. لكن التّأطير والأعوان الفرنسيّين تمادوا لفترة طويلة لاحقة. كما أن الجندرمة الفرنسيّة لم تسلّم مراكزها للسّلطة التونسيّة إلاّ في أواخر 1956 كذلك مصلحة مراقبة التّراب (D.S.T.) لم تعد لاشراف الدّاخليّة التّونسيّة إلاّ في 16 أكتوبر 1956. والأهمّ في اعتقادنا في هذا الجانب السّيادي هو بقاء تمركز الجيش الفرنسي بالبلاد التونسيّة من الجنوب إلى الشمال والذي لم يبدأ انسحابه إلاّ بعد اتّفاق 18 جوان 1958 بين الحكومتين التّونسية والفرنسيّة حول اخلائه للتراب التونسي ما عدا قاعدة بنزرت التي سوف لن يغادرها إلاّ في 15 أكتوبر 1963. هذه الحقيقة جعلت نظام الاستقلال تحت رحمة القوات الفرنسيّة في مجابهة "أعدائه" وهذا ما سنتبيّنه عند استعراض أحداث المقاومة التي سجّلها جيش التّحرير. كما أنّ هذا الحضور الفرنسي الأمني والعسكري وحتى الإداري (بقي المراقبون المدنيّون الفرنسيّون في مناصبهم حتى أكتوبر 1956) سوف يكون من الركائز الاحتجاجيّة للمعارضة على نظام بورقيبة. هذه المعارضة التي مرّت من المجابهة السلميّة لخصومها في النّظام النّاشئ إلى القناعة بالحسم المسلّح معه.

I- المعارضة اليوسفيّة: من المعارضة السياسيّة إلى رفع السّلاح

دون الدّخول في تفاصيل هذه المعارضة لأنّها ليست الغرض من هذه المداخلة نوضّح أنّه لئن كانت تطلق عبارة اليوسفيّة على ذلك التيّار الواسع الذي كان وقف ضد اتّفاقيات الاستقلال الداخلي (3 جوان 1955) وضد الدّيوان السّياسي للحزب الدّستوري الجديد بزعامة بورقيبة ومن تحالف معه خاصة من المنظّمات الشعبيّة وعلى رأسها الاتحاد العام التونسي للشّغل فان الحساسيات والشّخصيات التي انخرطت فيها لا تعلن كلها انتماءها أو ولاءها لشخص صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الدّستوري الجديد والشخصيّة المحوريّة في تلك الحركة[1]. بل كانت تتّفق حول رفض تلك الاتّفاقيات واعتبارها هي دون

---

[1] – من الشّخصيات الرئيسيّة في المعارضة اليوسفيّة مثلا حسين التريكي العضد الأيمن لصالح بن يوسف أو الطّاهر لسود القائد العسكري الميداني لجيش التّحرير اللّذان يقرّان عاليا باستقلاليتهما على بن يوسف ونديّتهما له في موقع التّأسيس للمعارضة للاتّفاقيات ومحاربة الخصوم. راجع في هذا الشأن شهادتي الشخصيتين بوحدة التاريخ الشفوي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية (تونس). كذلك دراسة زميلنا عدنان *المنصر "اليوسفيّة من خلال المصادر الشفويّة. دراسة في الخطاب"*، مجلة روافد، عدد2، 1996، ص 99–144.

ما ناضلت من أجله الحركة الوطنيّة بما أنّها لا تحقّق الاستقلال التّام ولا تقطع مع فرنسا وتقرّ الوجود الأمني والعسكري وتضمن المصالح الفرنسيّة في تونس لآجال أو إلى ما لانهاية وقد جمع هذا التيّار المعارض من داخل الحزب الدستوري أتباع الأمانة العامّة وكانوا في الأوّل (قبل مؤتمر 15 نوفمبر 1955 للحزب الدّستوري) كثيرين كذلك أنصار الحزب الدّستوري القديم الرّافضين لأيّ مرحليّة والمتشبّثين دائما "بالكلّ والآن" أي الاستقلال التّام ودون تأخير انضافت لهؤلاء عناصر أخرى من قواعد النّظام القديم من دوائر العائلة المالكة المتخوّفة -على حق- عن مستقبلها من قيادات دستوريّة لم تخف ميولاتها الجمهوريّة وحتى الثّوريّة عكس غريمها صالح بن يوسف الذي كان قبل اندلاع الانشقاق وخاصّة في خضمّه يكرّر الاشارات الولائيّة للباي والأوساط المحافظة عامّة التي كانت تتخوّف من الخطاب العصري وحتى اللاّئيكي لبورقيبة واتباعه وليس من باب الصّدفة ان يختار صالح بن يوسف الجامع الأعظم ليخطب فيه في 7 أكتوبر 1955 لحشد الأنصار وتأليب الرّأي العام ضد حكومة الاستقلال الداخي وضد أتباع بورقيبة. كما أنّ حضور عناصر من تلك الشرائح المحافظة إلى جانب صالح بن يوسف في التجمّع الكبير الذي نظّمه في 18 نوفمبر 1955 بملعب جيو أندري (الشاذلي زويتن)والذي دعا فيه للعودة للمقاومة المسلّحة لا يدع مكانا للشكّ حول ذلك التّحالف[2]. هذا وقد انخرطت في هذا التيّار المعارض للاتفاقيّات قيادة الاتّحاد العام للفلاحة تخوّفا من الخطاب الاجتماعي الرادكالي للاتّحاد العام التونسي للشغل حليف الدّيوان السّياسي وتحرّزا من البديل التّحرّري والعصرني الذي يحمله مشروع بورقيبة.

ودون التّفصيل في أحداث هذه المرحلة الاولى[3] نعتقد أن التّشدّد الذي جابهت به حكومة الاستقلال الدّاخلي المعارضة اليوسفيّة ومنع عقد اجتماع "الأمانة العامّة" المبرمج لـ 18 جانفي 1956 بالعاصمة وتحريك عناصر النشطين الموالين للدّيوان السّياسي لافساد اجتماعات أنصار صالح بن يوسف وحتى اغتيال بعض أتباعه وخاصة قرار 28

---

[2] – كان إلى جانب صالح بن يوسف في منصّة تجمّع جيو أندري اضافة لبعض رموز الفلاقة وقيادي الحزب الدستوري القديم وجوها مثل رئيس محكمة الوزارة محمود الباجي ومدير الجامعة الزيتونيّة الشاذلي بالقاضي والشيخين مختار بن محمود والهادي بالقاضي والمنصف العقبي نائب رئيس بلديّة الحاضرة. (راجع جريدة Le Petit Matin ليوم 19 نوفمبر 1955).

[3] – لزيادة الاحاطة بتفاصيل تطوّر المعارضة اليوسفية راجع الملحق عدد 3 لهذه المداخلة.

جانفي القاضي بإلقاء القبض على اليوسفيّين [4] رسّخ أكثر لدى العناصر الموالية لبن يوسف قناعتها بضرورة العودة للمقاومة المسلّحة لتحقيق غاياتها في مراجعة الاتّفاقيات الممضاة وفرض استقلال فعلي للبلاد وفي الآن ذاته الفوز بالسّلطة.

وفي هذه الأشهر الأخيرة من سنة 1955 المتميّزة بتجميع الأنصار وتعبئة الصّفوف والمشحونة بالاعتداءات المتبادلة كوّن اليوسفيون المنتمون للأمانة العامّة منظّمة شبه عسكريّة تعرف بـ"الجبهة المضادّة" يشرف عليها موظف بالأمن سابقا وهو عبد الرّحمان بن محمود الشملي في اتّصال مع صالح بن يوسف يزوّدها بالمال والسّلاح[5] . وتكوّنت لنفس الغرض منظّمة أخرى يبدو أنّ هدفها كان الدّفاع عن الذّات والقيام بأعمال ترهيب ضد الخصوم[6] ويشرف عليها أحد المقاومين السّابقين رضا بن عمّار[7]. ولعلّ سرعة

---

[4] – تمكّن صالح بن يوسف من الافلات من الايقاف وهرّبه أنصاره نحو طرابلس. وكان قرار ايقاف اليوسفيّين آت من وزير الداخلية أنذاك المنجي سليم وباتّفاق مع مدير الأمن الفرنسي جون فرانساس.

[5] – اكتشف أمر هذه العصابة في 17 ديسمبر 1955 أما عبد الرّحمان الشملي فقد تمّ ايقافه مع ثلاثة من رفاقه في 21 ماي 1956 ليقدّم للمحاكمة مع متّهمين يوسفيّين آخرين لمحكمة القضاء العليا في ديسمبر 1956 لتصدر عليهم أحكاما قاسية وصلت إلى حدّ الإعدام.

[6] – ليس لنا مع معطيات محايدة أو أرشيفيّة للجزم في طبيعة هذه التّنظيمات اليوسفيّة وكلّما في الأمر أننا نقدّم هذه المعلومات وبحذر مما استقيناه من نصّ الإدانة القضائيّة لليوسفيّين والذي نشرته كتابة الدولة للشؤون الخارجيّة التونسيّة في ديسمبر 1958 في مؤلّف بعنوان "**كتاب أبيض في الخلاف بين الجمهوريّة التّونسيّة والجمهوريّة العربيّة المتّحدة**".

[7] – ولد رضا بن عمّار بتونس في 23 مارس 1926 كان فلاّحا قبل انخراطه النشيط في العمل السّياسي وتدرّب في فترة الحرب العالميّة الثانية في معسكر أشرف عليه مدير الحزب الدّستوري آنذاك الحبيب ثامر. ساهم في المقاومة المسلّحة في مدينة تونس في ما بين 1952 و 1953 حيث أُلقي عليه القبض وتمكّن من الفرار من السّجن واللّجوء لطرابلس ومنها وجّه ليتلقى مع ستين من الوطنيّين تدريبا عسكريّا في القاهرة. عارض اتّفاقيات 3 جوان وأشرف على عصابة مقاومة حدّدت مجال نشاطها المدن. أوقف من البوليس في 21 ماي 1956 وحكم عليه سنة 1957 ضمن اليوسفيّين بـ 20 عاما أشغالا شاقّة. توفّي سنة 1979.

تحرّك الأجهزة الأمنية في المدن والتي كانت تدعمها مليشيات[8] كوّنها البورقيبيون لملاحقة الخصوم بالايقاف والتّرهيب وحتّى القتل[9] هي التي حدّت من النّشاط اليوسفي المعارض في الوسط الحضري لينكفئ نحو الأرياف وخاصة الجبليّة منها حيث انشئت وحدات عسكريّة تنتمي إلى ما سمّي بجيش التّحرير الوطني.

II- حقيقة جيش التّحرير الوطني التّونسي.

لنتساءل أوّلا هل العودة لرفع السّلاح بعد تسليمه في ديسمبر 1954 [10] كان قناعة مبدئية بالمقاومة المسلّحة للتحرّر الوطني عند هذه العناصر التي ثارت من جديد؟ أو هل أنّ تطوّر الأحداث جعل البعض يعدّل من رؤيته وتصوّره لتغيير الواقع؟ في الحقيقة تختلف الاجابة حسب موقع الأشخاص في هذه "المغامرة" المسلّحة ان كانوا قياديّين أو عناصر من المقاومين الميدانيّين. فصالح بن يوسف الذي كان "القائد الأعلى لجيش التّحرير الوطني التونسي" نرجّح أنّ موقفه تغيّر تجاه مبدأ اعتماد العنف المسلّح في خضمّ الصّراع مع بورقيبة وبالتّحديد بعد عودته من مصر إلى تونس في سبتمبر 1955 وليس قبل ذلك ولنا من الشواهد الداعمة لهذا الزّعم. في جانفي 1949 قابله وفد بتونس عن حزب الشّعب الجزائري وحركة انتصار الحرّيات فيه بوقادوم وبن بلة وجمال دردور واقترح عليه بصفته الأمين العام للحزب الدستوري تكوين تنظيمات عسكريّة مشتركة للتّحرير وقد ردّ عليهم صالح بن يوسف وباستعلاء إن ذلك "من باب لعب الأطفال"[11] ونفس الموقف تقريبا واجه به المناضل عز الدّين عزّوز المبعوث من لجنة تحرير

---

[8] – لأنّ هيكل الأمن لم يتونس إلاّ في أفريل 1956 فقد كوّن البورقيبيّون مليشيات تعرف بلجان الرّعاية تابعة لوزارة الدّاخليّة ومكوّنة من قدماء المقاومين يشرف عليها رؤساء عصابات فلاّقة موالين للنّظام الجديد مثل محجوب بن علي (جهة بنزرت وسوق الاربعاء) والسّاسي لسود (جهة قابس) ولزهر الشرايطي (جهة قفصة) وعبد العزيز الورداني (السّاحل)...

S.H.A.T., S.2H, C.2H312, D.2, f.24 et f.365.

[9] – – اغتيال مصوّر الأمانة العامّة محمد بن عمّار (1955/11/29) وعلي اسماعيل سائق سيارة بن يوسف (1955/12/1) وغيرهم دون تتبّع أو محاكمة لمقترفي تلك الجرائم.

[10] – باتّفاق بين الطرفين المتفاوضين الفرنسي والتّونسي سلّم المقاومون مرّة أولى أسلحتهم في 10 ديسمبر 1954 ومنح لهم الأمان مقابل ذلك.

[11] – HARBI (M.), **Le F.L.N., Mirage et Réalité, Dès origines à la prise du pouvoir (1945-1962)**, Paris, Les Editions du J.A., 2ème Edition, 1985, pp. 54-55.

المغرب العربي وعبد الكريم الخطّابي بالقاهرة إذ فاتح في تونس القياديّين الدّستوريّين ومن ضمنهم بن يوسف في أوّل جانفي 1950 في انجاز ما التزموا به في لجنة تحرير المغرب العربي وضرورة الدّخول الفعلي في بعث أسس المقاومة المسلّحة والخطط اللاّزمة لاشعال الثورة وكان ردّ بن يوسف "ان حزب الدّستور حزب سياسي وسلمي ولا ينوي تنظيم انتفاضة مسلّحة ضد الاستعمار"[12]. كما يجب التّنويه هنا بأنّ صالح بن يوسف لم يعارض شرط الجانب الفرنسي ابّان المفاوضات في باريس حول الاستقلال الداخلي أن يسلّم المقاومون أسلحتهم ويتوقّف العنف وهو ما تمّ فعليّا في 10 ديسمبر 1954 بل أنّ بن يوسف تحوّل من جيناف إلى القاهرة ليبرّر قرار الحزب الحر الدّستوري قبول تجريد المقاومين من الأسلحة لدى لجنة تحرير المغرب العربي ونظام جمال عبد النّاصر اللّذان كانا أبديا استياءهما من ذلك القرار[13]. ان تطوّر الأحداث بعد امضاء اتّفاقيات 3 جوان 1955 واستبعاد صالح بن يوسف من طرف فرنسا التي راهنت على بورقيبة وربّما انقطاع أيّ أمل عنده أن يتواجد من جديد في الصّورة التي نحتتها فرنسا للنّظام القادم في تونس[14] رجّح -في اعتقادنا- عند بن يوسف ميله إلى اختيار استراتيجيّة التّحرير المغربي الشّامل والمقاومة المسلّحة والذي تولّد لديه تحت تأثير النّاصريّة وبعد اندلاع الثّورة المسلّحة في الجزائر (نوفمبر 1954).

هذه "الانتهازيّة" السّياسيّة تغيب عند القائد الميداني الفعلي لجيش التّحرير أي الطّاهر لسود[15] إذ كان يؤمن راسخا في نجاعة المقاومة المسلّحة كحلّ وحيد للتّحرير وبضرورة

---

12 - AZZOUZ (Azzedine), **L'Histoire ne pardonne pas, Tunisie: 1938-1969,** Paris, L'Harmattan / Dar Ashraf Editions, 1988, p. 138.

13 - Inspection des Forces Terrestres, Maritimes et Aériennes de l'Afrique du Nord: **"Les partis nationalistes en Afrique du Nord"**, Diffusion restreinte, mars 1955, à I.R.M.C. (Tunis), p. 112.

14 -راجع حول موقف بن يوسف في جانفي 1956 تجاه فرنسا وموضوع الاتّفاقيات في المحادثة التي كان أجراها معه شارل سوماني بـ: "*Entretien Charles Saumagne- Ben Youssef*", in **Les Temps Modernes**, mars 1976.

15 - الطّاهر لسود من بني زيد. ولد بريف حامّة قابس سنة 1911. كان فلاّحا فقيرا يستعين في رزقه من مهنة الخياطة شارك في الحزب الدستوري منذ شبابه. كان من الأوائل الذين رفعوا السّلاح سنة 1952 وأصبح من أبرز قيادي المقاومة. رفض تسليم سلاحه في ديسمبر 1954 والتحق بالثّورة في الشرق الجزائري. عند اندلاع الخلاف اليوسفي البورقيبي اصطف إلى جانب

توحيد الكفاح في بلدان المغرب الثّلاث ويقرّ بأن تحالفه مع بن يوسف كان تحت ضغط جمال عبد النّاصر. فهذا الرّجل الذي جمع بين النّضال السّياسي والعمل الميداني كان له رؤية طهوريّة لمسألة التّحرير فيها ازدراء للسّياسيّين إذ يعتقد إنّ همّهم فقط كحال بورقيبة وبن يوسف هو الوصول إلى السّلطة[16]. وهذا الموقف نجده عند شخصيّة أخرى في الحركة اليوسفيّة لعبت دورا سياسيّا هامّا في التّعبئة لفائدتها وهو حسين التريكي[17] إذ يقول انّ "قيادتنا الحزبيّة لم تكن في مستوى المقاومة المسلّحة (...) ان كلّ من صالح بن يوسف والحبيب بورقيبة كانا ينظران بريبة للكفاح المسلّح خوفا من أن تفلت الأمور من القادة السّياسيّين لفائدة قادة العمل المسلّح"[18].

أمّا بالنسبة لغالبيّة المقاومين الذين كوّنوا قاعدة ما عرف بجيش التّحرير وان عبّر بعض المستجوبين منهم عن قناعتهم بضرورة مواصلة المقاومة حتى الاستقلال التّام ومساندة الثّورة الجزائريّة عند مشاركتهم في وحدات جيش التحرير[19] فاننا نميل انطلاقا مما حصل لدينا من قراءة تقارير الجيش الفرنسي حول تلك الفترة وسماع شهادات بعض المستجوبين إلى اجمال دوافع انخراطهم في ما يسمّونه "بالثورة الثانية" في الحقائق التالية:

بن يوسف وكان من أهم العناصر التي كوّنت العصابات المقاومة من جديد وأصبح القائد الفعلي لها حتى إمضاء بروتوكول الاستقلال في 20 مارس 1956 حيث أعلن اختلافه مع بن يوسف ليعود ويسلّم نفسه للسّلط التّونسيّة في 3 جويلية 1956. توفي بالحامة سنة 1996.

[16] -راجع شهادته المحفوظة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة.

[17] - حسين التريكي من مواليد 1915 بالمنستير. ناضل في صلب الحزب الدّستوري. حكم عليه غيابيّا بالإعدام أثناء الحرب العالميّة الثانية وفرّ من تونس ونشط في القاهرة ضمن الوطنيّين المغاربة وكان من اتباع الحبيب ثامر. اصطف إلى جانب بن يوسف عند الخلاف في الحزب الدستوري في الخمسينات وحكم عليه غيابيا سنة 1957 بالإعدام. ساهم مع الجزائريّين والجامعة العربيّة في التعريف بالقضيّة الجزائريّة والفلسطينيّة. لازال على قيد الحياة (2004).

[18] -بشهادته المحفوظة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

[19] - راجع شهادات سلامة بن صالح بن علي بن سلامة ومبروك بن محمد المحسن وعمر البارودي مثلا بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة.

– قلّة مسيّسة من المقاومين كانت واعية بأن الاتّفاقيات الممضاة (3 جوان 1955) هي دون طموحاتها في تحرير البلاد ولم تكن في مستوى التّضحيات المقدّمة.

– غالبيّة كانت تتصورّ أنّ العودة للمقاومة المسلّحة تدخل في باب المناورة السّياسيّة بين بورقيبة وبن يوسف واقتسام الأدوار لكسب أكثر ما يمكن من التّنازلات لصالح القضيّة الوطنيّة.

– بعض قدماء الفلاّقة الذين انخرطوا من جديد في العمل المسلّح كان لهم شعور بالخيبة إذ لم تقدّر تضحياتهم حقّ قدرها ولم تمنح لهم التّرضيات التي يستحقّونها[20].

– أوضاع الفقر والفاقة السّائدة آنذاك وخاصة في الوسط الرّيفي دفعت العديد للانخراط في صفوف "جيش التّحرير" لضمان دخل أو امتيازات مستقبليّة[21].

– الانتماء العروشي والجهوي يبرز خاصّة في التمرّد الشبه الكامل للجنوب وخاصة الجنوب الشرقي (ورغمّة) وذلك لضافة لانتماء الطّاهر لسود (من الحامة) وصالح بن يوسف (من جربة) إلى الجنوب وغيرهما فإنّ هذه المنطقة من البلاد وحسب اتّفاقيات الاستقلال الداخلي لم يتغيّر وضعها إذ بقيت دائما تحت "قبضة" الحكم العسكري.

– السهوب الحدودية مع الجزائر كانت تحت عدوى المقاومة الجزائريّة التي كانت لها بؤر نشطة هناك.

– قرب الجنوب التونسي من طرابلس مركز القيادة والتدريب ومصدر السّلاح.

– الانتماء العروبي والاسلامي كان أشدّ حدّة بمناطق الأرياف التّونسيّة عامة وبالجنوب بصورة خاصة وذلك لعدم نجاح السّيطرة الثقافية الاستعماريّة فيه (لطبيعة التواجد الاستعماري)، وتأثير الدعاية الناصريّة (راديو صوت العرب) ولأن أطر التّأطير من الوطنيّين كانت جلّها من ذوي التكوين التقليدي الزيتوني وقلة العناصر ذات التكوين العصري من بينها.

---

[20] – انظر مثلا تقرير المخابرات العسكريّة الفرنسيّة بتاريخ 12 نوفمبر 1955. في:
S.H.A.T., S.2H., C.2H310., D1. f.78.

[21] – يقول المقاوم اليوسفي عمر البارودي في شهادته عن الذين تطوّعوا للقتال في صفوف اليوسفيّة : "كثير من النّاس دخلوا المعارضة كذلك طمعا في الإعانات وكثير على حسن نيّة" م.م.

كل هذه العوامل كوّنت تيّارا معارضا سوف ينخرط في المقاومة المسلّحة منذ أواخر 1955 بقيادة الطاهر لسود وقد تهيّأ ذلك بعد اجتماعات تحضيريّة وتنسيقيّة منها اجتماع صالح بن يوسف قبل مغادرته تونس (28 جانفي 1956) في بيته بالعاصمة مع قيادات في المقاومة المسلّحة بالمغرب منها علي الزّليطني والطّاهر لسود والطيّب الزّلاّق من تونس وعبد الحي وعبّاس بلغرور عن المقاومة الجزائريّة بالأوراس ومحمد البصري عن جيش التّحرير المغربي[22] وكذلك اجتماع القاهرة في أواخر فيفري 1956 بين قيادات جيوش التّحرير الثّلاث حضره عن المغرب عبد الكريم الخطيب وعن الجزائر أحمد بن بلّة و عن تونس الطّاهر لسود بحضور الضابط المصري فتحي الذّيب. وقد تقرّر حسب هذا الضّابط بعث قيادة موحّدة لجيوش التّحرير والالتزام بمواصلة الكفاح المسلّح حتى تحرير كامل المغرب[23] في خضم هذه الأحداث سوف يتقلّد الطّاهر لسود القيادة العامة لعصابات المقاومة تحت غطاء "القيادة الثوريّة لتحرير شمال افريقيا"[24]. ثم القيادة العامّة لجيش التّحرير. متى أصبحت هذه العصابات المسلّحة والعاملة في الجنوب وفي غرب البلاد تنتسب إلى "جيش التحرير الوطني التّونسي"؟ يبدو أنّ هذه التّسمية اعتمدت بداية من شهر فيفري 1956 وقد صدر أوّل بيان للقيادة العامّة لجيش التّحرير في 12 فيفري ممضى من الطّاهر لسود نقرأ فيه:"هذا بيان القيادة العامّة لجيش التحرير الوطني التّونسي نوجّهه إلى الشّعب التّونسي: نعلن على رؤوس الملأ للشعب التّونسي والشعب الفرنسي والعالم بأسره أنّنا أحدثنا على بركة الله جيشا تحريريّا وطنيّا تونسيّا مهمّة هذا الجيش هو تحرير وطننا العزيز من قاذورات الاستعمار وأذنابه وقد قرّرنا ضم جيشنا المبارك إلى جيوش إخوننا الجزائريّين والمغاربة. وبهذه المناسبة التاريخيّة نقدّم إلى جلالة ملكنا المعظّم سيدنا ومولانا محمد الأمين الأوّل مراسم ولائنا وإخلاصنا [...] ونحن ندعو الدّولة الفرنسيّة إلى إدراك خطورة الحالة وأنّ لا تربط مصلحة وارادة شعب كامل بمصلحة شخص مهما كان وان تجنح إلى السّلم حتّى نجنح إلى السّلم بدورنا ولا يمكن تحقيق ذلك إلاّ إذا اعترفت الدولة الفرنسيّة بحقوقنا الكاملة وتشرع في فتح مفاوضات حالاّ على قاعدة الاعتراف

---

[22] – عبد الله (الطّاهر)، **الحركة الوطنيّة التونسيّة، رؤية شعبيّة قوميّة جديدة**، سوسة-تونس، دار المعارف للطّباعة والنّشر، الطّبعة الثانية، د.ت، ص 131.

[23] – ALDIB (F), **Abdel Nasser et la Révolution algérienne**, Paris, L'Harmattan, (traduit de l'arabe), 1985, p.178.

[24] – شهادة الطاهر لسود بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة.

بالاستقلال التّام وتكون هذه المفاوضات مع للناطقين الحقيقيّين باسم حزبنا الدّستوري العتيد من الذين بقوا مخلصين للمأموريّة التي عهد بها الشّعب إلينا. وفي الختام نحذّر كل مشوّش وكل انتهازي من العواقب الوخيمة التّي تترقّب كلّ من لم يؤدّ واجبه على الوجه الأكمل ونحذّر كل من يحاول تعطيل عمل جيش التّحرير الوطني في هذه المعركة الحاسمة في تاريخ كفاحنا ومصير أجيالنا المقبلة. أن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم وان ينصركم الله فلا غالب لكم"[25] وهكذا ارتقت معارضة الاتّفاقيات إلى درجة أعلى وتوضّحت استراتجيّة المقاومة المسلّحة في مرحلتها الثّانية.

ممّن كانت تتكوّن هذه القوات المقاتلة؟ لئن اختار أغلب قيادي "الثّورة الأولى" (جانفي 1952- ديسمبر 1954) صف بورقيبة وأصبحوا في خدمته في لجان الرّعاية أو الحرس الاضافي مثل محجوب بن علي والسّاسي لسود ولزهر الشرايطي والشيخ حسن العيّادي وحسن بن عبد العزيز فانّ آخرين انضمّوا إلى الطّاهر لسود وصالح بن يوسف ليكوّنوا عصابات مسلّحة كثيرا ما كانت مشتركة مع المقاومين الجزائريّين تتحرّك على كامل المنطقة الحدوديّة مع الجزائر من جبال خمير شمالا إلى جبال قفصة جنوبا وبجبال مطماطة والظاهر (مدنين وتطاوين) في الجنوب الشرقي [26] وكان من أبرز قياديها الطيّب الزّلاق[27] والهادي قدورة[28] والطّاهر بن لخضر الغريبـــي[29] ومصباح النيفر[30]

---

[25] -جريدة الصّباح. 1956/2/12.

[26] - راجع الخريطة المصاحبة: **"المقاومة اليوسفيّة ديسمبر 1955- صائفة 1956"** المنجزة اعتمادا على تقارير الجيش الفرنسي. ولمزيد التفاصيل حول هذه العصابات وتركيبتها ومجال نشاطها يمكن العودة لدراستنا *حول " التّونسيون والثورة الجزائريّة" الصادرة ضمن أعمال مؤتمر* ***"منهجيّة كتابة تاريخ الحركات الوطنيّة في المغرب العربي"*** عن مؤسّسة التميمي 1998.

Amira ALEYA-SGHAIER, *"Les Tunisiens et la Révolution algérienne (1954-1958)"*, in Actes du Colloque: **"Méthodologie de l'Histoire des Mouvements Nationaux au Maghreb"**, Pub. de la F.T.E.R.S.I., Zaghouan, 1998, pp. 109-141.

[27] - كان الطيّب الزّلاق عاملا بالسكة الحديديّة. عمل بالجيش الفرنسي. شارك في المرحلة الأولى من المقاومة المسلّحة وأصبح من أبرز القياديّين فيها في جهة عين دراهم وجندوبة. عاود المقاومة في صف اليوسفيّين. سلّم نفسه في 8 مارس 1956 وحكم عليه في جويلية 1956 بالاعدام ونفّذ فيه رغم وساطات عديدة.

والناصر بن مسعود الوصيف[31] وعبد اللّه البوعمراني[32] وعبد اللّطيف زهير[33] وعمّار بنّي[34] . أما الأصول الاجتماعية للمقاومين فهم شأنهم شأن مقاومي المرحلة الأولى (52-54) من الأوساط الرّيفية المعدمة والفقيرة وذوي المستوى التعليمي المنخفض (كتّاب) أو الأمّيّين وسياسيا كما ألمحنا لذلك سابقا منظوين على الأقل نظريّا تحت راية "الأمانة العامّة" ولا تشير المصادر التي إطّلعنا عليها[35] إلى مشاركة مثلا من الحزب الدستوري القديم أو من الأعيان المحافظين رغم اصطفافهم المعلن إلى جانب صالح بن يوسف. كما نشير إلى عدم مشاركة المثقّفين في المقامة المسلّحة في هذه المرحلة وكذا المرحلة التي سبقتها إلاّ ما ندر[36].

---

[28] – من مواليد دوز سنة 1922 شارك في الثّورة الأولى مع مصباح الجربوع ومصطفى المرزوقي ومحمد قرفة. وانخرط من جديد في المقاومة في صف الأمانة العام. حكم عليه سنة 1957 بالإعدام ونفّذ فيه.

[29] – من نفطة كان مناضلا دستوريا. رفض تسليم سلاحه في ديسمبر 1954 والتحم بالثورة الجزائريّة في مجموعة طالب العربي. تمكّن من الفرار إلى ليبيا وحكم عليه غيابيا بالإعدام.

[30] – شارك في المقاومة المسلّحة قبل ديسمبر 1954 وفي الثورة الثانية. سلّم نفسه مع عصابته في جانفي 1956.

[31] – الناصر بن مسعود الوصيف. برز في المقاومة اليوسفيّة كقائد لجيش التّحرير الوطني بتطاوين. قتل في معركة مع الجيش الفرنسي في 1 جوان 1956.

[32] – أحد قيادي المقاومة المسلّحة بالجنوب الغربي حكم عليه بالإعدام ونفذّ فيه في 29 سبتمبر 1956.

[33] – أحد قيادي المقاومة في صف الأمانة العامة بجهة زرمدين حكم عليه في أوت 1956 بالأشغال الشاقة مدى الحياة.

[34] – من لقطار (جهة قفصة) شارك في المقاومة المسلّحة في الجنوب الغربي في المرّة الأولى والثانية. وحوكم سنة 1957.

[35] – في الواقع هذا العمل اعتمد خاصة على الشهادات و تقارير مصالح القيادة العامة للجيش الفرنسي بالمصادر التالية:
S.H.A.T., 2H, C. 2H310, D1., -C.2H311, D1 et D2, -C. 2H312. D1 et D2). (Synthèses de renseignements établies par le commandement militaire français en Tunisie).

[36] – حالة المعلّمين حسن بن سالم الحمادي من مكثين (حكم عليه سنة 1957) والطّيب بن محمد بن غرسه من سليانة (حكم عليه سنة 1957).

ماهي القوّة الفعليّة لجيش التّحرير؟ يقدّر الكمندان قيبون (Guillebon) قائد القوّات الفرنسيّة بالجنوب أنّ عدد المقاومين المسلّحين فعلا بالجنوب الشرقي وحده في شهر مارس 1956 بما بين 500 و 700 مقاتل لكن يضيف أنّ المتمرّدين في هذه الجهة يربو عددهم على الخمسة آلاف[37]. وفي شهادته المذكورة آنفا يذكر القائد الميداني للمقاومة الطّاهر لسود رقما قريبا إذ يقدّر عدد المسلّحين ما بين 600 و 700 مقاوم[38]. لكن يبدو أنّ هذا الرّقم ارتفع في الأشهر اللاّحقة وهو ما يرجّحه حجم المقتولين في صفّ الثوّار بجهة مدنين وتطاوين وبني خداش ومطماطة[39].

وبالفعل لو أضفنا المقاتلين الذين كانوا يتحركون في جهة قفصة وتالة وسليانة وسوق الإربعاء والقصرين فإننا نقدّر عدد الذين قاتلوا تحت راية الأمانة العامّة ما بين 1700 و 2000 مقاوم خاصة وأن الذين قد استشهدوا طيلة فترة "الثّورة الثانية" يربو عددهم على 955 شخصا[40]. ونرجّح أن عدد المقاومين الذين انخرطوا في هذه "المغامرة" المسلّحة الثانية كان يساوي أن لم يتجاوز عدد الذين رفعوا السّلاح في ما بين 1952 و 1954 [41].

---

37 – S.H.A.T., 2H., C.2H312, D.2, Synt. de R. du 10 au 25 mars 1956, ff. 387-390.

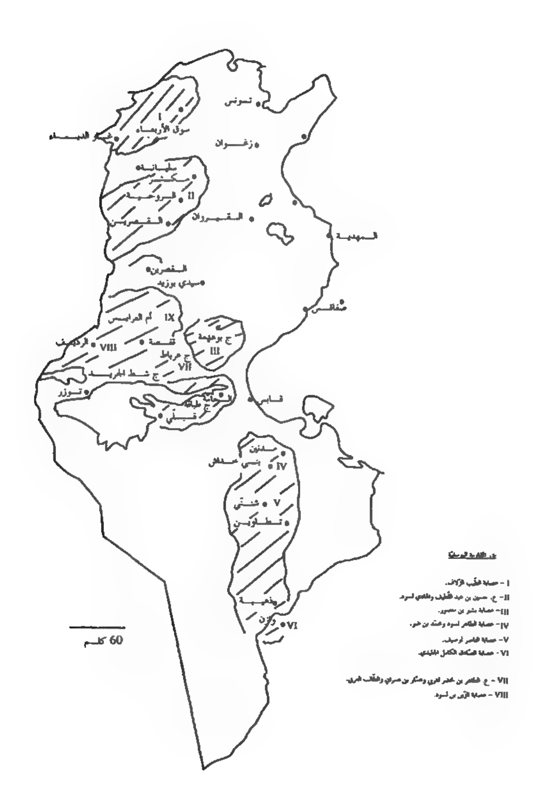
38 – شهادة الطّاهر لسود م.م.

39 – انظر **الملحق عدد 1**: العمليّات العسكريّة التي شاركت فيها عصابات اليوسفيّين.

40 – احصاء قمنا به اعتمادا على مصادر صحافية وعسكريّة ولمعرفة توزيع الشّهداء جغرافيا وزمنيّا يمكن مراجعة "**كرونولوجيا العمليات العسكريّة التي شاركت فيها عصابات اليوسفيّين**" (الملحق 1).

41 – كان عدد الذين سلّموا السّلاح في ديسمبر 1954: 2713 مقاوم. لكن يبدو أنّ الكثيرين الذين قدّموا أنفسهم على أنّهم "صعدوا للجبل" كانوا "مغشوشين" وكانوا يبحثون عن امتياز أو شهادة براءة من ماض مخجل. هذا على الأقل ما صرّح به عديد المقاومين (انظر مثلا شهادة عبد العزيز شريّط (أخ لزهر) والنّاسي بويحي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة).

بؤر المقاومة اليوسفيّة (ديسمبر 1955- صائفة 1956)



كما تميّزت وحدات المقاومة المسلّحة وخاصة التي نشطت في الجنوب الشرقي في ما بين مارس وجويلية 1956 بمهنيّة عسكريّة أكبر من حيث التّدريب (في طرابلس والقاهرة) وخاصة التّسليح[42] الذي كان يأتي من مصر عبر ليبيا وهو ما يقرّه الجيش الفرنسي. يقول الكمندان قيبون عن هذه الوحدات "نحن ازاء عصابات هامّة مكوّنة من رجال أكثر دربة أو على الأقل أحسن تسلّحا وتدرّبا وتأطيرا"[43].

أمّا مصادر التّمويل اضافة لما كان يأتي من سلاح ومال من قيادة المقاومة اليوسفيّة بليبيا أو القاهرة وبدعم من جمال عبد النّاصر[44] فان المقاومين خاصة المتمركزين في جبال قفصة وسليانة والقصرين وخمير فكانت تصلهم الامدادات من المنضوين إلى تنظيم الأمانة العامة أو من السكان طواعيّة أو كرها لأنّ عمليات الابتزاز والسّطو كانت شبه مشرّعة لمقاومة العدو في نظر "المجاهدين" كذلك كانت الجالية الجزائريّة خاصة بجهة سوق الاربعاء والكاف[45] والرّديف تساهم في المجهود الحربي خاصة وانّ العصابات العاملة بهذه المناطق كانت تقريبا كلّها مشتركة وكان يشرف على جمع الامدادات (سلاح، مال، غذاء، أدوية...) عناصر من المقاومين أو جمعيات مثل جمعيّة "السّيف الأسود" ("L'épée noire") والتي كانت تابعة لجيش التّحرير الجزائري تنشط بجهة قفصة بالخصوص[46].

ما هي الآن أعمال المقاومة التي خاضتها فعلا وحدات "جيش التحرير"؟

لكن قبل ذلك من هو العدو الذي كانت تستهدفه هذه الحركة المسلّحة؟ إن كان الأمر بالنسبة للوجود الفرنسي واضحا في استراتجيّة التّحرير المتبنّاة من قيادة المقاومة (التّحرير الشّامل والنّاجز والمسلّح) فإنّ الأمر يختلف بالنّسبة لكيفيّة التّعامل مع النّظام

---

[42] – هذا ما يؤكّده فتحي الذّيب في كتابه المذكور صفحة 120 إذ يفيد أنّه وقع بين 20 مارس و 6 أفريل 1956 ايصال أربع بعثات من السّلاح إلى الجبهة التّونسيّة فيها 330 بندقيّة و 59 رشاشة و 648 قنبلة و 50 مسدّس وكميّة كبيرة من الذّخيرة.

[43] – S.H.A.T., 2H., C. 2H312, D.2.Rapport du 10-25 avril 1956, 454-458.

[44] – راجع في هذا الشأن شهادة الطّاهر لسود. كذلك كتاب فتحي الذّيب، م م. ص ص.85-97.

[45] – كان يعيش بجهة الكاف وحدها سنة 1946 حوالي 1500 معمّر جزائري.

[46] – S.H.A.T., 2H, C. 2H312, D.2., Synt. de R. du 25/3-10/4/1956, par Guillebon, ff. 401-402.

الجديد النّاشئ آنذاك في تونس؟ فبالنسبة للطّاهر لسود والمجموعات الأولى التي انخرطت تحت قيادته (ديسمبر– مارس 1956) فالعدو كان فرنسا وربّما "الأذناب" المتورّطين مباشرة في عرقلة المقاومة المسلّحة ليس أكثر[47] وهذا ما يفسّر تخلّي هذا القائد وأغلب أتباعه عن "التمرّد" منذ إعلان استقلال البلاد (20 مارس 1956). ويختلف الأمر بالنسبة للقائد السّياسي الفعلي صالح بن يوسف فهو كان معاد لفرنسا ومعاد للنّظام البورقيبـــي النّاشئ وبقي على موقفه ذاك حتى بعد تحقيق الاستقلال التّام والجلاء العسكري. يقول في رسالة لقائد قوّاته المقاتلة بتونس مصطفى كامل المرزوقي (بعد ازاحة الطاهر لسود في مارس 1956) بتاريخ 10 جويلية 1956:"إنّنا نكافح أوّلا وبالذّات من أجل انجاز استقلال حقيقي لبلادنا لا من أجل صورة مزيفة من هذا الاستقلال كما نشاهده اليوم وكما رضي به الحبيب بورقيبة. لا نتصور أن يكون لنا استقلال حقيقي ما دامت الجيوش الفرنسيّة تغدو وتروح في بلادنا. ان المجاهدين بجيش التّحرير الوطني التّونسي لم نأمرهم بمواصلة الكفاح من أجل مساعدة الجزائر فقط بل مساعدة الجزائر تأتي كهدف ثاني بعد كفاحنا في الدّاخل ضد العدوين فرنسا وأذنابها يعني حكومة بورقيبة وأعوانها من اضافيّين وحرس متجول الخ (...)"[48].

على الميدان القتالي ما استنتجناه من تتبّع الأحداث العسكريّة التي جدّت في الفترة المدروسة (ديسمبر 1955– صائفة 1956)[49] هو أن المقاومين بادروا مرّات عديدة بالهجوم على القوّات الفرنسيّة أو رموز الوجود الاستعماري من ضيعات معمّرين ومراكز حراسة أو تخريب طرق الايصال لكن زمام المبادرة كان في أغلب الفترات في صفّ القوّات الفرنسيّة ومعينيها من التّونسيّين (الحرس المتجوّل، الاضافيّين، لجان الرّعاية وحدات الجيش الذي لم يبعث إلا في جوان 1956) وخاصة في الفترة التي تلت مارس 1956 والتي يبدو فيها أن القيادة العسكريّة الفرنسيّة قد وعت بخطورة "التمرّد" المسلّح ليس على النّظام البورقيبـــي فحسب بل خاصة على مصالحها في تونس وفي الجزائر إذ

---

[47] – راجع شهادته كذلك رسالته التي وجّهها إلى المقاومين الجزائريّين بتاريخ 23 ديسمبر 1955 والتي نشرناها ضمن أعمال ندوة "**منهجيّة كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي**" م.م. ص 140–141.

[48] – رسالة واردة بـ"**كتاب أبيض...**" م.م.، ص. 81

[49] – راجع كرونولوجيا هذه الأحداث بالملحق عدد 1 لهذا المقال.

كانت إستراتيجية "جيش التّحرير" آنذاك هي عقد الارتباط بجيش التّحرير الجزائري بجهة الأوراس والنمامشة ووادي سوف عبر جبال مطماطة والحامّة وجبال العسكر (قفصة) وتوفير سبل الإمداد العسكري من طرابلس[50]. خاصّة وانّ السّلط التّونسيّة أمام رفض المقاومين حطّ السلاح وطردهم وحتّى قتلهم للمبعوثين من السّلطة لثنيهم على مواصلة المقاومة[51] طلبت تدخّل الجيش الفرنسي[52]. وفعلا كان تدخّل هذا الجيش بالطّائرات والدّبّابات حاسما لمحق قوات المقاومين خاصة في أشهر مارس– أفريل وماي 1956 وقد اقترف مجازر جماعيّة[53] بجبال مطماطة وبني خداش والحوايا ومدنين تركت فيها جثث المئات من المقاومين في العراء دون دفن[54].

إلى جانب الأعمال العسكريّة هذه جدّت على يدي مقاومي اليوسفيّة أعمال أخرى يمكن أن نضعها في خانة الإرهاب السّياسي للخصوم أو "الأعداء" كعمليات الاختطاف وتخريب مكاتب الشّعب التابعة للدّيوان السّياسي وخاصة عمليات الاغتيالات والجديد في هذه الفترة من المقاومة المسلّحة هو عمليات الذّبح للمعارضين أو لمن يعتبرون خونة إذ أحصينا من ديسمبر 1955 إلى جوان 1956/ 24 عمليّة قتل فردي منها 10 تمّت بذبح الضحيّة. مع الملاحظ أنّ هذه العمليات جدّت بالاشتراك مع عناصر جزائريّة وكان موقعها أساسا على الشّريط الغربي من البلاد في تماس مع وحدات جيش التحرير الجزائري[55].

---

50 – راجع مثلا تقرير فيبون بتاريخ 25 ماي 1956. S.H.A.T., 2H., C. 2H312, D2; ff 454-458.

51 – منذ مارس 1956 بعثت السّلطة بوسطاء لاقناع الرّافعين السّلاح بالجنوب على وضع سلاحهم لكن لم تنجح إلاّ في اقناع القليل.

52 – تقرير الجنرال بايّيف (Baillif) القائد العام للقوات الفرنسية بتونس لشهر ماي 1956.
S.H.A.T., 2H., C. 2H 312, D.2., ff. 469-473.

53 – راجع الملحق عدد 1.

54 – شهادة أحد الذين شاركوا في هذه المعارك وهو مبروك بن محمد المحسن بتاريخ 8 جويلية 1994 محفوظة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

55 – مع الملاحظ أن الجانب الآخر أي جانب بورقيبة وان كان بأقل حدّة التجأ إلى نفس أسلوب الاغتيالات وقد أحصينا 7 قتلى في صفّ اليوسفيّين بالرّصاص تنسب لعناصر الدّيوان السّياسي وتحكى أنّه جدّت تصفيات عديدة واغتيالات لليوسفيّين في صبّاط الظّلام (تونس العاصمة)

وهكذا كانت صائفة 1956 نهاية "لجيش التّحرير الوطني التّونسي" بعد التدخّل الحاسم للجيش الفرنسي بتحطيم أغلب عناصره واستسلام البعض[56]. والتجأ القلّة للاندماج في صف وحدات جيش التّحرير الجزائري مثل مجموعات القادة سعيد شيبة من الحرارزة[57] و القائد الطّاهر بن لخضر الغريبي الذي انضمّ إلى العصابة المشتركة التي كان يقودها الجزائري طالب العربي وعبد الله البوعمراني ومحمد الغلوفي النفزاوي وعبد السّلام تامر. كذلك كان تخلّي جيش التّحرير الجزائري عن رفاق السّلاح من المقاومين التّونسيّين خاصة بعد 20 مارس 1956 [58] سهّل حسب اعتقادنا مأموريّة القضاء على "جيش" انتهى غرض وجوده أصلا منذ إمضاء بروتوكول الاستقلال. وسوف تأتي التّتبعات والاعتقالات[59] والمحاكمات السّياسية التي نصبها النّظام من 1956 إلى 1959 على بقيّة عناصره الرّافضة للاستسلام وتقدّم على أنّها قيادات لعصابات "مفسدين" و"مجرمين" و"مخرّبين" وتنزع عنها أي صبغة سياسيّة أو وطنيّة مشرّفة[60].

وبالدّخلة (الوطن القبلي) دون أن نتأكّد من صحتّها لانعدام المصادر الموثوقة. (راجع في هذا الشأن مثلا شهادة حسين التريكي م.م.). وقد أكّد لنا ذلك المناضل علي المعاوية في مقابلة معه في تونس في 2001/4/18.

[56]- راجع الملحق عدد 2 : "**استسلام العصابات اليوسفيّة**".

[57] – حول التحاق التّونسيّين بصف الوحدات الجزائريّة انظر مقالنا "**التونسيون والثورة الجزائريّة**" م.م.

[58] – رغم الفوضى السّائدة سنة 1956 في صفوف المقاومة الجزائريّة كان الاتّجاه العام لقيادييها هو استغلال الاستعداد الذي أبدته السّلط التّونسيّة وما مارسته فعلا كتنظيمات وحزب وحرس وطني من تقديم المعونة للمقاومة الجزائرية وتسهيل تسريب السّلاح لها لتنظيم صفوفها وتركّزها بتونس. راجع في هذا الشأن مقالنا "**التّونسيون والثورة الجزائريّة**" م.م.

[59] – حسب الطّاهر عبد الله كان سجن من اليوسفيّين 1200 شخص، م.م.، ص. 155.

[60] – راجع نصوص بعض المحاكمات **بالكتاب الأبيض** السّابق الذّكر. وفي الواقع إن صالح بن يوسف سوف يستغلّ لاحقا واجهة "جيش التّحرير الوطني" في محاولاته الانقلابيّة ضدّ بورقيبة بدعم من النّظام المصري و بعض القياديّين في جبهة التّحرير الوطني الجزائري وذلك حتى نهايته مغتالا في 12 أوت 1961 بألمانيا.

خـــاتمـــة:

إنّ المقاومة المسلّحة التي نشطت من ديسمبر 1955 إلى صائفة 1956 ساهمت لا محالة في اخضاع فرنسا لمطالب الوطنيّين في اتمام الاعتراف بسيادتهم على وطنهم وتحقيق الاستقلال وجرّت القيادة البورقيبيّة عن قناعة أو تحسّبا لسحب البساط من تحت أقدام خصومها من اليوسفيّين إلى دعم المقاومة الجزائريّة ورفع شعارات التّضامن المغربي لكن هذه الهبّة المسلّحة أتت متأخّرة نسبيّا لأنّها تعارضت مع مصالح فئات جديدة كانت متعجّلة ومصرّة على تركيز سلطتها وإزاحة منافسيها حتى ولو تحالفت مع عدو الأمس وفي الآن ذاته كانت كذلك تهدّد وبصورة حيويّة استراتيجيّة الجيش الفرنسي في إطفاء نار الثّورة التي تشتعل في الجزائر. ولعلّ الحقائق التي سوف تضيفها الدّراسات الموضوعيّة حول هذه الفترة من تاريخ النّضال الوطني في تونس والمغرب عامة تعيد الاعتبار لمئات من الوطنيّين ضحّوا من أجل انعتاق بلدانهم ولا زالوا مستبعدين من التّاريخ الرّسمي وحتى الأكاديمي.

ملحق1:

العمليات العسكريّة التي شاركت فيها عصابات اليوسفيّين[61].

- **19 أكتوبر 1955:** 200 مسلّح يهاجمون في الآن ذاته المركز المنجمي بالرّديّف والمركز الحدودي بتمغزة الذي كان بيد الاضافيّين من التونسيين. وقتل 3 فنّيين فرنسيّين من موظفي المنجم.

- **24 أكتوبر 1955** : اغتيال جندرمي بمسكو (برج العامري).

- **25 نوفمبر 1955:** تخريب الخطوط الهاتفية بين بنزرت ومجاز الباب.

- **29 نوفمبر 1955:** اشتباك مسلّح بين الثوّار وقوات الجيش بالرّديّف.

- **2 جانفي 1956:** عمليات عسكريّة ضد اليوسفيين في جهة قفصة والقصرين.

- **5 جانفي 1956:** اعتداء مسلّح على مقر الحزب الدستوري (الديوان السّياسي) بسيدي عيش.

- **9 جانفي 1956:** اعتداء مسلّح على مقر شعبة سيدي علي بن عون (سيدي بوزيد) وتخريبها من 10 مسلّحين.

- **14 جانفي 1956:** اشتباك في جهة قفصة بين قوّة من القوم ومجموعة من الثوّار قتل من الأخرين واحد.

---

[61] – اعتمدنا لانجاز هذه الكرونولوجيا على المصادر التالية:

- DAR EL AMAL, **Le Nouvel Etat**, dans la série H.M.N.T., Pub. de Dar El Amal, Tunis, 1983, Tome3, pp. 201-283.
- Le journal **"Le Petit Matin"** 1955-1956.
- S.H.A.T., 2H., C 2H310, D.1.; -C. 2H 311, D1 et D2; - C. 2H 312, D1 et D2. (synthèses de renseignements établies par le Commandement militaire français en Tunisie).

- **11 جانفي 1956:** اعتداء على حافلتي نقل وحرقهما بعد الاستحواذ على عائداتها المالية بالطريق فرنانة–القصرين.

- **21 جانفي 1956:** في جبل البليجي (جهة قفصة) اشتباك عنيف بين عصابة مشتركة جزائريّة– يوسفيّة مع الجيش الفرنسي خسر فيها الثوّار 29 قتيلا و 9 أسرى وفي الجانب الفرنسي: 2 قتلى و5 جرحى.

- **26 جانفي 1956:** تخريب السكة الحديديّة بين تونس وغار ديماو واتلاف خطوط الهاتف بين تونس وسوسة وتونس– سوق الإربعاء.

- **31 جانفي 1956:** ايقاف 13 فردا منظوين إلى عصابة عبد اللّطيف زهير بجهة زرمدين.

- **5 فيفري 1956:** عصابة من 50 فردا تهاجم حضيرة أشغال عامة قرب سبيطلة وتخرّب كلّ الآلات فيها.

- **9 فيفري 1956:** 40 متمرّدا يقومون بسلب أموال السكان بفرنانة (عين دارهم.)

- **12 فيفري 1956:** عمليّة عسكريّة في الرّديف أسفرت عن مقتل 4 أشخاص منهم عسكريان فرنسيان وجرح 10 .

- **12 فيفري 1956:** مهاجمة ضيعتين لمعمّرين بمكثر.

- **13 فيفري 1956:** اطلاق الرّصاص من متمرّدين على سيارة عسكرية (جرح اثنان).

- **15 فيفري 1956:** بجهة سليانة قتل 20 متمرّدا في اشتباك مع قوّة من الاضافيّين التّونسيّين.

- **15 فيفري 1956:** 50 متمرّدا يهاجمون مركز الجمارك ببوشبكة ويشتبكون مع قوات الجيش.

- **17 فيفري 1956:** انفجار مدبر في منجم بالكاف أسفر عن قتيلين وجريحين.

- **21 فيفري 1956:** مهاجمة ضيعة بجهة منزل تميم .

- **22 فيفري 1956:** متمرّدان يقتلان في جهة غار ديماو في اشتباك مع الجيش.

- **24 فيفري 1956:** في وشتاتة ذبح المتمرّدون 3 أشخاص وجرحوا آخر.

– **27 فيفري 1956:** مهاجمة مركز المراقبة بأم علي (جهة قفصة) من عصابة حمدي باشا المزوني.

– **29 فيفري 1956:** في جهة القصرين في كمين نصبه الثوار قتل عسكريان وجرح ثلاثة كما ذبح اثنان من الاضافيّين التونسيّين.

– **29 فيفري 1956:** اشتباك في جهة الكاف بين قوة من المخزن وعصابة الطيب الزّلاق أسفرت عن مقتل واحد من المتمرّدين وجرح ثلاثة.

– **7 مارس 1956:** المتمرّدون يقتلون في منطقة العروسة الأخوين طومسّان Thomassin.

–**8 مارس 1956:** مهاجمة مطعم "La Tonelle" بقفصة بقنبلتين. جرح سبعة وقتل واحد.

– **9 مارس 1956:** انفجار بمقهى "Arthur" بقفصة . قتل واحد وجرح آخر.

– **9 مارس 1956:** في الجنوب الشرقي بين 500 و 700 مقاوم من اليوسفيّين يعلنون تمرّدهم ويحتمون بالجبال خاصّة في بني خداش.

– **10-22 مارس 1956:** أسفرت العمليات العسكريّة التي يشنها الجيش الفرنسي ضد ثوار جبال مطماطة على قتل 103 منهم وقتل 10 في الجانب الفرنسي.

– **26 مارس 1956:** بمطماطة قتل 14 متمرّدا من طرف القوّات الفرنسيّة.

– **27 مارس 1956:** بجهة غار الديماو بجبل سينا أثناء اصطدام مع الجيش وقع قتل 10 متمرّدين وأسر 10 آخرين.

– **28 مارس 1956:** اسفرت العمليّات العسكريّة في مطماطة ضد المقاومين إلى مقتل بين 250 و 300 شخص. ووقع أسر 20.

– **31 مارس 1956:** في جهة مدنين طائرات F.47 و "Mistral" التابعة للفرقة الثالثة الفرنسية تهاجم الثوّار وتلاحقهم عديد المرّات مما أدّي إلى مقتل حوالي 100 من الثوّار.

: التحام بجهة غار ديماو قتل فيه أحد الثوّار.

– **2 أفريل 1956:** في جهة قفصة ومطر في التحام مع قوات الجيش: قتل 16 من الثوّار وأسّر 21.

– **4 أفريل 1956:** في جهة قفصة عصابة يقودها حسين بن عبد اللّطيف الحاج تهاجم ثلاث سيّارات وتقتل سائقيها ذبحا (فرنسي وإيطاليان).

:في تالة في اشتباك مع قوات الوجق ولجنة الرّعاية قتل 4 ثوار وأسّر 16. باعانة الجيش.

: في الحامّة اشتباك مع لجنة الرّعاية بقيادة السّاسي لسود قتل فيه أحد الثوّار.

: في غارديماو في اشتباك مع قوات الأمن جرح اثنان من هذه القوات وأسّر ثلاثة من الثوّار.

– **6 أفريل 1956:** اشتباك في جهة قفصة قتل فيه 9 من الثوّار وأسّر 60 منهم. وقتل واحد من العسكر.

: في اشتباك في الجنوب التونسي مع مجموعة تسريب أسلحة قتل أحد الثّوار وأسّر 2 منهم.

: في جهة قابس: قافلة تحمل السلاح تتصدّى لها لجنة الرّعاية والجيش وتحجز حمولتها من الأسلحة. ويقتل في العمليّة ثائران.

: في بني خداش: في اشتباك مع الجيش وقع قتل 3 ثوّار وغنم أسلحة. جرح 2 من قوات الأمن .

: بجبال العسكر وطانيش: أسفرت العمليات العسكرية ليومي 6 و 7 أفريل على مقتل 15 من الفلاّقة ومقتل 2 وجرح 3 من قوات الأمن.

–**10 أفريل:** سبيطلة الثوّار يحرقون 12 ألف طن من الحلفاء.

– **11 أفريل:** اشتباك في غارديماو وفي قفصة أدّى إلى أسر 22 من الثوّار وغنم أسلحة.

– **16 أفريل:** ببني خداش: اشتباك مع قوات الأمن أدّى إلى مقتل 4 في صف الثوّار.

– **26 أفريل:** في الرّديّف: مقتل 1 من الثوّار وأسر اثنان.

– **28 أفريل:** اشتباك بعين زارات (قابس) أسفر عن قتيل 1 وأسر آخر من بين المتمرّدين وجرح 6 من قوات الأمن.

– **28 أفريل:** اشتباك بتالة: قتل 1 من الثوّار وأسر 3 منهم.

– **3 ماي:** اشتباك بجبل سيدي عيش (قفصة) قتل فيه 3 من الثّوّار.

: المتلوي: خطف عاملين بالمنجم ثم ذبحهما.

– **4 ماي:** على الحدود التونسية- الجزائرية: اشتباك عنيف مع قوات من المخزن و الاضافيّين والجيش أسفر عن مقتل 66 من الثوّار وأسر 8 وغنم أسلحة كثيرة.

– **8 ماي:** في ذهيبة: الثوّار يضعون كمين لدوريّة من القومية قتل فيه اثنان من القومية.

– **9 ماي:** انفجار قنبلة أسفرت عن جرح 5 من العساكر.

– **10 ماي 1956:** في جبل عرباطة (قفصة) القضاء على عصابة عبد اللّه البوعمراني بما فيها قائدها. (17 فردا)

: – في جهة قفصة: الطّائرات تسحق قافلة مهرّبي أسلحة.

– **11 ماي 1956:** عملية من الثوّار بجبال خمير قتل فيها 3 عساكر وجرح 8 (كمين).

– **16 ماي 1956:** غارديماو: اشتباك قتل فيه اثنان من الثوّار.

– **19 ماي 1956:** في جهة قفصة اشتباك قتل فيه 50 من الثوّار.

– **25 ماي 1956:** أسفرت المشادات بجبل السّمارة على قتل 21 من الثوّار.

– **29 ماي 1956:** اشتباكات عنيفة بمدنين وتطاوين مع الجيش الفرنسي أسفرت على مقتل 73 من الثوّار وجرح 17 وأسر 17 منهم قائدهم العجمي المدوّر. كما قتل من قوات الأمن 3 منهم ضابطين فرنسيّين. وقد جدّت العمليات بدعم الطائرات وقوات المخزن المتجوّل.

: اشتباك بجهة مكثر بين قوات الامن والمتمرّدين أدّى إلى قتل 3 من الثوّار وأسر 9 منهم.

– **30 ماي 1956:** في اشتباك بمدنين أحمد لزرق أحد القوّاد اليوسفيّين يقتل.

– **ماي 1956:** حصيلة القتلى في صفّ الثوّار في الجنوب بهذا الشهر: 242 وفي صف القوات الفرنسية 23.

– **1 جوان:** استئناف العمليّات ضدّ الثوّار بجهة مدنين. وكانت حصيلة هذا اليوم فقط 40 قتيلا من بين الثوّار منهم القائد النّاصر بن مسعود الوصيف الذي يحمل رتبة قائد "جيش تحرير تطاوين".

– **8 جوان:** مواصلة العمليات في جهة تطاوين وقد أسفرت على مقتل(؟) وأسر 61 من الثوّار وغنم 47 قطعة سلاح و 4000 خرطوشة.

– **15 جوان:** قافلة قادمة من طرابلس تحمل أسلحة وقع اعتراضها بجهة بن قردان حيث تم الاستحواذ على جلّ حمولتها وقتل 2 من مصطحبي القافلة.

– **30 جوان:** ببن قردان حيث تتواصل العمليات منذ 24 جوان وقع ايقاف 15 من الثوّار وجرح 4 وغنم أسلحة عديدة.

* * *

ملحق2:

استسلام العصابات اليوسفيّة[62]

– **31 جانفي 1956:** ايقاف 13 فردا منضوين إلى عصابة عبد اللّطيف زهير بجهة زرمدين.

– **1 فيفري:** استسلام عمّار بني وعصابته بجهة قفصة.

–**4 فيفري:** 5 أفراد من عصابة الطيب الزّلاق يسلمون أنفسهم لقائد سوق الإربعاء.

– **6 فيفري:** 7 عناصر من عصابة الطيّب الزّلاق يقع القبض عليهم.

[62] – نفس المصادر المعتمدة في الملحق عدد 1.

– **27 فيفري**: ايقاف عصابة رضا بن عمّار واكتشاف كميّة من القنابل بالمرسى.

– **3 مارس**: ابراهيم لزيل سلّم نفسه للقايد.

– **7 مارس**: ايقاف 12 من أفراد عصابة بن عمّار.

– **8 مارس**: لجنة الرّعاية تلقي القبض على عصابة من 7 أفراد مع قائدهم.

– **1 ماي**: رؤساء العشائر بقبيلة غبطن المتمرّدة على الحدود الجنوبيّة منذ أسابيع يعلنون عن استسلامهم وولائهم للرئيس بورقيبة.

– **1 ماي**: استسلام عصابة كانت تنشط بجهة مجاز الباب وتبرسق (9 ثوّار).

– **8 ماي**: الطيّب الزّلاق (وعصابته) يسلّم نفسه إلى محجوب بن علي (10 أفراد من عصابته).

– **4 ماي**: بسبيطلة: 3 من الثوّار يستسلمون ويقدّمون أسلحتهم.

– **10 ماي**: القضاء في جبل عرباطة على عصابة عبد اللّه البوعمراني 17 فردا.

– **21 ماي**: أربعة من ثوّار جهة سبيطلة يستسلمون بأسلحتهم للسّلط المحلية.

: 16 فردا من عصابات مختلفة يسلّمون أنفسهم بأسلحتهم لقائد قفصة.

: في سيدي بوزيد: 6 من الثوّار يسلّمون أنفسهم مع أسلحتهم لقائد الجهة.

– **23 ماي**: 8 ثوّار أصيلي أولاد يحي (المضيلة) يقدّمون أنفسهم لقائد قفصة.

– **24 ماي**: 19 من الثوّار يقدّمون أنفسهم إلى قائد قفصة.

: 12 من الثوّار يقدّمون أنفسهم للسّلط بأم العرايس.

: عديد من القياديّين اليوسفيّين ورؤساء العروش يعلنون عن ولائهم لقائد قابس.

– **25 ماي**: بتوزر ثلاثة من ثوّار الجهة يستسلمون.

– **28 ماي**: في قفصة 26 متمرّدا يقدّمون أنفسهم للسّلط بالجهة.

– **29 ماي**: بتطاوين (أو مدنين) تحطيم عصابة العجمي المدوّر.

– **30 ماي** : بسبيطلة إلقاء القبض على رئيس عصابة، قاتل حسين بوزيان وهو عبد اللّه بن الشّيخ عمران.

: في اشتباك بمدنين أحمد لزرق أحد القوّاد اليوسفيّين يقتل.

– **1 جوان:** بجهة مدنين تحطيم عصابة ناصر بن مسعود الوصيف وقتل هذا الأخير.

– **2 جوان:** عديد القادة اليوسفيّين من جهة مطماطة يعلنون ولاءهم لبورقيبة.

: 24 من الثوّار يستسلمون بأبّة قصور بأسلحتهم وذخيرتهم.

: 13 من الثوّار يستسلمون بقفصة بأسلحتهم وذخيرتهم.

– **5 جوان:** 45 من الثوّار يستسلمون بقفصة.

: 45 من الثّوار يستسلمون بتطاوين ويقدّمون سلاحهم الحربي.

: 2 من الثّوار يستسلمون بسيدي بوزيد.

– **8 جوان 1956:** 10 من ثوّار أولاد عزيز يستسلمون مع قائدهم لقائد سيدي بوزيد مع أسلحتهم.

– **11 جوان 1956:** 20 من المقاومين يستسلمون لقائد نفزاوة.

– **16 جوان 1956:** استسلام عصابة علي بن أحمد المهداوي المتكوّنة من 31 متمرّدا وقد قدّموا 23 بندقيّة و 920 خرطوشة وقنبلة.

: بأبة قصور استسلام 8 من الثوّار بأسلحتهم.

– **20 جوان:** 10 من الثوّار يسلّمون أنفسهم للسّلط بالقصور ويقدّمون أسلحتهم (9 بنادق مع 300 خرطوشة).

– **3 جويلية 1956:** استسلام الطّاهر لسود.

– **18 جويلية 1956:** 96 من الثوّار يسلّمون أسلحتهم لوالي قابس.

– **23 جويلية:** 165 من الثوّار اليوسفيّين يقدّمون أنفسهم لوالي قابس.

ملحق 3

.

الأحداث الكبرى في المعارضة اليوسفية[63]

- **13 سبتمبر 1955:** عودة صالح بن يوسف إلى تونس حيث يحظى باستقبال كبير.

- **3 أكتوبر 1955:** اجتماع صالح بن يوسف وخطابه في مقر جامعة الحزب الدّستوري بتونس يلقى مساندة كبيرة لموقفه الرّافض للاتّفاقيات.

7 أكتوبر 1955: خطاب بن يوسف في جامع الزيتونة وحكمه على اتّفاقات 3 جوان 1955 بالخيانة و اعتبارها "خطوة إلى الوراء".

- **8 أكتوبر 1955:** الديوان السّياسي يجرّد بن يوسف من صفته كأمين عام للحزب و يفصله منه.

- **13 أكتوبر 1955:** خطاب منفلوري في تونس حيث نادى فيه بن يوسف إلى مقاومة وإفشال الاتفاقيات.

- **31 أكتوبر 1955:** تدشين مقر "الأمانة العامة" (حزب بن يوسف) بنهج الجزيرة بالعاصمة.

- **7 نوفمبر 1955:** صالح بن يوسف يبدأ جولة تعبويّة في الجنوب الشرقي (حومة السّوق، تطاوين بنقردان).

- **11 نوفمبر 1955:** الطاهر لسود يعلن عن انضمامه لصالح بن يوسف.

- **12نوفمبر 1955:** عودة حسين التريكي إلى تونس وانضمامه لصالح بن يوسف (الشخصيّة الثانية).

---

[63] المصدر: نفس المصادر المعتمدة في الملحقين 1 و 2.

– **20 نوفمبر 1955** : جولة دعائية لصالح بن يوسف مصحوبا بالطاهر لسود والتريكي بقابس ولعراض وبني زيد ومدنين.

– **25 نوفمبر 1955**: تظاهر الفلاقة في تونس واقتحامهم دار الباي "يطالبون بمنح والتشغيل" .

– **27 نوفمبر 1955**: الاتّحاد العام للفلاحة بتونس يعلن معارضته لاتفاقيات 3 جوان 1955 وينحاز إلى بن يوسف.

– **17 ديسمبر 1955**: إعلان المندوب السّامي الفرنسي بتونس والحكومة التونسية على اكتشاف عصابة خطيرة (عصابة عبد الرحمان الشّملي).

– **4 جانفي 1956**: ايقاف عليّة بن محمد بن عليّة رئيس عصابة مقاومة وقريب الطاهر لسود.

– **9 جانفي 1956**: صالح بن يوسف يقدّم لشيخ المدينة اعلاما بعقد مؤتمر وطني للأمانة العامة يوم 18 جانفي بالعاصمة.

– **11 جانفي 1956**: الحكومة تعلن منع انعقاد مؤتمر الأمانة العامّة.

– **21 جانفي 1956**: انفجار قنبلة في مقر الأمانة العامة بباب الجزيرة.

– **28 جانفي 1956**: عمليات تفتيش في مقر الأمانة العامّة والخلايا اليوسفيّة حيث وجدت أسلحة.

: القاء القبض على حوالي 50 من أنصار بن يوسف (علي الزليطني...) وتمكن بن يوسف من الفرار.

– **1 فيفري 1956**: مدّة الثماني والأربعين ساعة السّابقة البوليس يلقي القبض على 115 يوسفيّا منهم 32 بجهة تونس.

– **6 فيفري 1956**: خليّتا الأمانة العامّة في جبناينة وتبرسق تنضمّان إلى الدّيوان السّياسي.

– **26 أفريل 1956**: رئيس الجامعة اليوسفيّة بالوطن القبلي يعلن ولاءها لبورقيبة.

- **19 ماي 1956:** قائد المنظّمة اليوسفيّة في سيدي بورويس يعلن انضمامه لبورقيبة وولائه في برقيّة بعثها له.

-**21 ماي 1956:** رضا بن عمّار زعيم المنظّمة "الإرهابية" اليوسفيّة بتونس العاصمة يقبض عليه مع ثلاثة من أفراد عصابته. كما وضع الأمن يده على كمية هامة من الأسلحة والذّخيرة.

- **3 جويلية 1956:** استسلام أشهر القياديين الميدانيّين "اليوسفيّين" الطّاهر لسود وقد قدّم نفسه لوالي مدنين.

- **16 جويلية 1956:** محكمة القضاء العليا التي أحدثت في أفريل 1956 تبدأ سلسلة من المحاكمات تواصلت حتى سنة 1959 في حق اليوسفيّين وتصدر أحكاما قاسية في شأنهم منها عشرات الإعدامات.



ببليوغرافيا الكتاب

بيليوغرافيا

أولا : مصادر أرشيفية :

لكي لا نثقل على القارئ نشير أنه وقع استغلال كل المصادر الأرشيفية المتاحة تقريبا بأرشيف المصلحة التاريخية للجيش الفرنسي كذلك أرشيف الإقامة العامة بتونس وأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، وهي مذكورة في الإحالات السفلية بالتفصيل. وبصورة أقل التجأنا إلى محفوظات الأرشيف الوطني التونسي.

ثانيا : منشورات بالعربية :

1- كتب :

- التليلي، أحمد، **في سبيل الديمقراطيّة**، مطبعة تونس قرطاج، 1991.

- جماعي، **نساء وذاكرة**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 1993.

- الحزب الإشتراكي الدستوري، **السجل القومي لشهداء الوطن** دار العمل تونس 1978.

- الزّغل، حامد، **جيل الثورة**، تونس، سراس للنشر، 2001.

- شاكر، عبد المجيد، **الهادي شاكر**، صفاقس، التعاضديّة العمّالية للطباعة والنشر 2003.

- ضيف الله، محمد، **الحركة الطالبيّة التونسيّة (1927-1939)**، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان 1999.

- ضيف الله، محمد، **المدرج والكرسي بحوث حول الطلبة التّونسيّين بين الخمسينات والسبعينات**، صفاقس، مكتبة علاء الدّين، 2003.

- عبد اللّه، الطّاهر، **الحركة الوطنيّة التونسيّة، رؤية شعبيّة قوميّة جديدة**، سوسة-تونس، دار المعارف للطّباعة والنّشر، الطّبعة الثانية، د.ت.

- العياشي، المختار، **البيئة الزيتونيّة (1881-1956)**، تعريب حمادي الساحلي، دار تركي للنشر، تونس، 1990.

- قرار، الحبيب ، **لتحي تونس**، تونس، مطبعة بوسلامة، 1996.

- كتابة الدولة للشؤون الخارجيّة التونسيّة، **كتاب أبيض في الخلاف بين الجمهوريّة التّونسيّة والجمهوريّة العربيّة المتّحدة**، 1958.

- كرّو، أبو القاسم محمد، **الشهيد الحبيب ثامر في ذكراه**، تونس. سوسة، دار المعارف، 1999.

- ليسير، فتحي، **من المملكة الشريفة إلى البطولة الوطنيّة**، صفاقس، ميدياكوم، 1999.

- مبارك، زكي، **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب**، الرّباط، فيديرانت، 2003.

- المرزوقي، محمد والمرزوقي، علي ، **ثورة المرازيق**، تونس، دار بوسلامة، 1979.

- المرزوقي، محمد، **دماء على الحدود**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1975

- المرزوقي، محمد، **صراع مع الحماية** ، دار الكتب الشرقية، تونس 1973.

- المنصر، عدنان وعليّة الصغيّر، عميرة، **المقاومة المسلّحة في تونس، الجزء الأوّل، 1881-1939**، نشر معهد الحركة الوطنية الوطنية، تونس، 1997.

- المولهي، محمد الحبيب، **الوطن والصّمود**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1991.

2- مقالات وشهادات :

- "شهادة أحمد الزّمني"، **المجلة التاريخية المغاربية**، عدد 110، جانفي 2003.

- ابن صالح، أحمد، **إضاءات حول نضاله الوطني والدولي**، زغوان، فترسي، 2002، ص 110.

- ابن الصغير، خالد، "انتفاضة 20 غشت 1955 بوادي زم : الجذور والواقع"، في، **ندوة المقاومة المغربية ضد الإستعمار (1904-1955)**، نشر المندوبية السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 1991، ص 336- 374.

- ابن عامر، علي، "سيرة صالح بن يوسف"، **أطروحات** (تونسية)، عدد 15، 1989.

- ابن يوسف، عادل، "مساهمة الوسط المدرسي في المعركة التحريريّة"، 1952-1954، **روافد** عدد 9، 2003 ص 7-38.

- الزغل، حامد، "مساهمة اتحاد الطلبة في المعركة الحاسمة"، **روافد**، عدد. 7، 2002، ص 101-111.

- الشهادة السياسية لمحمد النافع في ندوة "أيام الذاكرة الوطنية" بمؤسّسة التميمي **بالمجلّة التاريخية المغاربيّة** عدد 11 جوان 2003.

- الغول، يحي، "أحداث جانفي 1952 بنابل"، **المجلّة التاريخيّة المغاربيّة**، عدد 109، جانفي 2003، ص 159-169.

- ضيف الله، محمد، "التراب العسكري من الخضوع إلى الرّفض: مثال نفزاوة (1881-1956)"، **المجلّة التّاريخيّة المغاربيّة**، عدد 97-80، ماي 1995، ص 521-538.

- علية الصغير، عميرة، "كرونولوجيا أهم أحداث النضال العمّالي في تونس وواقعهم بين 1881 و1956"، **فرحات حشاد. الحركة العمّاليّة والنّضال الوطني**، نشر مؤسّسة التميمي، زغوان، 2002، ص 93 -107.

- لبيض، سالم، "تطوّر حركة المقاومة في أقصى الجنوب التونسي من القبيلة إلى الخلية الحزبية" بـ: **منهجيّة كتابة تاريخ الحركات الوطنية في المغرب العربي**، نشر مؤسّسة التميمي، زغوان، 1998، ص 121-167.

- المنصر، عدنان، "اليوسفيّة من خلال المصادر الشفويّة. دراسة في الخطاب"، مجلة **روافد**، عدد2، 1996، ص 99-144.

3- أطروحات مخطوطة:

- التركي عروسية، **الحركة اليوسفية في الجنوب التونسي (1955-1956)**، أطروحة التعمّق في البحث، نفس الكلية، 1996.

- التركي عروسية، **المقاومة المسلّحة في جهة الأعراض من 1952 إلى 1954**، رسالة ش.ك.ب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، 1985.

- قضتومي، سليم ، **المقاومة المسلّحة في الأرياف والبوادي التّونسيّة في الخمسينات، الخطوط العامّة**، (ش-ك-ب)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، 1990

- ناصري، محمد المختار ، **الحركة الوطنية بين البورقيبية واليوسفية (1934-1961)**، ش.ك.ب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتونس، 1991.

- ناصري، محمد المختار، **المقاومة التونسيّة المسلّحة وإشكالياتها: 1952-1956**، أطروحة دكتوراه، كليّة العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، 2002.

ثالثا : منشورات بالفرنسية :

1- كتب :

- Achour, Habib, **Ma vie politique et syndicale : Enthousiasme et déceptions (1944-1981)**, Tunis, Alif Editions de la Méditerranée, 1989.
- Aldib, Fathi, **Abdel Nasser et la Révolution algérienne**, Paris, L'Harmattan, (traduit de l'arabe), 1985.

- Ayachi, Mokhtar, **L'Union Générale des Étudiants de Tunisie, au cours des années 50/60**, Pub. de l'ISHMN, Tunis, 2003.

- Azzouz, Ezzeddine, **l'Histoire ne pardonne pas, Tunisie : 1938-1949**, Paris, l'Harmattan-Dar Ashraf Editions, 1988.

- Ben Hamida, Abdesslem, **Le syndicalisme tunisien de la deuxième guerre mondiale à l'autonomie interne**, Pub. De l'Univ. de Tunis 1, 1989.

- Boudali, Nouri, **Etre et durer**, Tunis, Imp. Al Asria, 1995.

- C.I.C.R.C, **Livre sur la détention politique en Tunisie**, les éditions du Pavois, 1953.

- Elmachet, Samya, **Tunisie. Les chemins vers l'indépendance (1945-1956)**, Paris, L'Harmattan, 1992.

- Fanon, Frantz, **Les damnés de la terre**, Maspero, 1974.

- H.M.N, **L'échec de la répression** , Documents XIII, Tunis, DAR El AMAL, 1979.

- H.M.N, **Le Nouvel Etat**, Dar El Amal, Tunis, 1982.

- H.M.N., **Le Néo-Destour face à la troisième épreuve**, Dar El Amal, Tunis, 1979, tomes 1, 2 et 3.

- Harbi, Mohamed, **Le F.L.N., Mirage et Réalité, Dès origines à la prise du pouvoir (1945-1962)**, Paris, Les Editions du J.A., 2ème Edition, 1985.

- Inspection des Forces Terrestres, Maritimes et Aériennes de l'Afrique du Nord: **"Les partis nationalistes en Afrique du Nord"**, Diffusion restreinte, mars 1955, à I.R.M.C. (Tunis).

- Julien, Charles-André, **Et la Tunisie devint indépendante (1951-1957)**, les Editions J.A. /S.T.D., 1985.

- Julien, Charles-André, **Le Maroc face aux impérialismes, 1415-1956**, Editions J. A., Paris 1978.

- Méléro, Antoine, **La Main rouge, L'Armée secrète de la République**, Paris, Editions du Rocher, 1997.

2 مقالات :

- Aleya Sghaïer, Amira, "Contribution à l'étude des associations françaises non-politiques, en Tunisie entre 1881 et 1939", in **R.H.M.** n° 75-76, mai 1994, p. 272.

- Aleya Sghaïer, Amira, "Les groupements politiques français de droite en Tunisie et la décolonisation (1954-1956)", in, **Actes du IX colloque international sur processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964),** pub de l'ISHMN, Tunis, 1999, pp. 205-236.

- Aleya Sghaier, Amira, "Les Tunisiens et la révolution algérienne(1954-1958)", in **Méthodologie de l'Histoire des Mouvements Nationaux au Maghreb**, Zaghouan, FTERSI., 1998, pp. 109-149.

- Belaïd, Habib, "Les associations tunisiennes et françaises au cours des années 1950 à l'heure de la décolonisation", in, **Processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, Pub. De l'ISHMN, Tunis, 1999, pp. 355-372.

- Belaid, Habib, "Un exemple d'association d'encadrement : Les Anciens Combattants de Tunisie (1950-1951)", in Actes du VIe Colloque International sur **la Tunisie de 1950-1951**, I.S.H.M.N., Tunis, 1993.

- Ben Hamida, Abdesslem, "Le rôle du syndicalisme tunisien dans le mouvement de libération nationale 1946-1956)", in **Cahiers de Tunisie**, numéros 117-118, 1981, pp. 237-250.

- DAR EL AMAL, **Le Nouvel Etat**, dans la série H.M.N.T., Pub. de Dar El Amal, Tunis, 1983, Tome3.

- De Cock, Laurence, "La France et Bourguiba : 1945-1956", in Actes du VIIIe colloque international sur : **Histoire orale et relations tuniso-françaises de 1945 à 1962, la parole aux témoins**, Pub. de l'ISHMN., 1989, pp. 75-84.

- "Entretien Charles Saumagne- Ben Youssef", in **Les Temps Modernes**, mars 1976.

- Kazdaghli, Habib, « Minorités et communautés de Tunisie face à la décolonisation, 1955-1962 ».

- Kraiem, Mustapha, "1952, L'année ultime dans la vie de Hached : son action de résistance et son assassinat" in **Processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, Pub. de l'ISHMN, Tunis 1999, pp. 149-186.

- Souyris, A., "Le Mouvement Fellaga tunisien. Expression d'une révolution sociale, (30 novembre 1955)" , in, **Rawafid**, n°2, 1996, p. 162.

3- أطروحات ومذكرات مخطوطة :

- Bort (Capit de H.), **Notes sur la naissance et le développement du nationalisme dans les territoires du sud tunisien (avril 1955)**, Archives du M.A.E. in Recueils, Etudes et Conférences, à l'I.R.M.C. (Tunis).

- Faurie (Capitaine), **La dissidence au Nefzaoua (1952-1954), (18 avril 1955),** Archives diplomatiques, in Rapports, Etudes Conférences, en microfilm à l'I.R.M.C. (Tunis).

- Oualdi, M'Hamed, **L'orage des indépendances. Salah Ben Youssef et les Youssefistes en Tunisie en 1955-1956**, Mémoire d'Histoire sous la direction de Daniel Rivet, Univ.Paris I, 1998-1999.

الكشـــافـــات

كشاف المنظمات

كشاف أسماء الأعلام

-ت-

-ث-

-ج-

-ح-

-خ-

-د-

-ذ-

-ر-

-ز-

-س-

-ش-

-ص-

-ع-

كشاف البلدان والمواقع

أستاذ جامعي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة (تونس). من مواليد 1954 بأمّ الصّمعة (قبلّي) زاول تعليمه الثّانوي بقبلّي وقابس. تحصّل على الإجازة ودبلوم الدّراسات المعمّقة من جامعة قرونوبل بفرنسا وعلى دكتوراه المرحلة الثّالثة من كلّيّة العلوم الانسانيّة والاجتماعيّة 9 أفريل بتونس في التّاريخ المعاصر. صدر له أكثر من ثلاثين دراسة في موضوع اختصاصه
" الجاليات الاوربيّة والحركة الوطنيّة بتو
" اليمين الفرنسي بتونس بين 1943-946
و"المقاومة المسلّحة بتونس 1881-1939"
عدنان المنصر).

عميرة عليّة الصغيّر






مطبعة التسفير الفني
Tel 74 439 030

ر.د.م.ك ISBN: 9973-51-427-0
الإيداع القانوني
الثلاثية الثانية 2004